العشائرية والدولة: دراسة لظاهرة المضافات في مدينة إربد

إعداد:
عبدالحكيم خالد الحسباني

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١٩٩٢

عنوان الرسالة :

العشائرية والدولة : دراسة لظاهرة المضافات في مدينة إربد.

إعداد :

عبدالحكيم خالد الحسباني
بكالوريوس صحافة وإعلام
١٩٨٨

جامعة اليرموك

قدمت هذه الرسالة إستكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في الآداب - قسم الأنثروبولوجيا - معهد الآثار والأنثروبولوجيا.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لجنة المناقشة

المشرف	د. ستناي شامي	
عضو	د. وليام يونغ	W.C. Young
عضو	د. جان هانوير	J. Hanover

الإهداء

إلى والدي ووالدتي مع كل الحب والتقدير

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شكر وتقدير

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم في إتمام هذه الدراسة وتنفيذها، والذين تتنوع مساعدتهم ومساهماتهم.

وبدء فإنني أتوجه بالشكر إلى د. ستناي شامي التي قامت بالإشراف على جميع متطلبات الدراسة، الأكاديمية والرسمية حتى اللحظة الأخيرة. كذلك، يمتد هذا الشكر الى كل من د. جان شانوبير الذي أعطى حيزا كبيرا من وقته الى قراءة الدراسة ومناقشتها، بالرغم من مشاغله الرسمية المتعددة. أما د. وليام يونغ فقد بذل أيضا جهودا طيبة ينبغي التنويه بها في مختلف مراحل كتابة الدراسة.

ومن المهم التنويه بالمساعدة التي قدمها عدد كبير من الأشخاص داخل المضافات، ومن العشائر المختلفة في مدينة إربد، وأشير إلى كل من السادة: حسن التل، ويوسف عبدالقادر التل، وغسان التل، وتوفيق حتاملة، و د. أكرم حتاملة، ومحمد بني هاني، وعواد بني هاني، ومحمد عابد طبيشات، و د. عبدالرزاق طبيشات، ووصفي طبيشات، والحاج عبدالله جراد طبيشات، والحاج يوسف سليمان البصول، والحاج محمد عطية البصول، والمنهدس محمد ضيف الله الرشيدات، ونبيل الرشيدات، والأستاذ زياد خريس، وعناد خريس.

ويمتد الشكر والعرفان إلى الكثيرين من الزملاء داخل معهد الآثار والانثروبولوجيا الذين لم أجد منهم إلا التعاون والمساندة بجميع أشكالها، وتتجسد مساعدة السيد محمد باير طبيشات في المشاركة في بلورة موضوع الدراسة. أما مساعدة كل من الأصدقاء خالد دوغلاس وعبدالله الشبول ومحمد الديري ومحمد جرادات ووسن حجازي وناهد طبيشات وفاطمة أبو جزر وأسيل صوالحة وحسين قدره وهاني هياجنة وربى جبرين وفردوس العجلوني، فلا يمكن تقييمها.

كذلك، فان من المهم الاشارة الى الجهود التي بذلها أفراد عائلتي في توفير الظروف المناسبة لاتمام هذه الدراسة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس الخرائط

١ ـ خريطة الأردن تبين موقع مدينة إربد.

٢ـ خريطة تبين توزيع المضافات على الأحياء المختلفة في مدينة إربد.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فهرس الأشكال

١ ـ مسقط علوي مع واجهة لإحدى المضافات القديمة
في منطقة البارحة (مضافة البصول)

٢ـ مسقط علوي مع واجهة لإحدى المضافات الحديثة
في وسط مدينة إربد (مضافة الرشيدات)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مـلـخـص

تهدف الدراسة الى تحليل العلاقة بين أحد الوحدات الإجتماعية (العشيرة) وجهاز الدولة (البيروقراطية) من خلال الدراسة الميدانية لظاهرة المضافات في مدينة إربد، ويمكن تعريف المضافات بأنها بيوت تقوم بعض الوحدات القرابية ببنائها، لتمارس فيها بعض الأنشطة المتعلقة بالوحدة القرابية أو أحد أعضائها، بعد أن كانت المضافة تشغل أحد الغرف في بيت الزعيم داخل الوحدة القرابية في مطلع هذا القرن.

وتقوم إشكالية الدراسة على تفحص بعض المقولات التحديثية التي ترى في أعضاء الجهاز البيروقراطي، بمثابة محتوى لطبقة وسطى قادرة على نقل المجتمع الى مرحلة الحداثة، وتجاوز التنظيمات التقليدية في مجتمعات العالم الثالث وضمن نفس المقولات، تم تحديد المضافات باعتبارها تجسد أشكالا تقليدية من المؤسسات ينبغي زوالها بفعل تضخم حجم الجهاز البيروقراطي.

لقد بينت الدراسة حدوث تطور على شكل الزعامة، فبعد أن كانت الزعامة تعتمد على حجم ملكية الأرض والحيوانات في مطلع هذا القرن، أصبحت تعتمد كثيرا على العمل في الجهاز البيروقراطي التابع للدولة، وبينت الدراسة ايضا تطور الأنشطة التي تمارس داخل المضافات، فمن مضافة تجسد علاقة الزعيم «بالآخر» القادم من خارج المدينة، الى مضافة تجسد العلاقة بين «النحن» و«الآخرين»، أي العلاقة بين وحدة قرابية ما والوحدات القرابية الأخرى.

وبذلك، توضح الدراسة، وفيما يتعلق بملكية المضافات، أنها أصبحت ذات ملكية جماعية تعود لكامل أعضاء الوحدة القرابية، بعد أن كانت تعود لمالك فرد داخل الوحدة القرابية، متميز إقتصاديا وإجتماعيا، وتوضح ايضا، أن المضافات، أصبحت تعمل حاليا على تكريس مفهوم العشيرة، كتنظيم إجتماعي يتعرض لضغوطات إقتصادية وإجتماعية مختلفة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد بينت الدراسة أن مختلف الشرائح العمرية والاجتماعية تتردد على المضافات حاليا، وتشارك بأنشطتها، بعد أن كانت المضافات تشهد ترددا لفئات أقل تباينا من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية، وبعد أن كان هدف المضافات موجها نحو إستقبال القادمين من المناطق المحيطة بمدينة إربد وأيوائهم لبضعة أيام، أصبح هدف المضافات يتحدد من خلال علاقة الوحدة القرابية بالوحدات القرابية الأخرى.

ويتجسد الاستنتاج الجوهري للدراسة في تأكيد الدور الضخم الذي تقوم به فئة العاملين بالجهاز البيروقراطي، أو الراغبين بدخوله من خلال المضافات، إن معظم المضافات التي تقام حاليا، يكون المحفز لقيامها أشخاص عاملون في الجهاز البيروقراطي، كذلك، فإن معظم الأنشطة التي تمارس داخل المضافات، ترعاها شخصيات متنفذة بيروقراطيا، وتوحي هذه النتائج بالدور الذي يمارسه البيروقراط في عملية التغير الاجتماعي، فهم يعملون على ترسيخ مفهوم العشيرة وإعادة إحيائه إيديولوجيا بوسائل مختلفة، من خلال تشجيع بناء المضافات ورعاية أنشطتها.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

Abstract

Tribalism and the State: The Phenomenon of the Madafas in Irbid.

The aim of this study is to determine whether the relationship between tribe and state that is predicted by social theory is in fact present in northern Jordan. Its focus is on one of the social units in Irbid (the tribe) and the state apparatus (bureaucracy). The data for the study were gathered during anthropological fieldwork in the Madafas in the city of Irbid. The Madafa has been defined procedurally as a private house that has been built by the members of an extended kinship group (tribe) as a place for carrying out activities which concern the kinship groups or one of its members.

The study examines some notions formulated by the adherents of the modernization school of social thought, who say that the members of the bureaucratic apparatus can constitute a middle class which can transform and modernize society, defeating the so-called "traditional" organizations in the Third World. On the basis of these notions, Madafas have been classified as traditional phenomena that should disappear as a result of the expansion of the bureaucratic apparatus in Jordan.

The study traces the development of the context in which Madafas existed since the beginning of this century. Obviously the influence of the state on the city was weak in the beginning of this century, and the network of public transportation in the countryside was also weak. In addition, the basic economic activities were simple rainfed agriculture and animal husbandry. In this context the Madafas embodied the authority of the tribal leader inside the kinship group. But currently, the Madafas are proliferating in a very different context. The state apparatus is now very much expanded, an efficient public transportation network has been constructed, and economic activities are multiplying and expanding.

The study also clarifies the development of new bases of leadership. In the beginning of this century leadership depended on the ownership of land and animals. But currently it depends on employment in the governmental bureaucratic apparatus. In addition, the study shows the development of the activities that are performed by the Madafas. In the past, the Madafa was the arena in which a personal relationship between the tribal leader and a stranger coming to Irbid from the surrounding areas was established, i.e. between an Ego and an Other. At present, the Madafas represent the relationship between the kinship group and other kinship groups, i.e. the relationship between Us and Others.

One of the main conclusions of the study is that the ownership of the Madafas has changed. Whereas the Madafas had been owned by particular individuals in the past, now ownership is collective, and concerns whole kinship groups. Consequently, the Madafas are play a crucial role in reviving and reproducing the concept of

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

tribe as a social unit.

The study also shows that the Madafas now are witnessing different activities performed by different socio-economic groups. One can argue that, in the past, variation in the socio-economic status of these groups was small. Now, however, most of the visitors in the Madafas are employed in the governmental bureaucratic apparatus.

The foregoing facts inspired a fundamental conclusion concerning the role inside the Madafas of bureaucrats and the people who wish to work in the important offices of the bureaucracy. It is important to note that most of the Madafas that were established in the present were supported by this group. In addition, most activities that are performed inside the Madafas are led and encouraged by the bureaucrats. So, one can discover the actual role of bureaucrats in Jordanian society; through working inside the Madafas,the bureaucrats are reviving the concept of tribe and tribalism instead of defeating this phenomenon.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المحتويات	الصفحة
ـ عنوان الرسالة	أ
ـ الاهداء	ب
ـ شكر وتقدير	ت
ـ قائمة الخرائط	ث
ـ قائمة الأشكال	ج
ـ ملخص الرسالة باللغة العربية	ح – خ
ـ ملخص الرسالة باللغة الإنجليزية	د ـ ذ
الفصل الأول:	
١ ـ تمهيد،	١
٢ ـ موضوع الدراسة،	٢
٣ ـ إختيار منطقة الدراسة،	٤
٤ ـ الدراسات المتعلقة بموضوع البحث،	١٠
أ ـ الدراسات المتعلقة بمفهوم السلطة وأشكالها،	١١
ب ـ الدراسات المتعلقة بالبيروقراطية،	١٤
ج ـ الدراسات المتعلقة بالعشائرية،	٢٠
د ـ الدولة والعشائرية والعشيرة أوالقبيلة،	٢٢
هـ ـ الدراسات المتعلقة بالمضافات	٣١
و ـ الدراسات المتعلقة بالبيروقراطية وبالعشيرة وبالدولة في الأردن،	٣٤
٥ ـ إشكالية الدراسة،	٣٦
٦ ـ منهج البحث ومحدداته	٤٣

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني:

الصفحة

عوامل نشوء المضافات وأنشطتها السابقة

- مقدمة ٤٩
١- العشائر في مدينة إربد ٥٠
٢ - عوامل إنشاء المضافات في الماضي ٥٢
أ - العوامل الاقتصادية ٥٣
ب - العوامل السياسية ٥٨
ج - العوامل الإجتماعية ٦١
٣ - الأنشطة التي مورست عبر المضافات في الماضي ٦٦
٤ - خلاصة ٧٤

الفصل الثالث:

عوامل نشوء المضافات حاليا والأنشطة التي تمارس عبرها

مقدمة ٧٦
١ - تطور عوامل نشوء المضافات ٧٦
أ - التغير الإقتصادي ونمو البيروقراطية في الأردن ٧٧
ب - التطورات السياسية المرافقة ٧٩
ج - التطورات الإجتماعية وتطور مفهوم الزعامة ٨٦
٢ - النشاطات التي تمارس داخل المضافات حاليا ٨٩
أ - النشاطات اليومية ٩٤
ب - أنشطة المناسبات المختلفة ٩٥
ج - الأنشطة المستحدثة ١٠٣
د - توسع الأنشطة السياسية في المضافات ١٠٦
٣ - خلاصة ١٠٩

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابع:

الخصائص الديموغرافية والإجتماعية لرواد المضافات وتطور الزعامة.

الصفحة

- مقدمة. ١١١
١ - التحديد الديموغرافي للرواد. ١١٣
٢ - التحديد الإجتماعي ١١٧
٣ - تطور مفهوم الزعامة وشروطها وعلاقته بالمضافات ١٢٢
٤ - التحديد الايديولوجي ١٣٢
٥ - خلاصة. ١٤٢

الفصل الخامس:

الإستنتاجات. ١٤٤
العشيرة كبناء وأيديولوجيا وعلاقته بالبيروقراط ١٤٤

- المراجع العربية والأجنبية ١٥٥

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصـــل الأول

المـــقدمـــة

١ ـ تمهيد

شهدت مدينة إربد في الحقبة الزمنية التي تلت السبعينيات تناميا ملحوظا في أعداد المضافات وهي (أبنية ترتبط بوحدات قرابية مختلفة، حيث تناط بها مجموعة من الانشطة المختلفة المتعلقة بالوحدة القرابية، أو أنشطة تتعلق بالوحدة القرابية في علاقتها مع الوحدات القرابية المختلفة).

وبالرغم من أن كثيرا من هذه المضافات تم إنشائه في الفترة الزمنية التي تلت عقد السبعينيات، إلا أن بعضها تم إنشائه في فترات سابقة، وفي الغالب فإن المضافات ارتبطت في الماضي ببيت المختار أو الشيخ داخل الوحدة القرابية، ولم تكن تتكون من بيت منفصل، وإنما كانت المضافة تتكون من غرفة واسعة ملحقة ببيت الشيخ أو المختار،وحاليا فإن المضافة أصبحت ترتبط بوحدات قرابية بدلا من الزعيم أو المختار، وأصبح بناء المضافة يستدعي مشاركة واسعة من معظم أفراد الوحدة القرابية، ويمكن للملاحظة البسيطة والاولية، أن ترى التنوع الكبير في حجم الأنشطة التي تمارس عبر المضافات، كذلك فإنه يمكن ملاحظة عدد الوحدات القرابية التي تملك مضافات، وكذلك حجم المنطقة الجغرافية التي تمارس المضافات أنشطتها ضمنه.

لقد شهد عقد السبعينيات، أيضا، بدايات تضخم الجهاز البيروقراطي في الأردن عامة، نتيجة التدفق النقدي الكبير، الذي جاء بفعل عوامل اقليمية وعالمية، إن هذا التدفق أتاح للجهاز البيروقراطي أمكانيات كبيرة للتوسع افقيا وعاموديا، إذ تم التوسع في المؤسسات البيروقراطية القائمة، وفي نفس الوقت تم استحداث وإنشاء مؤسسات أخرى جديدة، وقد شهدت مدينة إربد أيضا توسعا كبيرا في حجم المؤسسات البيروقراطية، وإن كانت وتيرة هذا التوسع لا توازي وتيرة التوسع الذي شهدته مناطق أخرى، كالعاصمة عمان، لقد كان من إفرازات هذا التوسع بروز شرائح إجتماعية كبيرة وجديدة، لها سماتها الخاصة، وفي نفس

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الوقت لها تاثيراتها على مجمل عناصر البنية الاقتصادية ـ الاجتماعية في الأردن،

إن الأخذ بالحقائق السابقة ينطوي على التسليم بأن ثمة علاقة تزامنSynchrony بين تنامي أعداد المضافات وتنامي حجم الجهاز البيروقراطي في إربد، إلا أنه وبالإضافة إلى العلاقة التزامنية التي تربط الظاهرتين، فإن ثمة ارتباط يمكن ملاحظته وبسهولة؛ إن كثيرا من المتنفذين داخل المضافات، اي أولئك الذين يتمتعون بالقدرة على اتخاذ قرارات تنظيمية ووظائفية داخل المضافات، هم أعضاء في الجهاز البيروقراطي

٢ ـ موضوع الدراسة:

تفتقر ظاهرة المضافات في الأردن، والظواهر المشابهة في المنطقة العربية إلى الإهتمام الاكاديمي وبالرغم من النمو الكبير في أعداد هذه المضافات في الاردن، فإنه لم يكن بالإمكان الحصول على دراسات حولها، أما الظواهر المشابهة في المنطقة العربية كلبنان، والبحرين، والكويت، فإن الدراسات حولها قليلة، ويعاني هذا القليل أيضا من كثير من العيوب والاختلالات

فبعض الدراسات ترى في المضافات ظاهرة ملازمة للتنظيم القبلي أو للمجتمعات البدوية، وهي تكتفي بمجرد الاشارة إلى هذا التلازم، ولا تقوم هذه الدراسات بأي تحليل سوسيولوجي أو انثروبولوجي للظاهرة، وانما يكتفي بالتعريف (محجوب ١٩٧٤)، ويتناول اتجاه آخر المضافات أو الظواهر المشابهة من خلال تحليل منصب الشيخ داخل الوحدة القرابية (الراعي ١٩٨٧)، إن كلا الاتجاهين يغفلان المغزى الأنثروبولوجي والإجتماعي لهذه الظواهر داخل المجتمعات التي توجد في ظلها، وهما يغفلان أيضا طبيعة الشروط الاقتصادية ـ الاجتماعية التي تبرز المضافات نتيجتها،

ويتفق كثير من الدراسات، على أن إحدى السمات الهامة التي تميز مجتمعات مرحلة ما بعد الإستعمار ومن ضمنها مجتمعات الشرق الأوسط، هي تنامي جهاز الدولة المتمثل في الجهاز البيروقراطي الذي تشعبت بناءاته وأهدافه وبالنظر الى هذا التضخم، فإن بعض الاتجاهات الفكرية تميل الى رؤية البيروقراطية،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

باعتبارها جهازا قادرا على خلق وصوغ الطبقة الوسطى الضرورية لانتقال المجتمعات من صيغ تقليدية إلى أخرى حديثة (برغر ١٩٥٨)، ويترافق مع هذه المقولة، افتراض يرى بأن القبيلة والايديولوجيا الملازمة لها (العشائرية)، ينبغي أن تختفيا لمصلحة الايديولوجيا القومية، فالفكر القومي ضروري للانتقال من مرحلة المجتمع التقليدي الى مرحلة المجتمع الحديث (فاتيكيوتيس في تيرنر ١٩٧٨: ٧٣).

ويستند الافتراض حول دور الجهاز البيروقراطي في التحديث إلى مقولات فيبرية سابقة، وهي المقولات التي ترى في البيروقراطية شكلا متطورا من التنظيم يلازم المجتمعات الحديثة، في حين لا تمتلك مجتمعات ما قبل الحداثة والتصنيع هكذا أشكال من التنظيم التي تتسم بكونها عقلانية، ففي مجتمعات ما قبل الحداثة تسود أشكال من السلطة التقليدية، الابوية أو الميراثية، وقد أشار فيبر(بدون تاريخ : ٦) إلى وجود أشكال تاريخية قديمة للتنظيم البيروقراطي سواء في مصر أو في الهند أو في الصين، إلا انه يعتبر أن البيروقراطية بشكلها العقلاني هي من خصائص المجتمعات الغربية فقط.

إن موضوع الدراسة يتحدد في محاولة فهم أهم ملامح البنية الاجتماعية التي تتيح إمكانية تواجد شكلين من السلطة يعتبران متعارضان جنبا إلى جنب، بالرغم من الإفتراض الذي يقول بقدرة السلطة البيروقراطية على سحق الاشكال التقليدية من السلطة، التي ستختفي بفعل الطبيعة والإمكانيات التحديثية لفئة البيروقراط وهؤلاء البيروقراط الذين أشير اليهم كفئة إجتماعية تشكل مضمونا لطبقة وسطى في مجتمعات الشرق الاوسط، سيقومون بخلق مؤسسات حديثة من قبيل المؤسسات الحزبية والمدنية، وسيعملون على نشر إيديولوجيا ذات مضامين قومية، بدلا من الأشكال التقليدية من الأيديولوجيا(كالعشائرية).

ويتطلب تفحص المقولات السابقة دراسة المضافات، باعتبارها شكلا خاصا من المؤسسات التي تقدم نموذجا تجريبيا لعلاقات القرابة، والتي تقدم شكلا تنظيميا ملموسا لمجموعة من العلاقات المجردة، وكذلك يتطلب دراسة مجموعة الأنشطة المختلفة التي تؤديها داخل البنية الاجتماعية التي تتواجد المضافات ضمنها، ومن المهم أيضا تفحص تطور العلاقة بين المضافات والبيروقراطية وهو

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ما يتطلب دراسة التغيرات التي طرأت على صعيد السمات الإجتماعية لمشجعي المضافات والمتنفذين داخلها.

لقد ركز البحث بالتحديد على دراسة ١١ مضافة، التي تقوم بعض الوحدات القرابية ببنائها، حيث كان ٦ منها في منطقة البارحة، التي تقع غرب مدينة إربد، والباقي في مدينة إربد، وهي تتوزع على الاحياء المختلفة في المدينة. ومن المهم الاشارة الى أن ٩ من المضافات التي تمت دراستها تتبع وحدات قرابية، في حين أن إثنتين منها تعود ملكيتهما إلى شخصين داخل أحد الوحدات القرابية. وقد تم دراسة المضافات الحالية من حيث الانشطة التي تؤديها وطبيعة الزعامة داخلها، بالإضافة الى دراسة المضافات في مطلع هذا القرن من حيث الرواد والانشطة، ومن حيث طبيعة الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة وساعدت على إبراز المضافات، وإزدهار عملها، إضافة الى دراسة ظاهرة الزعامة وسط تلك الظروف.

٣ - إختيار منطقة الدراسة.

لقد جاء إختيار مدينة إربد كمنطقة ينفذ فيها البحث الميداني (خارطة رقم ١)، نظرا لعدة عوامل، أهمها ما يتعلق بالتركيبة الاجتماعية لهذه المدينة. كذلك فإن عوامل من قبيل الوضع البيروقراطي للمدينة، وأعداد المضافات بها، لعبت جميعها دورا في تحديد المدينة كمنطقة للبحث.

ويبدو من المهم الاشارة وبشكل مختصر الى بعض المعلومات المتعلقة بتاريخ المدينة، ان أحد التلال في اربد (تل اربد) يشير إلى استيطان قديم للمدينة يعود الى العصر البرونزي الاول أي إلى حوالي ٣٥٠٠ ق. م (هاردنج ١٩٦٧: ٥٦)، وقد لعبت المدينة دورا مميزا في العصر الاموي، نظرا لقربها من العاصمة الاموية دمشق (الدباغ في الربايعة ١٩٨٢: ١٦). أما في القرن التاسع عشر فقد امتلكت المدينة بعض الاهمية، وإن كان من الملاحظ (عدم وجود آثار تستحق الذكر، سوى الاسوار المحيطة بالقلعة) (بيركهارت في الربايعة ١٩٨٤: ١٧).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

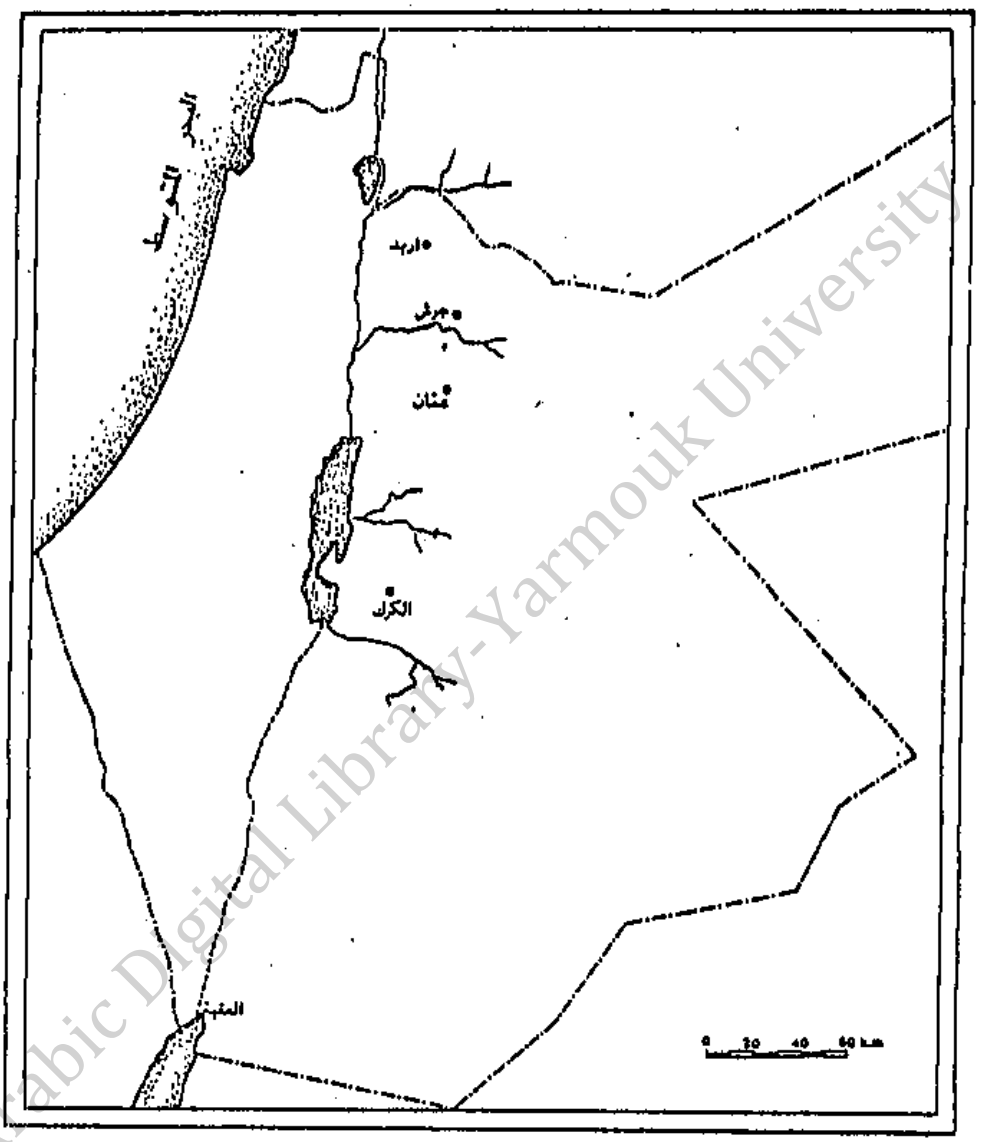

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

١ ـ خريطة الأردن تبين موقع مدينة إربد.

وفيما يتصل بالنشاطات الاقتصادية السائدة في المدينة حتى العام ١٩٥٠، فان بعض الدراسات تتحدث عن الزراعة باعتبارها الركن الأساسي لاقتصاد المدينة قبل أن ينافسها النشاط التجاري والحرفي، أما أهم المحاصيل المزروعة فهي القمح والشعير والخضار والأشجار المثمرة، إضافة إلى نمو الأعشاب الجيدة لرعي المواشي (الربايعة ١٩٨٢: ١٧)، إلا أن بعض الدراسات تتحدث عن تدهور في مختلف النشاطات الاقتصادية وبضمنها الزراعية، بالنظر إلى « تسلط العثمانيين، الذي أدى أيضا إلى تدهور النشاط التجاري، وانتشار الفوضى والإضطرابات، حيث يعود السبب في ذلك الى قيام العثمانيين بتلزيم الأمصار لإشراف أحد الرجال الذين تعهد اليهم الحكومة للقيام بجمع الضرائب من السكان» (الطوالبة ١٩٨٢: ٥٠).

وتشير بعض الدراسات إلى أن الاستيطان البشري في المدينة لم يكن مزدهرا في القرن التاسع عشر، إلا أن المدينة بدأت في اكتساب بعض الاهمية عندما قامت الحكومة العثمانية ببناء« دار للحكومة في العام ١٨٨٤، وكان في ساحتها حوض ماء «بركة» يستقي منه أهلها» (ماضي وموسى في الطوالبه ١٩٨٢: ١٤)، وفيما يتعلق بالوضع السكاني في العام ١٨٨٤، فإن الدراسات تتحدث عن وجود عدد من السكان لا يزيد عن ٧٠٠ نسمة (ماضي وموسى في الطوالبة ١٩٨٢: ١٤)، ومنذ تأسيس إمارة شرق الأردن، فقد تضاعف عدد سكان المدينة عدة مرات، ففي العام ١٩٢٢ بلغ عدد سكانها حوالي ٣٥٠٠ نسمة، أما في العام ١٩٤٦، فقد بلغ ٧٠٠٠ نسمة (موسى في الربايعة ١٩٨٢: ١٨)، وبعد الهجرة الفلسطينية الاولى فقد بلغ عدد السكان حوالي ٩٠٠٠ نسمة، في حين وصل عدد السكان في العام ١٩٦٧ حوالي ٦٣٠٠٠ نسمة، أما إحصائيات العام ١٩٨٠، فتشير إلى ١١٣٠٠٠ نسمة (الطوالبة ١٩٨٤: ٥٥).

وتتسم التركيبة الإجتماعية بخصائص مميزة من حيث وجود مجموعات قرابية لها امتداد تاريخي طويل في المدينة، وفي نفس الوقت وجود أغلبية سكانية لاتنتمي لهذه المجموعات، وتبين دراسة الربايعة (١٩٨٢) الدور الذي لعبته الهجرات المختلفة في التركيبة الديموغرافية والإجتماعية للمدينة، والتي يعد احدها وجود روابط قوية بين الكثيرين من سكان المدينة ووحدات قرابية مختلفة تقطن خارج المدينة، وخصوصا في الريف المحيط، وهناك حديث شائع بين سكان المدينة عن «العشائر القديمة» التي سكنت إربد، كذلك، فإن مجتمع الدراسة يقيم ربطا كبيرا بين تاريخ المدينة، ووجود هذه الوحدات القرابية التي يبلغ

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عددها سبعاً.

كذلك، فإن موقع مدينة إربد كمركز للخدمات، تحيط به أعداد كبيرة من المدن والقرى والتجمعات السكانية، جعل من المدينة مركزاً بيروقراطياً يخدم هذه المناطق المحيطة، وقد أدى هذا الموقع إلى تضخم أعداد المؤسسات البيروقراطية في المدينة، وإلى ازدياد أعداد الأفراد المنخرطين في العمل بهذه المؤسسات، وبالتالي وجود فئة بيروقراطية كبيرة الحجم، ويتيح هذا الأمر تفحص بعض المقولات المتعلقة بالبيروقراط كفئة إجتماعية تشكل مضموناً لطبقة وسطى تسعى للتحديث.

وينبغي التمييز بين المضافات وبعض المؤسسات المشابهة التي تنتشر في مدينة إربد، فهناك الروابط القروية، وهناك الجمعيات، وفيما يتعلق بالروابط فإنها تقام من قبل الفلسطينيين القاطنين في المدينة، ويتم إقامتها والانتساب إليها من خلال الإعتماد على تجانس مكان القدوم من فلسطين، ولا يعتمد الانتساب إليها على روابط الدم، وعلى سبيل المثال فإن أبناء قرية صفد القاطنين في إربد يملكون رابطة في الحي الجنوبي من المدينة، أما الجمعيات فإنها تقام من قبل المسيحيين القاطنين في المدينة، وتهدف هذه الجمعيات في الغالب إلى تحقيق مقدار معين من الدخل يتم استثماره لمساعدة بعض أبناء الطائفة المسيحية.

وتتوزع المضافات على مختلف الأماكن في مدينة إربد، فبعضها مقام وسط المدينة، وبعضها في الجزء الشمالي، وبعضها في الجزء الجنوبي(خارطة رقم ٢)، إلا أنه يمكن الحديث عن مميزات خاصة لكل منها، إن المضافات المقامة في شمال المدينة، تعود للوحدات القرابية التي قطنت المدينة بعد السبعينات، وهي تتكون من العائلات القادمة من بعض القرى المحيطة بالمدينة من جهة الشمال والشمال الغربي، وتعطي مضافة الملكاوية مثالاً لهذا النوع من المضافات، فقد قام أبناء عشائر الملكاوية القاطنين في إربد ببناء أحدى المضافات في الحي الشمالي من المدينة.

وتعود المضافات الموجودة وسط المدينة إلى الوحدات القرابية التي قطنت المدينة من منذ فترات طويلة، والتي يطلق عليها في الغالب العشائر السبع

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

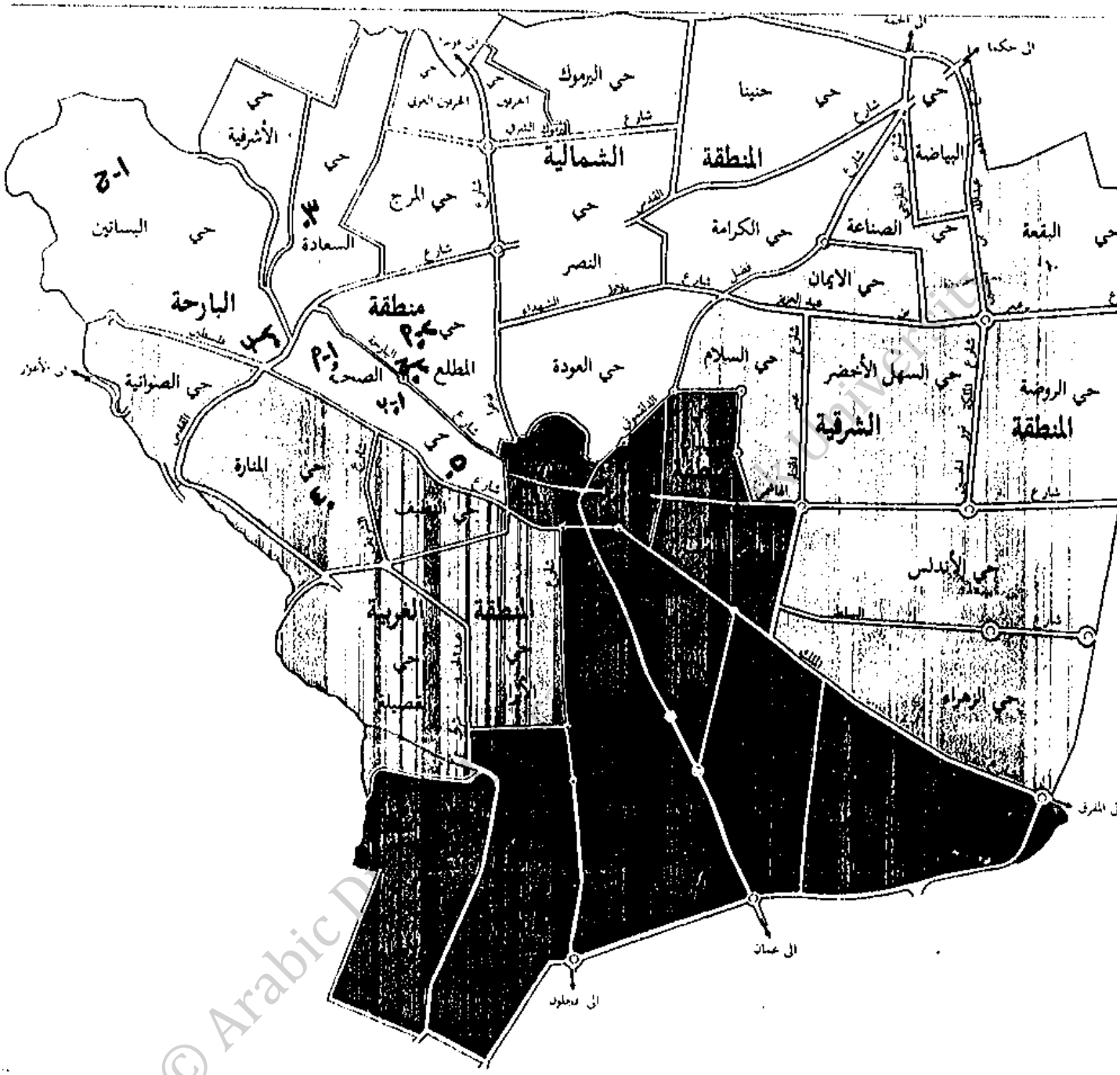

© Arabic Digital University

٢ـ خريطة تبين توزيع المضافات على الأحياء المختلفة في مدينة إربد.

١ ـ الطبيشات:

١ـ أ ـ فرع سحيمان

١ ـ ب ـ فرع خلف

١ ـ ج ـ فرع إسماعيل

٢ـ البصول:

٢ـ أ ـ مضافة البصول

٢ ـ ب ـ مضافة الحاج يوسف السليمان

٢ ـ ج ـ مضافة الحاج محمد عطية

٣ ـ مضافة بني هاني

٤ ـ مضافة الخريسات

٥ـ مضافة الرشيدات

٦ـ مضافة التلول

٧ـ مضافة الحتاملة

الاصلية في المدينة، إن مضافات الرشيدات والتلول والعبندات والخريسات والشرايرة والدلقموني تقع جميعها في وسط المدينة أو في مناطق قريبة منه، في حين لا تملك عشيرة الحجازات، وهي أحد العشائر السبع القديمة في المدينة، مضافة في الفترة الحالية، بالرغم من امتلاكها لمضافة في مطلع هذا القرن، أما المضافات المنتشرة في جنوبي المدينة فهي ترتبط ببعض القرى المجاورة بالنظر لتوسع المدينة، فاقتراب حدود المدينة جهة الغرب من قرية أيدون عمل على إنشاء بعض المضافات التي تعود لوحدات قرابية تعيش في هذه القرية، وفي مدينة إربد في نفس الوقت.

وتنتشر في الجزء الغربي من المدينة وهو ما يسمى بمنطقة البارحة مضافات تعود لبعض الوحدات القرابية التي قطنت المنطقة منذ فترات طويلة، إلا أن هناك تمييزا عند القاطنين في مدينة إربد، وفي منطقة البارحة يقوم على فصل البارحة عن المدينة، فحتى العام ١٩٦٢ كان حي البارحة مفصولا ويشكل وحدة إدارية منفصلة عن المدينة، وله مجلس محلي يدير شؤون السكان، إلا أنه في العام ١٩٦٢ جرى دمج الحي في المدينة وأصبح الحي يشكل المنطقة الغربية من المدينة.

ويرتبط الحي بوحدات قرابية قديمة هي بني هاني، التي تعد من أكبر الوحدات القرابية في الحي وفي المدينة، وبوحدات البطاينة الذين يقطنون في بعض القرى المجاورة للمدينة، ووحدات الكوفحي والبصول والطبيشات، وتملك جميع هذه الوحدات مضافات خاصة بها، وبعض هذه الوحدات تملك أكثر من مضافة، فعشيرة البصول تملك ثلاث مضافات، وكذلك عشيرة الطبيشات، أما عشيرة بني هاني فهي تملك مضافتين وكذلك عشيرة البطاينة، وتملك عشيرة الكوفحي مضافة واحدة، وهناك بعض الوحدات التي تقطن الحي ولكن منذ فترة قريبة، ومنها عشيرة العودات، وهي تملك مضافة خاصة بها.

وتفيد الروايات الشفهية حول عدد المضافات بتضخم إعدادها في الفترة الحالية، فقد كان عدد المضافات في مدينة إربد لا يتجاوز السبع مضافات، وهو يرتبط بعدد الوحدات القرابية التي تقطن المدينة منذ فترة طويلة، وحاليا، فمن الصعب الحصول على الأعداد الدقيقة للمضافات، وإن كان يمكن التأكيد على أن

© Arabic Digital Library Yarmouk University

عددها يتجاوز السبع القديمة، أما حي البارحة فقد وجدت فيه في مطلع القرن خمس مضافات وهي: مضافات سعد العلي و صالح محمد المطلق البطاينة، ومضافة الحاج صالح اسماعيل طبيشات، وكانت هناك مضافة واحدة ترتبط بعشيرة بني هاني، وهي تعود إلى علي عبدالله بني هاني، في حين كانت هناك مضافة لأحد أفراد عشيرة البصول وهو الحاج عطية البصول.

ويبلغ عدد المضافات التي تم إنشائها في منطقة البارحة حاليا، ووفقا للروايات الشفهية حوالي ثلاثين مضافة، ويعود ارتفاع هذا العدد إلى امتلاك بعض الوحدات القرابية أكثر من مضافة، وإلى قيام بعض الوحدات القرابية التي قطنت الحي في فترة لاحقة ببناء بعض المضافات.

إلا أن من المهم الإشارة إلى أن بعض الوحدات القرابية في مدينة إربد، لا تملك مضافات ترتبط بها، وتتنوع هذه الوحدات القرابية، فمنها أحد الوحدات القرابية التي قطنت إربد في فترة قديمة، وهي عشيرة الحجازات، وقد أكد بعض كبار السن أن أحد أعضاء العشيرة وهو الحاج علي الحجازي امتلك في الماضي أحد المضافات في وسط المدينة، وحاليا فإن عشيرة الحجازات لا تملك مضافة خاصة بها.

إن هذه الأعداد الكبيرة من المضافات في إربد، سواء تلك التي تم بنائها في فترات سابقة لحقبة السبعينيات، أو تلك التي تم بنائها في الحقبة التي تلت السبعينيات، توفر فرصة لدراسة التطور الذي طرأ على أنشطة المضافات، وعلى صعيد الشخصيات المرتبطة بها، إضافة لتفحص التطور الذي طرأ على عوامل نشوء المضافات، كذلك، فإن وجود هذا الكم من المضافات يعطي فرصا جيدة لتفحص طبيعة العلاقة التي نشأت بين المضافات والبيروقراط كفئة اجتماعية كبيرة في المدينة.

٤ ـ الدراسات المتعلقة بموضوع البحث:

بالنظر إلى تشعب الموضوع الذي ستعالجه الدراسة، فإن ثمة موضوعات عديدة ستعالجها مراجعة الادبيات، فهناك أدبيات تتناول موضوع السلطة بشكل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عام، ثم تنتقل الادبيات لتعالج موضوع السلطة والتنظيم البيروقراطي وستكون هناك مناقشة لطبيعة العلاقة التي تربط الدولة بالقبيلة، حيث سيتم أولا تناول مفهوم القبيلة نظريا، ثم تلخيص لبعض الأدبيات التي تناولت العلاقة بين القبيلة والدولة من خلال العشائرية كأيديولوجيا تتوسط هذين الطرفين، كذلك، فإن بعض الأدبيات ستقدم تلخيصا لأهم الدراسات التي تناولت ظواهر مشابهة للمضافات في المنطقة العربية.

أ- الدراسات المتعلقة بمفهوم السلطة وأشكالها:

ينظر إلى مفهوم «السلطة» في الأنثروبولوجيا وفي غيره من العلوم الإنسانية، كمفهوم مثير للجدل، حيث يخضع المفهوم لاعتبارات أيديولوجية متباينة، تنعكس في الاختلافات الكبيرة في تعريف مفهوم السلطة، وفي تحديد شروط امتلاكها وفي أشكالها، ويمكن ملاحظة اختلاف جوهري بين الطريقة التي تعالج بها الأنثروبولوجيا مفهوم السلطة، وبين الطريقة التي تعالج بها الدراسات الإنسانية الأخرى مثل علم السياسة أو علم النفس، المفهوم ذاته. ففي الوقت الذي تتعامل فيه بعض الدراسات مع السلطة باعتبارها شكلاً من أشكال القدرة الفردية، أو القدرات الفطرية لدى الفرد، فإن المنهج الأنثروبولوجي يتعامل مع السلطة من خلال البناء الاجتماعي العام الذي تبرز فيه، وهو يتعامل مع السلطة باعتبارها نتاجا لمجموعة من العلاقات بين فئات إجتماعية مختلفة.

إن التجسيد للنوع الأول من الدراسات يكمن في تعريف Michels للسلطة، فهي «القدرة، فطرية كانت أم مكتسبة، لممارسة السيطرة على مجموعة ما، والسلطة هي التجلي الواضح والتجسيد للنفوذ Power» (في International Encyclopedia of Social Sciences vol 1-2 1968: 474) . أما تعريف Bierestedt فيعد الرد على الإتجاه الأول، ويعد تجسيداً للاتجاه الثاني في تناول السلطة الذي يركز على مفهوم العلاقات. فالسلطة وفقا له هي «ليست قدرة، وإنما هي علاقة . بالإضافة إلى أنها ليست فطرية»، ولا تتعلق بممارسة السيطرة. فالسلطة تصبح ظاهرة للنفوذ Power وهي ليست إلا نفوذ تم تمأسسه «Institutionalized Power» (في International Encyclopedia of Social Sciences 1968 vol 1-2: 474) .

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ثمة دراسات ترى في ظاهرة السلطة بمثابة ظاهرة ملازمة للدولة، في حين تميل بعض الدراسات الأخرى الى رؤية السلطة كظاهرة سابقة للدولة؛ وأقدم منها زمنيا، لقد رأى De Jouvenel أن ظاهرة السلطة هي أكثر تأصلا من تلك الظاهرة التي تدعى دولة، «فسيطرة مجموعة من الأفراد على مجموعة أو مجموعات أخرى، هو المبدأ الذي سار التنظيم الانساني عليه، وكذلك جميع البشر» (International Encyclopedia of Social Sciences 1968 Vol 1-2 : 473).

وتوفر آراء ماركس ودراساته مدخلا مهما في تناول البعد الاجتماعي للسلطة، كما أن دراسات فيبر تبدو مهمة في تحديد الاشكال المختلفة للسلطة والتطور التاريخي لهذه الأشكال.

لقد تناول ماركس السلطة، ليس كموضوع مستقل، وإنما من خلال تتبع اصولها بالاعتماد على تحليل أنماط الانتاج المختلفة التي سادت عبر حقب زمنية مختلفة، ويلعب مفهوم قوى الانتاج وتطور علاقات الانتاج دورا كبيرا في تحديد مفهوم السلطة واشكالها، وحسب التحليل الماركسي، فان السلطة تترافق مع بناء طبقي ما، يتكون من مجموعة من الطبقات الاجتماعية التي يسود بينها توزيع ما لوسائل الانتاج (بولانتزاس ١٩٨٣) ، ويحلل بولانتزاس السلطة من خلال العلاقات التي تبرز بين الطبقات المختلفة (١٩٨٣: ١١٣)، وهو يرى أن «مفهوم السلطة يعبر عن تاثير البنية الاجتماعية في العلاقات المتناقضة بين ممارسات الطبقات الاجتماعية المختلفة والمتصارعة» (١٩٨٣: ١١٣)، وبذلك يلجأ بولانتزاس إلى تعريف السلطة التي هي «قدرة طبقة اجتماعية معينة على تحقيق مصالحها الموضوعية الخاصة» (١٩٨٣: ١١٨)، ويكون من نتيجة هذا التوزيع هيمنة طبقة ما على هذه الوسائل، وهو الأمر الذي ينعكس في النهاية في هيمنتها وسيادتها، إن هيمنة طبقة ما إقتصاديا يعني هيمنتها سياسيا، اي إمتلاكها السلطة داخل المجتمع.

أما Max Weber فيقدم تحليلا مختلفا لذلك الذي قدمه ماركس، وهو لا يربط السلطة بالبناء الطبقي لمجتمع ما، حيث يلعب الإقتصاد الدور المقرر،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وإنما يدرسها من خلال القواعد الاجتماعية التي يخلقها المجتمع لممارسة هذه السلطة، يقسم فيبر السلطة إلى ثلاثة أشكال: التقليدية؛ والكارزماتية؛ والبيروقراطية Legal-Rational إن السلطة التقليدية تجد تجسيدا لها في السلطة الأبوية، وهي الشكل الاكثر قدما، في حين تجسد السلطة البيروقراطية الشكل الأكثر عقلانية، ومن ثم الأكثر حداثة.

تتحدد السلطة الأبوية، وفقا لـ فيبر (1964) من خلال مجموعة من العناصر أهمها: أن وسائل الإدارة تكون مقتصرة على مجموعة من الأشخاص تقوم بتنفيذ مجموعة من الوظائف، وعلى الأغلب فإن شخصية الزعيم هي الظاهرة البارزة في التنظيم الأبوي، وقد تتباين الدرجة التي فيها يحقق الزعيم سيطرة على الأرض، وتحقيق السيادة أيضا على الأتباع الذين يعاملون كعبيد، ونحو مزيد من التحديد، فان فيبر يعرف السلطة الأبوية Patriarchal Authority التي هي «الوضع الذي تكون فيه مجموعة ما تنظم نفسها بالاعتماد على كل من الأساسين الإقتصادي وعلاقات القرابة، وحيث يتم ممارسة السلطة داخل الوحدة البيتية من قبل فرد محدد، يتم تحديده بالإعتماد على قواعد الميراث والتوارث» (Weber 1964: 346) . إن السلطة التقليدية لا تقوم على نصوص وقواعد مكتوبة، إذ أن الطاعة تكون للزعيم بالنظر إلى مكانته التقليدية المتوارثة.

يعتبر فيبر أن السلطة الابوية تتطلب التزامات مشددة بالطاعة للزعيم داخل الوحدة البيتية، ويضرب مثال الشيخ العربي Arabian Sheikh الذي تكاد سلطته تقترب من السلطة الكارزماتية، حيث يملك هذا الشيخ القدرة على التأثير من خلال قدرته على النصيحة والمشورة، أو من خلال امتلاكه وسائل أخرى طوعية وغير اكراهية.

يتجسد الشكل الأكثر تطورا من أشكال السلطة عند فيبر في السلطة البيروقراطية، حيث الشرعية فيها تقوم على القانون وليس على الإعتبارات الشخصية، والطاعة هنا لا تكون طاعة لشخص، وإنما هي طاعة لقانون محدد، إن التنظيم البيروقراطي يفترض وجود جهاز إداري بيروقراطي يصل بموجبه رئيس التنظيم أو الجهاز إلى مركزه ليس من خلال الوراثة، وإنما من خلال الإختبار، كذلك، فإن التنظيم البيروقراطي يقوم على مبدأ الترتيب الهرمي الإداري، حيث

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اختيار الموظفين يكون بناء على مؤهلاتهم الفنية، وأحيانا بناء على اختبار للكفاءة، إن البيروقراطية لا بد وأن تتسم بالرتابة Formalism والتعيين القائم على الكفاءة والتفوق والتدريب الفنيين.

وإذا كانت البيروقراطية عند فيبر هي سلطة أو هي تنظيم يوحي بالسلطة، فإن البيروقراطية وفقا لماركس ليست سلطة، وإنما هي تنظيم يرتبط بمجموعة من العلاقات الإجتماعية التي يحدد البناء الطبقي طبيعتها، فالبيروقراطية ما هي إلا «أداة بيد الطبقة المهيمنة إقتصاديا، وهي تعمل كوسيلة بيد الحكم، ولكن بتوجيه من تلك الفئة أو الطبقة التي تسيطر على الحكم» (Misra 1980: 14) ويرى ماركس أن هناك تلازما ما بين الراسمالية الصناعية كنمط إنتاجي، وما بين البيروقراطية كتنظيم إقتصادي وسياسي.

ب - <u>الدراسات عن البيروقراطية:</u>

يتناول كثير من الباحثين البنية الإجتماعية من خلال مفهوم الدولة، ونمو الجهاز البيروقراطي المصاحب، حيث تتميز البنية الإجتماعية بوجود نمط خاص لجهاز الدولة، وبوجود دور مميز له وتنقسم وجهات النظر بشأن الدور الذي يلعبه الجهاز البيروقراطي في مجتمعات الشرق الأوسط وفي مجتمعات ما بعد الإستعمار، فمنها من يرى بالدولة جهازا قادرا على التأثير في البنية الإجتماعية، ومنها من يرى في جهاز الدولة بمثابة قوة محافظة، وأحيانا عاجزة، وقد تحارب التغيير وتقاومه.

يلخص تيرنر (١٩٧٨) نتائج دراسات كثيرة عن التشكيلة الاجتماعية في الشرق الأوسط، التي يرى أنها تتسم بخصوصية سياسية تتخذ شكل جهاز للدولة مستقل ذاتيا، ومبالغ في تطوره، أما أهم ملامح دولة ما بعد الإستعمار في الشرق الاوسط فهي: تنجز الإدارة الإستعمارية الأصيلة خلق جهاز واسع للدولة من أجل مراقبة وإخضاع الطبقات الإجتماعية المحلية، وترث إدارة ما بعد الاستعمار هذه الدولة المبالغ في تطورها من خلال جهاز بيروقراطي عسكري؛ تتمتع الدولة بدور إقتصادي مستقل ذاتيا نسبيا، وتتملك حصة كبيرة من الفائض الإقتصادي الذي يوضع في خدمة شعار تشجيع التنمية الإقتصادية؛ تحدد حدود المناطق

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخاضعة لسيطرة ما بعد الإستعمار(كيانات مصطنعة)، بما أن المراسيم الإدارية للإنتداب هي التي خلقت هذه المناطق، فتضطر دولة ما بعد الإستعمار إلى خلق شروط الشرعية للسيطرة السياسية على هذه المناطق؛ ترمز الدولة على المستوى العقائدي إلى وحدة التشكيلة الإجتماعية بواسطة (عقيدة الوحدة الوطنية)؛ تصبح الدولة ليست أداة لطبقة واحدة بل تحاول التوسط بين مصالح ثلاث طبقات مهيمنة - ملاكو الأرض، الطبقة الرأسمالية المحلية الصغيرة، والبورجوازية الكومبرادورية.

تقدم دراسة Misra (1980) حول التطور التاريخي للبيروقراطية في الهند تأكيدا للمقولة التي ترى أن نمو البيروقراطية في مجتمعات ما بعد الاستعمار، لم يكن خاضعا لشروط المجتمع التي تم استعمارها، فالبيروقراطية في الهند - وفقا للدراسة - لم تتطور وفقا لحاجات وشروط التطور الاقتصادي والاجتماعي في الهند وحسب، وإنما نمت البيروقراطية هناك نتيجة لاحتياجات ومتطلبات النمو الكولونيالي البريطاني ونتيجة للتوسع الامبريالي.

وتبين الدراسة طبيعة العلاقة بين البيروقراطية الهندية وبين البنية الاجتماعية في الهند، فالطابع الطبقي القائم على أسس دينية Caste إنعكس في التنظيم والسلوك الإداريين في الهند، كذلك، فإن تنامي الخدمات الإدارية في المناطق الإقليمية، قد وصل إلى مدى أصبح يهدد فيه وحدة البلاد السياسية والإدارية نظرا لبروز النزعات الإنفصالية التي يمكن أن تنمو بفعل تزايد الإحساس بعدم الحاجة للرجوع إلى مركز بيروقراطي أساسي في البلاد.

ومن خلال المنهج التاريخي، فإن الدراسة تقدم معلومات مفيدة عن تنامي الجهاز البيروقراطي في الهند، وهو الأمر الذي قد يمكن من إجراء بعض المقارنات مع مجتمعات ذات تراث سياسي مشابه من حيث الخضوع للسيطرة الكولونيالية، كذلك فإن أهمية الدراسة تكمن في ربطها بين البيروقراطية والبنية الطبقية للمجتمع الهندي.

هناك افتراضات كثيرة تتعلق بالبيروقراطية في الشرق الأوسط ما بعد الإستعمار، ترى أن نمو جهاز الدولة، وخاصة البيروقراطية العسكرية، في الشرق

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأوسط بإمكانه تأمين إطار لممارسة الطبقة المتوسطة الجديدة لقوتها السياسية، وتوفر سيطرة الطبقة المتوسطة الجديدة داخل المرتبية العسكرية فرصة هامة للاستقلال الوطني والإصلاح الإجتماعي، ويمكن العثور على افتراضات كهذه في كتابات روستو، وخضوري (تيرنر ١٩٧٨) أما فاتيكيوتيس، فيرى «أن تدخل الدولة التي هي أداة الطبقات العسكرية البيروقراطية، أحدث عمليات أعادة تنظيم للبنية الاجتماعية في الشرق الاوسط في الازمنة الحديثة» (في تيرنر ١٩٧٨: ٨٤)

وتقدم دراسة برغر (١٩٥٨) نموذجا للدراسات السوسيولوجية التي تركز على دور البيروقراطية في دولة ما بعد الاستعمار في الشرق الاوسط، فهي ترى أن ثمة طبقة وسطى بدأت تبرز في مصر في الخمسينيات، وأن هذه الطبقة الوسطى ضرورية لعملية التحديث داخل المجتمع المصري وهي تتكون من المهنيين وموظفي الدولة والمدرسين والعمال العلميين، ويعزى تطور هذه الطبقة، في جانب منه، إلى توسع القطاع العام في مصر، فقد ازداد عدد المناصب الحكومية بنسبة ٦١ بالمئة بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٥٥،

وينطلق برغر من إستنتاج مفاده، أنه وفي البلاد التي تقل فيها المشروعات الإقتصادية الصناعية الخاصة - كمصر- فإن العمل في الجهاز الحكومي يصبح هدفا بالنسبة لكثير من الشباب المتعلم، ذلك أن المجالات التي يمكن أن تستغل فيها مواهب هؤلاء الشباب ضئيلة بالمقارنة مع البلاد المتقدمة تقنيا، وهنا، وفي ظل هذه الحقائق، فإن العمل في الجهاز الحكومي يعد الخيار الأفضل الذي يوفر الدخل والمكانة والمركز كمكافأة للتعليم الذي حصل عليه هؤلاء الشباب،

ومن خلال استخدام المنهج السوسيولوجي في جمع المعلومات يحدد برغر المنشأ الإجتماعي لكبار موظفي الحكومة في مصر في تلك الفترة، فهم ينحدرون من فئات ثلاث هي: فئة موظفي الدولة؛ فئة أصحاب الأطيان أو الأراضي؛ وأخيرا فئة المزارعين (برغر ١٩٥٨: ١٧٠)، غير أن الدراسة تجزم بأن الأسس الاجتماعية التي ينحدر منها كبار موظفي الجهاز البيروقراطي يمكن أن تتغير، فانتشار التعليم يمكن أن يوفر فرصة لأبناء الطبقتين المتوسطة والدنيا للإنخراط في هذا الجهاز وتحصيل بعض الامتيازات المترتبة على دخولهم فيه،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

واعتمادا على نتائج إستبيان تم توزيعه على ٢٤٩ شخصا من كبار أعضاء الجهاز البيروقراطي المصري، تم تحديد الإعتبارات الواجب توفرها في المتقدم للوظيفة الحكومية، لقد اعتبر ٥٩ بالمئة من المدروسين، أن المكانة الإجتماعية للمتقدم للوظيفة يجب أن تؤخذ بعين الإعتبار، في حين أعتبر ٢٧ بالمئة أن الثروة يجب مراعاتها، وأجاب ٧ بالمئة، بأن صلات القربى والدم هي مهمة، في حين اعتبر ٥ بالمئة، أن الدين، هو عامل هام في ذلك وأجاب ٢ بالمئة بضرورة أخذ المذهب السياسي بعين الإعتبار(برغر ١٩٥٨: ٢١٠).

وتتضمن الدراسة تعميما يتعلق بالإحترام والمكانة التي يتمتع بها البيروقراط في مصر، فأي صلة بالحكومة في مصر تضفي على صاحبها مكانة، كذلك، فإن العلم بوجود الفساد لا ينتقص من مكانة البيروقراط في مصر، في حين انه يؤثر على مكانتهم في الغرب ووفقا لبرغر، فإن هذا يعزى لحقيقة أن احترام الشعب وخشيته من الحكومة يزداد، لإن إساءة استعمال السلطة تعتبر من مظاهر السلطة نفسها (برغر ١٩٥٨: ١٤٢).

غير أن الدراسة تتحدث عن نوع من العداء الموجه إلى طائفة موظفي الحكومة دون أن يؤثر في مقدار احترامهم، أو في حجم مكانتهم(برغر ١٩٥٨: ١٤٠)، فالعداء ضد موظفي الدولة، هو لأنهم وكلاء للسلطة يجمعون الضرائب ويمارسون السلطة وهذا العداء موجود في جميع البلدان.

أما دراسة (Ayubi 1980) فقد قامت باستقصاء العلاقة بين البيروقراطية المصرية والتغيرات التي طرأت في بنية النظام السياسي في مصر منذ العام ١٩٥٢ وحتى العام ١٩٧٠، اي الحقبة الناصرية من تاريخ مصر، وتعتمد الدراسة المنهج السوسيولوجي المسحي، وتركز على الجانب السياسي.

يدعم (Ayubi) من خلال دراسته بعض الأفكار التي ترى في مجتمعات رأسمالية الدولة، بروز سيطرة لطبقة بيروقراطية جديدة تحكم هذه المجتمعات، فالدولة هي صاحبة الملكية، ولكن وبما أن الدولة هي جسم جماعي يسيطر عليه البيروقراط، فإن البيروقراط يحققون سيطرة فعلية على وسائل الانتاج، إن الواقع المصري التجريبي، كما تبرزه دراسة Ayubi، يدعم هكذا مقولات، (اذا لم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يكن البيروقراط المصريون لا يتمتعون بسيطرة فعلية على وسائل الإنتاج حتى الان، فإن الباب مفتوح على مصراعيه لتحقيقهم هكذا سيطرة، فمن خلال سيطرتهم على عملية صنع القرار، فإن كبار البيروقراط يستطيعون، وقد قاموا بذلك فعلا، التحكم في عملية تخصيص الموارد للاستثمار، وفي توزيعها» : (Ayubi 1980 405)

تبرز الدراسة نتائج مختلفة فيما يتعلق بمحتوى ومصادر الجهاز البيروقراطي في مصر(أي الفئات الاجتماعية التي ينحدر منها أعضاء الجهاز البيروقراطي)، عن تلك التي أبرزتها دراسة برغر، فهي تشير إلى توسع دور الطبقة الوسطى داخل الجهاز البيروقراطي بعد العام ١٩٥٢ (Ayubi 1980: 365) لقد وصلت نسبة المدراء داخل الجهاز البيروقراطي من الطبقة الوسطى إلى ٦٩ بالمئة، في حين أن النسبة للطبقة العليا وصلت إلى ٢١ بالمئة، أما حصة الطبقة الدنيا فقد كانت ١٠ بالمئة فقط.

ويدعم (Ayubi) في دراسته مقولة لـ Halpern (في Ayubi 1980: 405) ، و(في تيرنر ١٩٨١) تقول بأن المجموعات التي تتقاضى الأجور في المجتمع المصري، أصبحت هي التي تتمتع بالسلطة السياسية والاقتصادية، وكذلك بالسمعة والهيبة الاجتماعيتين، وبالتالي فهي أصبحت تشكل طبقة وسطى داخل المجتمع المصري، ويعرف هالبيرن هذه الطبقة ليس فقط من خلال الوظائف والمراكز الإدارية، وإنما من خلال المصالح والأفكار والسلوكات، ودورها في تغيير العلاقات التقليدية، باتجاه علاقات أكثر استقرارا وإنتاجا.

يشير (Ayubi) إلى أن البيروقراط المصريين على كافة تنوعاتهم أصبحوا يشكلون المحتوى لطبقة جديدة ذات امتيازات، حيث تم استبدال المجموعات القديمة المكونة من الإقطاعيين، وأصحاب المهن الحرة، ورجال الأعمال بطبقة جديدة تتكون أساسا من قابضي الأجور (1980: 405) غير أنه يشير إلى أن انصهار البناء الطبقي القديم لا يعني القضاء على التفاوت الإجتماعي وعلى التمايز الإجتماعي والطبقي.

وفيما يتعلق بالهيبة الاجتماعية لفئة البيروقراط، تبين الدراسة أنه ولمدة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عشر سنوات بعد العام ١٩٥٧ تمتع التكنوقراط العسكريون بقدر كبير من الهيبة، ليس فقط داخل المؤسسة البيروقراطية، ولكن في المجتمع المصري ككل(1980: 393) ، وفيما بعد، وعقب مزيد من المشاركة للطبقة الوسطى ذات الأجور، فإن أعضاء النخبة التكنوقراط، أصبحوا يعتقدون أنهم يستحقون تلك المكانة العالية، ففي اعتقادهم أنهم الأكثر وطنية، في حين أن الطبقة الثرية القديمة لم تكن كذلك، إضافة إلى أنهم الأكثر تعليما وفعالية وحداثة (Ayubi 1980: 407)، إذا قورنوا بطبقة كبار الملاكين السابقة.

لقد فتحت نتائج دراسة برغر (١٩٥٨) الباب أمام افتراضات عن امكانية حدوث تطور في مصر بدون مساعدة طبقة وسطى مستقلة مبنية على المصالح الإنتاجية والتجارية، كتلك التي ساهمت في تطور المجتمعات الغربية، أما الطبقة الوسطى في مصر فتتكون من موظفين حكوميين (تقنيين ومدرسين وجنود) ممن لهم مصلحة في استمرارية أنظمة حكومية محددة، وامتدادا لفكرة برغر، فقد أعتبر هالبرن «أن الجيش أداة لطبقة متوسطة جديدة من الموظفين المأجورين، وأنه يستطيع أن يلعب دورا تحديثيا مستقلا في المجتمعات النامية وخاصة مصر، رغم غياب طبقة وسطى مستقلة من الصناعيين» (في تيرنر١٩٧٨: ٦١).

لقد واجهت الافتراضات المتعلقة بالدور التحديثي للبيروقراطية في مصر، إنتقادات كثيرة، إن تيرنر يرى «أن الجيش المصري حين شارك في السياسة لم يحقق الإستقرار الإجتماعي أو الديموقراطية السياسية في مصر» (١٩٧٨: ٦١)، أما افينيري فيرى «أن السياسة والثقافة الإسلاميتين تشكلت على أيدي نخبة عسكرية، بينما اهتمت مجموعات الأقليات بالتجارة لأن النخبة العسكرية إحتقرت النشاط التجاري مما منع من ظهور طبقة وسطى كعنصر رئيسي في السياسة» وهو يضيف «أن الدول العربية في مرحلة ما بعد الاستعمار، تمثل استمرارية لمجتمعات إسلامية قديمة مبنية على الحكم العسكري، وأن هذا الحكم غير مرتبط بعملية إعادة تنظيم القيم الإجتماعية والبنية الإجتماعية» (في تيرنر ١٩٧٨: ٧٤).

وترى بعض الدراسات في دولة ما بعد الإستعمار جهازا بيروقراطيا ضخما هو بمثابة جهاز لتوزيع الأعطيات والمنافع، فالدولة وبسبب تضخمها فإنها تصبح ذات قدرة على جذب الكثيرين في جهازها وتصبح مطمعا للغالبية من الباحثين عن

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المكانة والسلطة، ويلاحظ حوراني (في تيرنر ١٩٧٨: ٨٦) أن معظم الدول في الشرق الأوسط استقلت بعد الخمسينيات، حيث تم التخلص من الحكم السياسي الأجنبي، إلا أنه وبعد جلاء المستعمر، فإن العناصر السياسية داخل نظام دولة ما بعد الإستعمار، تعمل على الوصول إلى المنافع التي توزعها البيروقراطية المركزية، وهو يرى أن الخارجين على النظام والمعارضين له، يلجأون إلى قلب الحكومة من خلال استخدام الوسيلة الأكثر فعالية، التي هي: القوات المسلحة.

جـ ـ الدراسات المتعلقة بالعشائرية Tribalism:

تناولت الدراسات الأنثروبولوجية العشائرية Tribalism من خلال التركيز على اتجاهين، فثمة اتجاه يركز على مجموعة العلاقات القرابية، وتحديدا علاقات الدم التي تربط مجموعة من الأفراد بعضهم ببعض، والتي ينشأ عنها بعض النشاطات الإقتصادية المشتركة وبروز مؤسسات سياسية وإجتماعية مشتركة، وهناك اتجاه آخر برز نتيجة الصعوبات التي تعترض استخدام الإتجاه الأول، ويرى هذا الإتجاه في العشائرية نمطا من الأيديولوجيا، يؤثر في صوغ مفاهيم مشتركة لدى جماعة ما عن العالم وعن الآخرين، وبهذا المعنى، فإن العشائرية، هنا، تكون بمثابة بناء ذهني يرافق النشاطات المادية المشتركة التي تقوم بها جماعة ما، مبنية على أساس علاقات القرابة.

لقد برز مفهوم القبيلة Tribe بشكله المعاصر بفعل السيطرة الكولونيالية على أفريقيا(Macmillan Dictionary of Anthropology 1986)، وقد استخدم في محاولة فهم البنية الاجتماعية في تلك القارة، إلا أن الدراسات الانثروبولوجية استرسلت فيما بعد في تناول المفهوم، ان Morgan يعرف القبيلة، بأنها مجموعة تمتلك مؤسسات اجتماعية خاصة، ولكنها لا تمتلك مؤسسات سياسية، ويعرفها Maine باعتبارها مجموعة تكون فيها العلاقات القانونية مبنية على مبدأ المكانة، اكثر منها على مبدأ التعاقد، (Macmillan Dictionary of Anthropology 1986: 281) ، وتتجاوز الدراسات المعاصرة التعريفات السابقة للقبيلة وتركز على الجانب السياسي في البناء القبلي وتعرف القبيلة في كثير من الدراسات المعاصرة بأنها «مجموعة تشتمل على أكثر من وحدة اجتماعية

© Arabic Digital Library Yarmouk University

محلية، والتي تتحد من خلال مميزات ثقافية مشتركة ومن خلال امتلاك شكل ما من القيادة السياسية أو التنظيم السياسي»(Ibid: 281)،

ويعرف شرابي (١٩٨٧) العشيرة، من خلال تفسيره لماركس، بأنها مجرد عائلة مؤسسة كعشيرة، أو هي نتاج تزاوج مجموعة من العائلات أو هي مجموعة من العشائر، وهو يورد أن ماركس يرى أن المجتمع القبلي يتكون تحت وطأة عاملين: الأول خارجي تتعدد أشكاله، فقد يكون مناخيا أو جغرافيا، أما العامل الآخر فهو ذاتي ويتعلق بالعشيرة نفسها وبالتفاعلات داخل بناء العشيرة نفسها،

ويلجأ شرابي (١٩٨٧: ٤٠) الى محاولة صياغة وصف للمجتمع القبلي أو العشائري ، فالتنازع أو الشقاق Factionalism، هو السمة الغالبة التي تسم المجتمع القبلي، وهو الأمر الذي ينتج شكلا معينا من الولاءات والممارسات ويرى شرابي أن جوهر هذه الممارسة هو في « تماهي Identification الفرد مع قبيلته التي تبادله الولاء بوصفها مسؤولة على صعيد جماعي، عن كل ما يقوم به أفرادها» (شرابي ١٩٨٧: ٤٠)،

ويركز غيرتز في تناوله للمجتمع القبلي على المعاني والرموز المتولدة داخل الوحدات القرابية، فالقبيلة كتنظيم انما تعتمد على ما يمس بالروابط الأولية Primordial Ties، التي هي مجموعة المشاعر والمعاني الممنوحة للإنسان من قبيلته بالإعتماد على روابط الدم،

ويلجأ La Fontaine (في Layne 1986) إلى محاولة تعريف القبلية من خلال استخدام المنهج الفيبري، وهو يلجأ إلى ثنائية العام والخاص في تعريف المشاعر والولاءات المترافقة مع البناء العشائري، فالعشائرية هي «رجوع إلى الماضي حيث الأسلاف، وهي ارتباط بالقيم والتقاليد الخصوصية، في مواجهة القيم القومية التي يحتاجها المجتمع الحديث» (Layne 1986: 104)،

ويرفض بعض الدراسات حول الشرق الأوسط استخدام مفهوم البنية الإجتماعية في وصف مجتمعات الشرق الأوسط ويتضمن مفهوم البنية فكرتي التوازن والتكامل، وهو ما تنفيه هذه الدراسات عن مجتمعات الشرق الاوسط،

© Arabic Digital Library Yarmouk University

وترتكز هذه الدراسات في غالبها الى مقولات استشراقية قديمة (تيرنر ١٩٧٨)، وتهاجم هذه الدراسات فكرة استخدام مفهوم الطبقات في دراسة مجتمعات الشرق الاوسط، وتنتشر داخل هذه الدراسات مفاهيم من قبيل، الفسيفساء، الإستبداد الشرقي، الوحدات العمودية وغيرها التي تنفي صفة التماسك والتكامل داخل مجتمعات الشرق الأوسط.

وقد كان لمفهوم القبيلة بروز واضح في كثير من الدراسات المرتبطة بالشرق الاوسط، وتشير النصوص التالية (في تيرنر ١٩٧٨) الى موقع القبيلة في دراسة البنية الاجتماعية لمجتمعات الشرق الاوسط: «إن البنية الإجتماعية الإسلامية هي فسيفساء مرقع من القبائل والأقليات الدينية، والمجموعات الإجتماعية والروابط» (كون في تيرنر ١٩٧٨: ٥٢)، « في بنية مجتمعات الشرق الأوسط، فإن مفهوم الطبقة الإقتصادية، ليس مهما، بالمقارنة مع الإثنية والدين والقبيلة» (زارتمان في تيرنر ١٩٧٨: ٥٦)، ويقدم جيب وبوين فكرة مماثلة (في تيرنر ١٩٧٨: ٥١) تعتبر أنه في ظل الإسلام، إنقسم المحكومون إلى وحدات شبه مستقلة عديدة مثل القبائل والحرف المهنية، والقرى والجماعات.

د ـ الدولة والعشائرية والعشيرة أو القبيلة

تاثر العديد من الدراسات الأنثروبولوجية ببعض الإفتراضات الإستشراقية والهيجلية عند تناولها مجتمعات الشرق الاوسط، فيما يتعلق بالوحدات الاجتماعية السائدة عموما، وفيما يتعلق بالقبيلة أو العشيرة تحديدا، فقد تعاملت هذه الدراسات مع المجتمع الشرق أوسطي كمجتمع يتكون من مجموعات مستقلة، أو شبه مستقلة، لم تتاثر بالتقلبات السياسية التي شهدتها الإمبراطورية في الشرق الاوسط، وداخل هذه المجموعات المستقلة، التي قد تتكون من الاثنية أو المجموعات الدينية، أو الملل، هناك تركيز على القبيلة، باعتبارها احد أشكال هذه الوحدات المستقلة، ويمكن النظر إلى كثير من الدراسات ضمن هذا الاتجاه، كدراسات أفينيري ، جيب وبوين، بيل، زارتمان (في تيرنر ١٩٧٨).

ويعالج كثير من الدراسات الماركسية مفهوم الدولة من خلال دراسة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التشكيلة الإجتماعية في مجتمعات الشرق الأوسط ويقدم الإطار المتضمن في مفهوم نمط الإنتاج الآسيوي كما صاغه ماركس، إمكانيات لتناول خصائص الدولة ضمن هذه المجتمعات ويقوم مفهوم نمط الانتاج الاسيوي على سيادة ثنائي (الضريبة - الريع) الذي يتطلب بدوره وجود دولة، تقوم بتحصيل الضرائب والاستفادة منها، ويورد تيرنر (١٩٧٨: ٤٤) تلخيصا لاهم السمات التي تميز التشكيلة الإجتماعية ذات النمط الآسيوي في الإنتاج: تقسيم إجتماعي كبير للعمل بين المنتجين المباشرين غير العاملين، واحتفاظ الدولة بحقوق الملكية في غياب الملكية الخاصة للأرض، وتملك الدولة لفائض المنتوج بشكل ضرائب يتم جبايتها عبر آليات عدة (موظفو الدولة أو ملتزمو الضرائب)، ووجود سيطرة سياسية على توزيع أدوات الإنتاج من قبل الدولة، ووحدة الحرف والزراعة، وغياب طبقة حاكمة منفصلة عن بيروقراطية الدولة، وتحديد استهلاك فائض المنتوج عقائديا - سياسيا، واتخاذ شكل الحياة المرفهة لموظفي الدولة، واتخاذ الدولة أشكالا متنوعة (ثيوقراطية، تحالف قبلي، إدارة استعمارية مثلا).

وبالإعتماد على المفهوم السابق، فان أحد الماركسيين الاسرائيليين (شلومو أفينيري) يستنتج أن ثمة ركودا يسود البنية الاجتماعية في الشرق الاوسط بسبب سيادة نمط الانتاج الاسيوي (في تيرنر ١٩٧٨) . وهو يقرر «أنه يستحيل تثوير التشكيلات الإجتماعية المبنية على هذا النمط وإدخالها في التاريخ العالمي، إلا باستيراد علاقات الإنتاج الرأسمالية، فكلما تكثف الإستعمار الرأسمالي، كلما ازدادت طاقة التغيير في آسيا والشرق الأوسط» (في تيرنر ١٩٧٨: ٣٧). الا أن افينيري يعتقد أن الإستعمار الغربي للمنطقة العربية، كان من النوع غير المباشر الذي ضمن التفوق الشامل للقوة الغربية، دون التورط في الإدارة المباشرة - أي دون التأثير على البنية التحتية - الإقتصادية الإجتماعية للمجتمع العربي، وهو يستنتج أن «الإستعمار غير المباشر، لم يفعل سوى إعادة خلق النزعة العسكرية، والتخلف لدى النخب الحاكمة، بدلا من تحطيم البنية الاجتماعية القديمة للمجتمع العربي، فتصبح مجتمعات الشرق الأوسط الحديث الوريث المباشر للاتراك والسلاجقة من حيث القيم والدور الإجتماعي» (أفينيري في تيرنر ١٩٧٨: ٣٧).

- ١٢ -

ويلاحظ تيرنر في دراسته (١٩٧٨)، أن الفكرة التي تقول بأن الشرق الأوسط

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإسلامي يتكون من رقع من المجموعات الاجتماعية، يعزز الاستنتاج الهيجلي الذي يعتبر أن المجتمع الإسلامي هو «مجتمع بلا مجتمع مدني». فالتنظيم الاجتماعي يفتقر الى عناصر الترابط والتكامل، نظرا لعدم امتلاكه شبكة ما من الروابط والجمعيات المتماسكة (في تيرنر ١٩٧٨: ٥٥).

ولقد كانت هناك افتراضات ماركسية تركز على حتمية اختفاء العلاقات القبلية أو الإثنية نتيجة للتوسع الرأسمالي. فتوسع الرأسمالية يؤدي الى تصدير علاقات اجتماعية مبنية على مبدأ الكونية، فتسحق خصوصية القبائل المحلية والأمم الصغيرة «وسخافة الحياة الريفية» (أفينيري في تيرنر ١٩٧٨: ٣٦)، تحت وطأة علاقات الإنتاج والسلع الرأسمالية. إن العلاقات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية تتسم بأنها شخصية وغير مجردة واعتباطية، وتقوم الرأسمالية ونتيجة للإنتاج السلعي الكبير، باستبدال هذه العلاقات بأخرى تركز على المصلحة الذاتية. «فالرأسمالية مجردة ولا شخصية وكونية، وستضع حدا لكافة العلاقات الأبوية أو المثالية» (أفينيري في تيرنر ١٩٧٨: ٣٦).

ويميل كثير من الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة لدراسة مجتمعات الشرق الأوسط من خلال تمايش القبيلة والدولة. وهي ترفض المقولات السابقة حول استقلالية البناء السياسي واستقلالية البناءات الإجتماعية الأخرى، كالقبيلة و الإثنية والطائفة.

ومن الدراسات الميدانية البارزة التي نفذت في الشرق الأوسط عن العلاقة بين القبيلة والدولة، كانت دراسة Davis (1987) التي أجريت في ليبيا. لقد اعتمدت الدراسة البحث الميداني مع تركيز على مصادر معلوماتية أخرى عن المجتمع الليبي، ولا تغفل الدراسة البعد التاريخي في العلاقة القائمة بين الدولة والقبيلة هناك. ويلعب التاريخ الشفوي دورا كبيرا في تتبع هذه العلاقة.

يتحدد الهدف العام للدراسة من خلال طرح Davis السؤال التالي: ما الذي يمكن أن يحدث عندما تحاول دولة قومية Nation State أن تمد قانونها وتشريعها الخاص على إناس ينزعجون من هكذا سلطة نتيجة الوجود القوي لمشاعر الولاء القبلية؟ (Davis 1987: 23).

© Arabic Digital Library Yarmouk University

لقد سبق للزعيم الليبي العقيد القذافي، أن دعا في العام ١٩٧٣م في خطاب له أمام تجمع من القبائل في منطقة زوارا، الشعب الليبي للاستيلاء على السلطة، والتخلص من العناصر غير الثورية، في المجتمع الليبي، وإلى السيطرة على الجهاز البيروقراطي، وتبين الدراسة، انه وبالرغم من هذه الشعارات، فإن الليبيين يدركون وجود فجوة كبيرة بين خطابات القذافي، وبين ما يحدث على أرض الواقع (1980: 23)،

إن القبيلة - وكما يبين ديفيس - وبالرغم من الشعارات التي تتحدث عن الاممية وعن تجاوز القبيلة، لم تندمج في النظام السياسي هناك، وفي قالب الدولة القومية، وانما ما زالت القبيلة تعتبر نفسها كيانا مستقلا يمكن أن يتداخل مع الدولة، ولكنه غير مندمج فيها على الاطلاق، ويدعم ديفيس هذا الافتراض بخبر نشرته جريدة اللوموند في العام ١٩٨١ مفاده أن إحدى القبائل التي فقدت عددا من أبنائها في الحرب الليبية التشادية، تطالب بدية من الحكومة الليبية عن حياة ابنائها، إن ديفيس يقرأ الخبر باعتباره يشير الى أن القبيلة ما زالت تخوض صراعا ضد الدولة، وانها بذلك «تنكر حق الدولة في السيادة والتفوق، وانها (القبيلة) هناك ترى في جهاز الدولة مجرد قبيلة اخرى» (Davis 1987: 197)،

تؤكد الدراسة كذلك وجود تصور في أذهان الليبين حول مجتمع اللادولة الذي دعا إليه القذافي، الذي يتجسد في هيمنة القبيلة باعتبارها البديل عن الدولة وسلطتها، وترى الدراسة أن أفكار القذافي عن الغاء الدولة تعزز هذا التصور، كذلك، فإن فكرة اللادولة ترتبط بنمط حنيني Nostalogic من التفكير يسود بين الليبيين الذين يتحدثون عن ماض لا سلطة للدولة فيه، وحيث سلطة القبيلة هي المهيمنة (Davis 1987: 182)، إن ما يعمل على استمرارية التفكير القبلي هناك هو بعض المفاهيم عن عدالة التوزيع وعن الحرية التي اتسمت بها الحياة القبلية في الماضي

ويشير Davis إلى بعض العوامل التي تلعب دورا في المحافظة على الشعور بالإستقلالية عند أعضاء مجتمعات القبائل، التي من أهمها العامل التاريخي حيث

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تجدد القبيلة نفسها من خلال رواية بعض الاحداث التاريخية التي ساهمت بها القبيلة بشكل مؤثر (Davis 1987: 42) وهو ما اعطى القبيلة شعورا بالقدرة على التاثير في السابق، وشعورا بالاستقلالية في الحاضر.

إن الليبي يشعر أن مبدأ القرابة، يمكن أن يمتد ليشمل أي شخص ويعطيه أحساسا بالمساواة مع الاخرين، في حين أنه وفي ظل مجتمع الدولة، وحيث الانخراط في هرمية الجهاز البيروقراطي، فإن ثمة تمييزا بين الافراد، كذلك فان الليبي يشعر بأن علاقة الدم أو القرابة تتسم بالديمومة والثبات، ولا يمكن فكها باي حال من الاحوال، أما الرابط الايديولوجي داخل المجتمع الليبي الذي يقوم على صعيد البناء السياسي هو أقل ثباتا، ولا يمكن الوثوق باستمراريته (Davis 1087: 93).

وتاكيدا على عامل القرابة، فقد جاء في الكتاب الاخضر الذي يحوي فلسفة العقيد القذافي الاجتماعية، «إن المجتمع البشري هو مبني، ويجب أن يكون مبنيا على عامل القرابة وعلى العائلة، فالانسانية تتجسد في الفرد وفي العائلة وليس في الدولة التي هي كيان غريب عنه، إن الدولة هي نظام سياسي وإقتصادي وأحيانا عسكري مصطنع ولا صلة له بالإنسانية» (Davis 1987: 211).

وبالرغم من وجود تنظيمات سياسية وإيديولوجية داخل المجتمع الليبي (اللجان الثورية) التي ينخرط بها عدد كبير من الليبيين، فإن الدراسة لا تشير الى وجود صراع بين هذه الاشكال من التنظيمات التي تقوم على عامل الأيديولوجيا والتنظيمات القبلية التي تقوم على عامل الدم، فالليبي الذي ينتمي لقبيلة ما قد ينخرط في اللجان الثورية، ورغم ذلك لا تحدث صراعات داخل الفرد أو على مستوى الافراد بين بعضهم بعضا، أما التعارض الذي قد يحصل فهو ليس بين انتماءات تقوم على مبدأ العمومية (Univesalism) مقابل تلك القائمة على مبدأ الخصوصية (Particularism) «أن التعارض هنا هو تنظيمي Organizational أكثر منه أيديولوجي Ideological» (Ibid: 93).

ثمة دراسة قام بها Tomas Gerholm (1977) حول طبيعة الهرمية الموجودة في المجتمع اليمني من خلال الدراسة الميدانية، وتناولت الدراسة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

شروط إعادة إنتاج الهرمية من خلال اتباع المنهج الفيبري، حيث التركيز على مظهرين رئيسين للتفاوت الإجتماعي: الثروة والمكانة، وتتجسد نقطة انطلاق الدراسة في اعتبار أن الهرمية اليمنية تعكس تداخل مؤسسات قبلية وأخرى مدنية وغير قبلية، فبالاضافة للقبيلة هناك المسجد وهناك السوق Sanctuary and Market .

إن الاستنتاج الذي تصل إليه الدراسة، هو أن ثمة مجموعة من الممارسات اليومية تعكس الهرمية اليمنية، وتعمل على استمرارية النظام الاجتماعي هناك وتقويته(Gerholm 1977: 187) ، فثمة ثلاث سياقات إجتماعية ينخرط الناس بها يوميا، هي: السوق، حيث يعملون ويتحدثون؛ والمفرج (وهي غرفة يجتمعون بها لمضغ مادة القات) حيث يتبادلون الحديث؛ والمسجد، حيث يصلون ويتبادلون الحديث مرات عديدة، إن كلا من المفرج والسوق يعملان على إبراز الهرمية، في حين يتم التغاضي عن هذه الهرمية داخل المسجد، أما المسجد هنا فهو يلعب دورا هاما في سيادة شكل محدد من الأيديولوجيا،

إن انخراط الفرد اليمني في هذه المؤسسات بشكل يومي، حيث يمتزج تأثير المؤسسات المدنية بأخرى قبلية، مما يساهم في استقرار الوعي الاجتماعي، ويمنع ظهور تعريف يستند الى مفهوم الطبقة داخل المجتمع اليمني ،

لا يمكن التعامل مع هذا الاستنتاج الجوهري الذي تصل اليه الدراسة، دون الاشارة الى الجذور الاستشراقية له فالدراسة تكرر مقولة استشراقية، ترى البنية الاجتماعية في الشرق الاوسط كمساحة كبيرة مليئة بالتناحر والنزاع الذي لا يقوم على أساس اقتصادي، بالنظر الى عدم وجود الطبقة الاقتصادية، بالتالي، فان الإسلام ومن خلال بعض المؤسسات، كالمسجد والطرق الصوفية، يلعب دورا كبيرا في تحقيق التكامل داخل البنية الاجتماعية، أن الدراسة تغفل الجوانب المثيرة للصراع والاختلاف داخل الاسلام نفسه، فالاسلام لا يعطي ايديولوجيا موحدة لمعتنقيه، وهو لا يزودهم بنظرة موحدة عن العالم،

فيما يتعلق بنظرة الفرد اليمني تجاه البيروقراط، فقد تبين أن الاعتقاد السائد لديه، هو أن الموظفين الحكوميين ذوي المناصب الرفيعة يحصلون على

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أموالهم بطرق ملتوية، وأنهم إنما يأكلون أموال العامة عن طريق تسوية النزاعات بين الناس (Gerholm 1977: 76) ففي اليمن يقوم موظفو الدولة العاملين في المناطق الريفية بمهمة تسوية النزاعات بين الناس، نظرا لعدم وجود محاكم للدولة هناك ويرى بعض اليمنيين أن هؤلاء البيروقراط يقومون في كثير من الاحيان باطالة أمد النزاعات لكي يحصلوا على منافع مادية أكبر من المتخاصمين.

إلا أن ثمة صراع في الآونة الاخيرة بين كبار شيوخ القبائل وبين كبار موظفي الدولة بسبب نظام حل المنازعات، فقد اعتاد الشيوخ على تسوية النزاعات والحصول مقابل ذلك على بعض المنافع المادية، أما الآن فإن على الشيوخ أن يقوموا بدفع جزء من هذه المنافع إلى كبار موظفي الدولة، ونتيجة لذلك، كثيرا ما يقوم الشيوخ بتلفيق التهم لكبار الموظفين وتقديم شكاوي ضدهم للحكومة المركزية، إن ذلك يشير الى ان كل من البيروقراط وزعماء الشيوخ يقومون باستغلال العوام، وأن الصراع يبرز عند تحديد حصة كل منهما (Gerholm 1977: 114).

ويقرر Gerholm أن نفوذ الشيخ في اليمن، لم يعد يعتمد على مكانته داخل عشيرته، وإنما أصبح نفوذه يعتمد على علاقاته وارتباطاته بالدوائر الحكومية (Gerholm 1977: 114)، فالدولة تلجأ إلى إختيار اشخاص محددين ليصبحوا شيوخا، وليكونوا أداة في يدها وبالتالي دمجهم في إطار وطني أوسع من إطار العشيرة، وتكون النتيجة ذات بعدين: فالدولة تزداد نفوذا وقوة، باعتمادها على شيوخ مطيعين، في حين يقوم الشيوخ بتقوية علاقتهم داخل عشائرهم بسبب دعم الحكومة لهم.

أما دراسة الراعي (١٩٨٧)، فتحاول أن ترصد سلسلة التغيرات الاجتماعية التي شهدتها منطقة (وادي خالد) في لبنان، من خلال دراسة تاثير تغير النشاطات الاقتصادية، وازدياد احتكاك سكان الوادي مع المجتمع المحيط والعالم الخارجي، على بنية ووظيفة العشيرة، وبالتالي إنعكاس هذه التغيرات على الإنتماءات الفردية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتركز الدراسة على بنية العشيرة من خلال منصب الشيخ الذي يلعب دورا مركزيا داخل التنظيم العشائري، وهي تحدد مواصفاته «يقوم بدور الحاكم والديكتاتور في العشيرة، ومن المتوارث أن يكون صحيح الجسم، قويا، شجاعا» (الراعي ١٩٨٧: ٥٢). وهي تربط ما بين النادي وبين منصب الشيخ، فالنادي يمارس دوره من خلال الشيخ . وتعزي الدراسة مسألة عدم وجود جمعيات أو نوادي تابعة لسلطة وقوانين الدولة في المنطقة، الى أن هذه«الجمعيات غريبة عن حياة العرب» (الراعي ١٩٨٧: ١١٩). كذلك فإن عدم وجود جمعيات للدولة تعزى الى أن «العشيرة بحد ذاتها جمعية تساهم بالاعمال العامة، وتقوم بالمشاريع المختلفة وهي تدار بالاعتماد على الأعراف العشائرية» (الراعي ١٩٨٧: ١١٩).

لقد كان من شأن التوسع في النشاطات الاقتصادية وخصوصا بروز التجارة، وتنامي عدد العائلات الممتدة نتيجة الإنقسامات داخل العشيرة، أن أزداد عدد المشايخ، وقد أخذ الكثيرون يتصرفون وكأنهم شيوخ، وأصبح كل من رأى في نفسه صفات الشيخ يبني بيتا خاصا، يستقبل به الاخرين، كذلك أدى اتساع النشاطات الاقتصادية الى وضع أصبح فيه الشيخ غير قادر على التفرغ لاستقبال الضيوف، وفتح المنزول، وانما أخذ يعمل، ولم يعد يستقبل أحدا دون تحديد موعد مسبق.

وتلخص الدراسة موضوع الانتماءات الايديولوجية لدى سكان الوادي بالقول أن «السلطة العشائرية هي الاقوى، وأن رابطة الدم هي المستجابة، وأن التراث العشائري، هو السائد، ان بوعي أو بدون وعي فالانتماء ما يزال بدائيا، ومتمحورا حول الدويلات العشائرية القائمة داخل الدول الحديثة، دون أي اعتبار جوهري للحدود الدولية القائمة، اذ أن زمالة الدم هي مبعث كافة الالتزامات السياسية والحزبية» (الراعي ١٩٨٧: ١٢٥). وما يدعم الافتراض السابق، فإن تنامي النشاطات التجارية في الوادي نتيجة الحرب الاهلية، لم يعمل على الغاء دور السلطة العشائرية، وإنما أصبحت الخلافات الناتجة عن النشاطات التجارية تجد حلها في إطار المؤسسات التقليدية داخل العشيرة، بدلا من الإعتماد على القانون المدني.

يمكن لدراسة الراعي أن تكون ذي جدوى فيما يتعلق بتأثير تطور الزعامة في عدد ووظائف النوادي المرتبطة بمنصب الشيخ في وادي خالد، كذلك، يمكن

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

للدراسة أن تقدم معلومات فيما يتعلق بالولاءات لدى سكان الوادي وتأثرها بسلسلة التغيرات التي طرأت على البنية الاجتماعية في الوادي، وتوفر المعلومات المتعلقة بهذين البعدين امكانية عقد مقارنات مع طبيعة الزعامة في مدينة اربد، وتطور الزعامة، اضافة لاجراء مقارنة تتعلق بترتيب الولاءات لدى رواد المضافات في مدينة اربد،

وفي دراسة عن السلطة والقبيلة والدولة في البحرين يتتبع فؤاد خوري (١٩٨٣) تطور العلاقة بين التغيرات الإقتصادية والإجتماعية وبين التغيرات على صعيد الجهاز البيروقراطي، وهو يعتبر أن بدايات التنظيم البيروقراطي تعود الى العشرينيات، حيث لعبت السلطات الكولونيالية البريطانية دورا كبيرا في نشوء هذه البيروقراطية، بالتعاون مع بعض القوى المحلية، وفيما بعد عزز اكتشاف النفط من دور البيروقراطية، فبعد أن كانت البيروقراطية مهددة بالاضمحلال والزوال، فقد عملت مداخيل النفط على تفرع البيروقراطية على مستويات مختلفة، وقد تشعبت الوظائف المتخصصة بفعل تطور المناصب الإدارية، وتم إنشاء العديد من الوظائف والأدوار الجديدة بعد الثلاثينيات من هذا القرن،

وتنبع أهمية الدراسة في أحد استنتاجتها التي تعتبر أن التوسع في الجهاز البيروقراطي في البحرين، أدى إلى إحتواء رؤساء القبائل والقضاة الشرعيين داخل الجهاز البيروقراطي، فأصبح هؤلاء موظفين إداريين في القطاع العام، يتقاضون الرواتب المحددة، وحيث تم إلغاء الإدارة القبلية والممارسات الإقطاعية،

وتتطرق دراسة أعدها أسيري (١٩٨٦) عن الإنتخابات الكويتية في العام ١٩٨٥ إلى دور القبيلة والقبلية في تلك الانتخابات، وهي تنطلق من افتراض مفاده، «أن الانتخابات في مجتمع ينتقل من وضع التقليدية الى وضع التحديث، يغلب أن تكون محل شد وجذب وتنافس بين قوى وتوجهات تقليدية، واخرى عصرية، فنوعية المرشحين وما يطرحونه من أفكار وما يستخدمونه من أساليب، فضلا عن النتيجة العامة الكلية للإنتخابات تعكس في العادة ذلك الصراع بين القديم والجديد» (أسيري ١٩٨٦: ٩٧)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هـ - الدراسات المتعلقة بالمضافات :

بالرغم من التنامي الملحوظ في أعداد المضافات في مدينة إربد، وبالرغم من الوجود القديم لبعض هذه الأعداد، الذي قد لا تطاله الذاكرة الشفوية حتى لكبار السن، فإن الدراسات المتعلقة بالمضافات تكاد تكون شبه معدومة في الأردن، وقليلة بل ونادرة لما يشابهها من تنظيمات في بعض البلاد العربية، فثمة دراستان أمكن العثور عليهما، تتناولان المضافات أو التنظيمات المشابهة في المنطقة العربية، فهناك دراسة لـ فؤاد خوري (١٩٨٣)، وأخرى لـ لوريس الراعي (١٩٨٧)، كذلك أمكن العثور على دراسة تتطرق وبشكل وصفي لظاهرة الديوانيات في المجتمع الكويتي (محجوب ١٩٧٤).

تتطرق دراسة محجوب (١٩٧٤)، التي تتناول بشكل أساسي انثروبولوجيا المجتمعات البدوية، تتطرق وبشكل سريع إلى رسوخ ظاهرة «الديوانيات» في المجتمع الكويتي، وإلى كثرة أعدادها، وتكتفي الدراسة بتقديم تعريف لهذه الديوانيات فهي « مكان ملحق بالسكن، حيث يتم استقبال الضيوف، وحيث يجتمع الجميع لقضاء أوقات الفراغ، ومناقشة الأمور العائلية، والمشكلات الإقتصادية والسياسية »(محجوب ١٩٧٤: ٥٥).

وتتناول دراسة الراعي (١٩٨٧) التي أجريت في منطقة «وادي خالد» في لبنان، ظاهرة مماثلة للمضافات هناك فهي تشير إلى وجود « بيوت للشيوخ تكون بمثابة أندية لرجال القبيلة، يجتمعون فيها، ولا سيما إذا قدم ضيف من الحضر» (الراعي ١٩٨٧: ٥٢)، غير أن الدراسة تشير إلى الإتجاه العام نحو تناقص هذه «الاندية» بالنظر إلى ارتباطها بوجود من هم في مراكز« الشيوخ»، الذين هم أيضا في تناقص عددي، بفعل التغيرات الإقتصادية والإجتماعية التي شهدها وادي خالد في الحقبة الأخيرة.

بالإضافة إلى أن أحد عيوب الدراسة، هو أنها تتصدى لموضوع متشعب، لا يمكن تناوله بالتحليل في دراسة واحدة «التغير الاجتماعي في وادي خالد لبنان»، فإن عيب الدراسة الكبير يتجلى في حديثها عن شكل من الثنائية المعتادة في كتابات التحديثيين «ثنائية التقليدي مقابل الحديث» لقد قادت هذه الثنائية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الدراسة الى افتراضات ومنطلقات مسبقة وتعميمية، وقادت الى بروز مفاهيم لم يكن بالإمكان تعريفها.

وتبدو الدراسة، إيضا، حقلا خصبا يزخر بالاستنتاجات التي تناقض بعضها بعضا، فبالرغم من الإستنتاج الذي تصل اليه الكاتبة من تناقص في دور الشيوخ الذين يمارسون تأثيرا كبيرا في «البنية القبلية»، ومن ثم تناقص الأندية العشائرية التي تتبع هؤلاء الشيوخ، بفعل عوامل عدة، وبالرغم من التغيرات الجذرية في النشاطات الإقتصادية، وإنفتاح سكان الوادي على العالم الخارجي، فإن الدراسة تصر على« بقاء النظام العشائري» كما كان، وتصر أن «التراث العشائري هو السائد، ان بوعي أو بدون وعي، فالانتماء ما يزال بدائيا، ومتمحورا حول الدويلات العشائرية القائمة داخل الدولة الحديثة دون أي اعتبار جوهري للحدود الدولية القائمة، اذ أن زمالة الدم هي مبعث كافة الالتزامات السياسية والحزبية» (الراعي ١٩٨٧: ١٢٥).

وتحاول دراسة خوري (١٩٨٣) ايجاد سلسلة من العلاقات بين ثنائي (الدولة - قبيلة) وبين سلسلة التغيرات الاقتصادية - الاجتماعية التي شهدها المجتمع البحريني، وضمن هذه التغيرات، يتم وضع استنتاجات تتعلق بتزايد أعداد ما يسمى بـ «المجلس» الذي هو، وفقا لخوري « الغرفة الواسعة الأرجاء في المنزل، حيث يجلس الضيوف، وتعقد الاجتماعات الرسمية، كما تعني مجموعة الرجال أو المستشارين الذين يشاركون معا في مثل هذه الاجتماعات للتشاور في الأمور السياسية والإقتصادية قبل اتخاذ القرارات الملزمة للجميع»(خوري ١٩٨٣: ٦).

تصل دراسة خوري إلى إستنتاج يفيد بأن كثرة المجالس القبلية والجمعيات في البحرين تعزى إلى ظهور النفط الذي عزز من دور الشباب هناك « فظهور النفط قاد إلى أن يصبح الشباب، هم الذين يقومون بتأسيس هذه التنظيمات، وذلك للتعبير عن وحدتهم الثقافية والدينية وتطلعاتهم السياسية»(خوري ١٩٨٧: ٢١). كذلك تربط الدراسة بين بروز هذه المجالس والجمعيات، وغياب المؤسسات السياسية مثل الأحزاب التي صدر قرار حكومي بحظرها، وهي تعتبر هذه المجالس والجمعيات بمثابة منظمات شبه سياسية Para - political ويعتبر خوري أنه تمت ممارسة النشاط السياسي، بالرغم من ظروف القمع، ولكن شكل واطار

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الممارسة لهذه النشاطات السياسية، تم استبداله بمؤسسات شبه سياسية كالنوادي (خوري ١٩٨٧).

هناك الكثير من النقاط التي يمكن تسجيلها لصالح دراسة خوري، إلا أن ثمة بعض العيوب التي تبرز فيها، فالدراسة تتحدث في الأصل عن العلاقة التاريخية بين البيروقراطية في البحرين ومجمل الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية، وأثناء ذلك تتناول الدراسة موضوع المجالس والجمعيات والنوادي وتحاول التصدي لها، ويتحدث خوري عن المجالس، وعن التغيرات المتعلقة بالفئات التي تتزعم حركة بناء هذه المجالس، «إن ظهور النفط قاد إلى أن يقوم الشباب بتأسيس هذه التنظيمات» إن مفهوم الشباب هنا هو مفهوم ديموغرافي، لا يعطي أي توصيفات سوسيولوجية أو انثروبولوجية لهذه الفئة (الشباب)، فالتعبير، هنا، مضلل وشديد العمومية.

كذلك، فإن الدراسة تتجاهل الشروط التاريخية التي قادت إلى إنشاء المجالس والجمعيات في الفترة التي سبقت ظهور النفط، وفيما يتعلق بالفئة الاجتماعية التي تزعمت حركة بناء المجالس والجمعيات قبل ظهور النفط، يصل خوري إلى القول أن بناء هذه المجالس ارتبط بالوجهاء والأعيان، أما الوظيفة التي من أجلها وجدت آنذاك، وفقا لخوري، فهي «للتباهي والمفاخرة» وبذلك يمكن القول أن دراسة خوري تغفل كثيرا من جوانب الانثروبولوجية لهذه الظاهرة، وترى في الجانب السيكولوجي دافعا كبيرا لانشائها.

وتتعرض دراسة اسيري (١٩٨٦) حول نتائج الانتخابات الكويتية في العام ١٩٨٤، الى دور الديوانيات في تلك الانتخابات، ويرى اسيرى أن القبيلة والطائفة لعبتا دورا حاسما في مسار ونتائج الانتخابات، ويشير الى أن بعض برامج المرشحين غلب عليها الطابع القبلي، وعلى سبيل المثال، فان أحد المرشحين وعد ناخبيه بالعمل على انشاء ديوانية كبيرة لإحياء حفلات الزواج وغيرها من المناسبات الإجتماعية.

وتستخلص الدراسة دور الديوانيات في تلك الإنتخابات من خلال القول، بأن هذه الديوانيات عملت كوسيلة تم من خلالها تنظيم لقاءات بين المرشحين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وناخبيهم، وقد أمنت الديوانيات الاتصال الشخصي بين المرشحين وناخبيهم.

و- الدراسات المتعلقة بالبيروقراطية و بالعشيرة وبالدولة في الاردن:

بالرغم من عدم وجود دراسات انثروبولوجية تتعلق بالبيروقراطية في الاردن، تفيد في تدعيم الاطار التحليلي للدراسة، فإنه أمكن العثور على بعض الدراسات التوثيقية المتعلقة بالبيروقراطية ، وتقدم دراسة ابو دية (١٩٨٨) بعض التواريخ، التي قد تبدو ذي جدوى، فيما يتصل بتطور الجهاز البيروقراطي في الاردن، ويلاحظ من خلال الدراسة التي تتخذ من تحليل كتب التكليف الملكية الى رؤساء الحكومات المعينين موضوعا لها، ويلاحظ أنه وبعد تشكيل الامارة في الاردن مباشرة في العام ١٩٢١م تم تشكيل حكومة، ظهر الى جانبها مجلس للمشاورين كان بينهم مندوبا عن العشائر في الأردن، كذلك، تلاحظ الاسبقية والاولوية التي اعطيت لتشكيل الجيش في العام ١٩٢٣، في ظل سيطرة بريطانية على المملكة.

وتوالى بعد هذه الفترة انشاء مزيد من الاجهزة والوزارات ذات التنظيم البيروقراطي، حيث ظهرت وزارات كالخارجية في العام ١٩٢٩، ويلاحظ أنه في الوقت الذي تم فيه إنشاء وزارات للداخلية والدفاع والخارجية في وقت مبكر من تاريخ البلاد، فإن وزارات كالصناعة والتخطيط ظهرت في فترات متأخرة.

وتعد دراسة جوبسر(١٩٨٨) في مدينة الكرك في جنوب الاردن، التي نفذت بالاعتماد على البحث الميداني في العام ١٩٦٨، ونشرت في العام ١٩٧٢، من أكثر الدراسات اتصالا بموضوع البحث، وكان الموضوع الذي تناولته، هو العلاقة بين القبيلة والنظام السياسي في الأردن من خلال البحث الميداني، مع اعتماد كبير على المعلومات التاريخية حول مجتمع الدراسة، وهو يحدد هدف الدراسة بـ «وصف بنية المجتمع السياسي، ووظائفه وقواه الفاعلة، ومناقشة ثبات القوى والممارسات التقليدية في إطار النظام، وتلك الممارسات والقوى التي يعود الفضل فيها إلى قوة القبيلة، وسلطتها المستمرتين» (جوبسر ١٩٨٨: ٦).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتنطلق الدراسة من افتراض مفاده، أنه لم تكن هناك شرعية للنظام السياسي في الكرك في الماضي، حيث يشير الماضي هنا إلى الفترة التاريخية التي سبقت العام ١٩٦٨، وأن النظام المركزي الاردني لم يستطع وحتى فترة قريبة من أن يثبت وجوده في اذهان الاهالي هناك، وأن يبني حدا أدنى من الشرعية، وقد كانت المعايير التي يمكن أن تستند إليها الشرعية في الكرك غائبة في الماضي وهذه المعايير هي: قاعدة ايديولوجية؛ معنى من الالتزام الأخلاقي لإطاعة الزعماء؛ الشرعية الشخصية المرتكزة على سحر القائد.

وبالنظر إلى غياب أسس الشرعية هذه، فإن العوامل التي كانت تغري فردا ما بان يطيع زعيما معينا فهي النفعية، والربح المادي، والشعور بهوية هامة، وبعض الضغوط الاجتماعية، وقدرة الزعيم السياسية، أما العمل في الجهاز البيروقراطي فقد كان يمكن أن يلعب دورا في الوصول إلى وضع الزعيم، حيث ينظر إلى المسؤولين الحكوميين كزعماء بمعنى من المعاني، لأنهم الممثلون المحليون لقوة الدولة، الا ان الدراسة تتحدث عن نوع من الصور النمطية السلبية تجاه البيروقراط لدى أهل الكرك عن البيروقراط.

وفي تحديده لمكانة القبيلة في الكرك، يرى جوبسر أن القبيلة ما زالت أهم جماعة هناك، بالرغم من أنها فقدت بعضا من قوتها(جوبسر ١٩٨٨: ١٢٠)، أما الولاءات الفردية الأولية فما زالت للعائلة الممتدة، وللقبيلة، وإن كان هناك نوع من التنافس بين بعض التنظيمات الجديدة على كسب ولاءات الأفراد مثل الجماعات السياسية، والقرية، والطبقة المتعلمة والمملكة الأردنية، ويرى جوبسر أن هذه التنظيمات ناجحة بشكل جزئي في محاولاتها.

نتيجة لحالة التنافس المشار إليها، فإن القبيلة فقدت جزءا كبيرا من قوتها، ففي حل النزاعات بين القبائل فإن الشرطة وأحيانا الجيش يتدخلان لحل النزاعات، كذلك، فإن ارتباط الوظائف والقروض والخدمات بالدولة قلل من دور القبيلة، وإن كانت القبيلة ما زالت تلعب دورا في الوصول إلى بعض المنافع من الدولة، فكثيرا ما تتدخل القبيلة لدى الدولة من أجل منفعة أحد أبنائها، كذلك، فإن دور القبيلة يبرز في مؤسسات محلية مثل المجلس البلدي ومؤسسات وطنية مثل مجلس الامة وفي مناسبات مثل الحملات الانتخابية (جوبسر ١٩٨٨: ١٢٢).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما Layne (1986) في دراستها عن العشائرية وإعادة إنتاجها في الأردن، فقد بينت أن هناك مجموعة من الإنتماءات يمكن العثور عليها بين مجتمع الدراسة، والتي يمكن ترتيبها بشكل هرمي وهي تبين أن هذه الانتماءات تتأثر بالسياق الذي تظهر فيه، فهناك انتماءات للعائلة والأسرة والأمة العربية والأمة الاسلامية تتشابك جميعها، ويمكن أن يظهر أحدها دون الآخر وفقا للموقف الذي يجد الفرد نفسه فيه مضطرا لتحديد هويته.

ولا تجد الدراسة تعارضا بين تحديد الفرد لهويته كمواطن أردني وفي نفس الوقت كابن لعشيرة، فلا تعارض بين الدولة والعشيرة كمصادر لتحديد الهوية، وتشير الدراسة إلى طبيعة العلاقة التي تربط الدولة من خلال الملك مع القبائل وتعتبر أن « من المعروف أن الملك حسين هو داعم للعشائر، وأنه يعتمد على هذه العشائر مقابل دعمه لها» (Layne 1986: 104).

٥ ـ إشكالية الدراسة

يتحدد الإطار العام لإشكالية الدراسة في موضوع الدولة القومية Nation State ، وتحديدا ذلك المتعلق بالدولة في العالم الثالث، حيث ترتبط الدولة، في الغالب، بإرث إستعماري، كما تتسم الدولة كذلك، بكثير من الخصائص التي تميزها عن تلك التي برزت في أوروبا، إبتداء من القرن الثاني عشر.

تميل بعض الدراسات، وخاصة تلك التي لا تتبع تقاليد أنثروبولوجية إلى معالجة ظاهرة الدولة باعتبارها ظاهرة منفصلة نسبيا عن التطورات داخل البنية الاجتماعية التي تنشأ الدولة في محيطها، وتبدو الدولة داخل هذه الدراسات، وكأنها كائن عاقل مفكر، يمارس تأثيرا في البنية الاجتماعية في حين لا يتأثر كثيرا بهذه البنية، وتميل هذه الدراسات أيضا، إلى تجاهل الإطارين الاقليمي والعالمي الذي تنشأ الدولة في ظلهما.

وضمن نفس التقليد الأكاديمي، فإن مفهوم الدولة القومية يعالج باعتباره ظاهرة أوروبية غربية، وأن من المحتم وجود تطور لدى المجتمعات غير

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الأوروبية يسير وفق نفس الخط التطوري الذي سلكته المجتمعات الأوروبية، من حيث بروز ظاهرة الدولة القومية. وترى هذه الدراسات، أن نموذج الدولة القومية، يمكن أن يوجد بفعل السيطرة الكولونيالية على مجتمعات العالم الثالث. فالإستعمار يمكن أن يمارس دور المحفز لنشوء هكذا أشكال من الدول. ويحاول هذا التقليد أولا، إيجاد السياق التاريخي الذي ظهرت الدولة القومية الاوروبية ضمنه، ثم يحاول ثانيا، رصد نفس هذا الخط التطوري في مجتمعات خارج أوروبا. إن شتريير (١٩٨٢) يقدم نموذجا لاتجاه كهذا، وهو يحدد ثلاثة شروط ضرورية لبروز الدولة القومية، التي اصبحت بنظره ضرورة، وحيث أصبح «الفرد بدون دولة ليس شيئا» (١٩٨٢: ٧). وتتمثل هذه الشروط في ضرورات أو وجوبات ثلاثة: استمرار في الزمان، واستقرار في المكان لمجموعة بشرية ما؛ وقيام مؤسسات سياسية مدنية وغير شخصية ودائمة نسبيا؛ وأخيرا إنتقال تدريجي ضروري لمشاعر الولاء تجاه الوحدات الصغيرة مثل العائلة نحو وحدات أكبر مثل الدولة أو الامة.

لقد لعبت فكرة الدولة القومية ذات النموذج الأوروبي دورا كبيرا في توجيه كثير من الدراسات التي أتخذت من الدولة في العالم الثالث موضوعا لها، ويعود معظم هذه الكتابات لباحثين غربيين، وخصوصا التحديثيين منهم. وتركز بعض الدراسات بعد انحسار النشاط الإستعماري المباشر لمجتمعات العالم الثالث على استقصاء العوامل التي تلعب دورا حاسما في صياغة أطر الدولة القومية في هذه المجتمعات. ويمكن ملاحظة عدة اتجاهات داخل الدراسات التي تعالج موضع الدولة في العالم الثالث. فثمة اتجاه يركز على العوامل التاريخية من خلال تطور التشكيلات الاجتماعية لهذه المجتمعات، ومن خلال تناول الأثر الحاسم الذي لعبه التطور الراسمالي الغربي ضمن هذه التشكيلات. ويرفض هذا الاتجاه إمكانية العثور على نموذج أوروبي للدولة القومية في مجتمعات العالم الثالث. وهو يؤكد على وجود سمات خاصة، ونموذج خاص للدولة في العالم الثالث. أما الاتجاه الاخر فيتجسد في نظرية «العوامل الداخلية» التي ترى بامكانية نشر النموذج الاوروبي في الدولة القومية في مختلف المجتمعات. ويميل هذا الإتجاه إلى اغفال العوامل التاريخية التي خضعت لها المجتمعات، وهو يميل إلى رؤية التطور الراسمالي كمحفز لقيام نماذج للدولة القومية في العالم الثالث.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد استمر التقليد الاكاديمي ولفترة طويلة في تناول مجتمعات الشرق الأوسط من خلال وجود دولة لا ترتبط كثيرا بالوحدات الإجتماعية التي تكون البناء الاجتماعي، وقد تم رفض مفهوم الطبقة كأحدى هذه الوحدات (بيل وزارتمان في تيرنر ١٩٧٨)، (Gerholm 1977) ، لقد نظر إلى الاثنية والملة والطائفة والقبيلة كوحدات معقولة في دراسة التنضيد الاجتماعي لمجتمعات الشرق الأوسط، وقد تم التعامل أيضا مع هذه الوحدات بعيدا عن تأثير الدولة، وعن التطورات داخل الجهاز السياسي للدولة

وفي مواجهة التقليد الأكاديمي السابق القائم على مبدأ فصل الدولة عن التنظيم الاجتماعي المرافق، ظهر تقليد أكثر جدة، وهو يقوم على دراسة العلاقة المتبادلة بين الدولة وبين الوحدات الاجتماعية السائدة وبضمنها القبيلة، ويركز هذا التقليد بشكل أساسي على أتجاهين؛ الأول يركز على تأثير الدولة في القبيلة كوحدة اجتماعية؛ في حين يميل الثاني للتركيز على التأثيرات التي تمارسها القبيلة في الدولة، وفي الوقت الذي يرى فيه أحد الاتجاهين في الدولة جهازا قادرا على احتواء شيوخ القبيلة، فإن الاتجاه الآخر يميل إلى رؤية القبيلة كوحدة تمارس ضغوطا على الدولة، وعلى جهازها السياسي

لقد توصلت بعض الدراسات في المنطقة العربية إلى إستنتاج اساسي مفاده؛ أن الدولة ـ ومن خلال جهازها ـ قادرة على ممارسة تاثير على القبيلة وسلطتها، وأن الدولة كانت قادرة في بعض الاحيان على إحداث تأثيرات في بنيتها، وتقدم دراسة خوري (١٩٨٣) مثالا تجريبيا، حيث استطاع جهاز الدولة في البحرين إحتواء شيوخ القبائل في الجهاز البيروقراطي ويعتبر (Gerholm) (1977) أنه وفي الحالة اليمنية، فإن الدولة استطاعت أن تمد منافعها إلى زعماء القبائل وشيوخها من خلال جهازها، أما جوبسر (١٩٨٨) فيتحدث عن نجاح المملكة الأردنية في تحقيق شرعية لها في مدينة الكرك في فترة حديثة، ومنافسة القبيلة والحد من حيازتها للشرعية

وعلى الجانب المقابل، فإن بعض الدراسات تتحدث عن فشل الدولة في الشرق الأوسط في مواجهة القبيلة، وهي تشير إلى نوع من المقاومة تبديه القبيلة لسياسات الدولة، ويجسد المثال التجريبي من ليبيا عند Davis (1987) هذا

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفشل للدولة، والرغبة في المقاومة لدى القبيلة، فالشعارات حول الولاءات القومية والاممية التي يرفعها النظام السياسي هناك تحبطها ابنية قبلية عنيدة، تعيد إنتاج نفسها بوسائل مختلفة، أما دراسة Layne (1986) فتتحدث عن صراع بين اتجاهات قبلية في الأردن وأخرى غير قبلية، وتتحدث عن نوع من الاستمرارية للنظام العشائري الذي يملك القدرة على مواجهة دعوات التحديث، وهي تتحدث عن نوع من المنفعة المتبادلة بين النظام السياسي مجسدا في الملك وبين الابنية القبلية.

ويبرز داخل جسم علم الاجتماع دراسات كثيرة تنتسب إلى نظرية العوامل الداخلية الهادفة الى تحديث مجتمعات العالم الثالث، وتستند هذه الدراسات إلى مقولات فيبرية عن وجود ثنائيات من قبيل: تقليد - حداثة، ديني - علماني، خصوصي - كوني، وبالنظر إلى أن اشكالية التحديث في مجتمعات العالم الثالث، كانت المهيمنة على هذه الدراسات، فقد كانت هناك إفتراضات وأفكار حول وسائل وضرورات هذا التحديث.

تفترض الأفكار التحديثية بشكل أساسي إمكانية امتلاك مجتمعات العالم الثالث لنموذج دولة قومية كتلك التي برزت في أوروبا بعد القرن الثاني عشر، وهي تفترض أن التحديث غير ممكن في ظل غياب الدولة القومية، أما بناء الدولة القومية فقد ارتكز من وجهة نظرها إلى وجود طبقة وسطى أوروبية ذات طابع تجاري، ومن المهم والاعتبار هذا تشكل طبقة وسطى في مجتمعات العالم الثالث يكون بإمكانها بناء الدولة القومية، والوصول إلى مرحلة الحداثة، إن الطبقة الوسطى ضمن هذه الأفكار أصبحت الهدف الذي وجه كثيرا من الدراسات حول الشرق الاوسط وتحديثه.

ترجع الدراسات التحديثية تخلف مجتمعات الشرق الأوسط إلى الغياب التاريخي لطبقة وسطى تجارية، لم يكن بالإمكان تشكلها في ظل عقيدة إسلامية لا تشجع العمل التجاري (فيبر في تيرنر ١٩٧٨) ، وقد كان من شأن توسع جهاز الدولة في مجتمعات الشرق الأوسط بعد الاستعمار، وتوسع خدمات جهاز التعليم، أن برزت توقعات حول امكانية نشوء طبقة وسطى نتيجة هذا التوسع، لقد ذهب هالبرن (في Ayubi 1980) وبرغر (١٩٥٨) إلى القول بأن البيروقراط،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

باعتبارهم فئة اجتماعية، يمكن أن يكونوا مضمونا لطبقة وسطى ضرورية في عملية التحديث الاقتصادي والاجتماعي في الشرق الأوسط، وأن هذه الطبقة تتكون أساسا من المتعلمين والفنيين والتكنوقراط، بدلا من طبقة تجارية راسمالية توجهها عوامل المنفعة الذاتية.

وتفترض هذه الاستنتاجات قيام الطبقة الوسطى، التي ستقود عملية التحديث، بالعمل على نشر أيديولوجيا ذات مضامين قومية، بدلا من أشكال خصوصية من الايديولوجيا، كذلك يؤمل من هذه الطبقة العمل على إزالة الروابط القرابية لمصلحة روابط أكثر عمومية مثل روابط الأمة والدولة القومية. إن فاتيكيوتيس وافينيري (في تيرنر ١٩٧٨) يريا بأن القومية تعد مرحلة ضرورية في الإنتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الحديث كذلك فإن الطبقة الوسطى - وفقا للنظرية التحديثية - وخصوصا الفئات المثقفة منها تعد عاملا حاسما في صياغة المعتقدات القومية.

إن الحديث عن تنامي الجهاز البيروقراطي في مجتمعات الشرق الأوسط، يمكن أن ينطبق على الأردن، وتبين دراسة أبو دية (١٩٨٨) التطور الهائل الذي طرأ على بنية الجهاز البيروقراطي الأردني، بدء من العام ١٩٢١، أي عام تأسيس الكيان السياسي الأردني ويسمح المنطق التحديثي الذي يرى في البيروقراط فئة إجتماعية تشكل مضمونا لطبقة وسطى، باستخدام نفس الإفتراضات حول الدور الفاعل لهذه الطبقة.

لقد تزامن تطور الجهاز البيروقراطي في الأردن وتضخمه بشكل ملموس مع تنام كبير في أعداد المضافات التي ترتبط بوحدات اجتماعية تعتمد التنظيم القرابي، وتبعا للتقسيم الفيبري (Weber 1964) فإنه يمكن تصنيف هذه المضافات باعتبارها تجسد أشكالا « تقليدية وغير عقلانية» من التنظيم الإجتماعي، وباعتبارها تقع ضمن إطار سلطة تقليدية، هي سابقة لشكل أكثر حداثة من السلطة، التي هي السلطة البيروقراطية. إن فيبر لا يخفي إعتقاده بقدرة التنظيم البيروقراطي العقلاني على هزيمة الأشكال التقليدية وغير العقلانية من السلطة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن إشكالية الدراسة تتحدد عموما في محاولة فهم الكيفية التي يتواجد في ظلها شكلان من السلطة - وفقا للتصنيف الفيبري - الأول بيروقراطي عقلاني، والثاني تقليدي في مدينة اربد، وتتحدد أيضا بمناقشة الإفتراضات التحديثية التي تقول بقدرة السلطة البيروقراطية من خلال الطبقة الوسطى التي تخلقها على سحق الأشكال التقليدية من السلطة.

ويمكن القول أن الهدف الجوهري للدراسة هو تحليل العلاقة القائمة بين العاملين في الجهاز البيروقراطي الحكومي الأردني (الجهاز الإداري التابع للدولة، إضافة إلى المؤسسة التشريعية المتمثلة في مجلس الأمة) أو الراغبين بدخوله وبين المضافات، التي هي مؤسسات تجسد أبنية الوحدات القرابية المختلفة وترتبط بها، ويتضمن هذا الهدف دراسة الدور الذي يمارسه البيروقراط داخل المضافات، وانعكاسات هذا الدور على بناء الوحدات القرابية «العشائر» في المدينة، ولا يتضمن هدف الدراسة تحليل التأثير الذي تمارسه المضافات على الجهاز البيروقراطي، أو العاملين فيه.

ويشتمل الهدف العام للدراسة على تناول المضافات، من حيث هي ظاهرة ذات جذور تاريخية، ويرتبط وجودها بمجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية في المدينة، وبتطور هذه العوامل، وكذلك، تشتمل هذه القضايا على مناقشة الأنشطة التي تتم عبر المضافات في فترات مختلفة، وتطور هذه الأنشطة تبعا لبعض التغيرات داخل البناء الاجتماعي وتساعد دراسة رواد المضافات والمنتفذين داخلها من حيث الخصائص السوسيولوجية لهذه الفئات، في فهم أفضل لطبيعة التغيرات التي طرأت على صعيد السلطة داخل البناء الاجتماعي ويرتبط الجانب المتعلق بالرواد بذلك المتصل بالزعامة داخل الوحدات القرابية، من حيث الشروط والخصائص.

لقد حدثت تطورات مهمة على صعيد إمتلاك شروط الزعامة داخل الوحدات القرابية ومن ثم داخل المضافات خلال الفترة الممتدة من مطلع القرن حتى هذه الفترة، فمن زعامة ارتبطت بامتلاك مساحات كبيرة من الارض وأعداد كبيرة من الحيوانات ويستدل عليها من خلال امتلاك مضافة ما، إلى زعامة أصبحت تعتمد كثيرا على العمل في الجهاز البيروقراطي الحكومي، ويستدل عليها من خلال

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التنفذ داخل المضافة، بالرغم من عدم أمتلاكها للمضافة

إن بعض الدراسات المتعلقة بالدولة في الشرق الاوسط اعتادت التعامل مع الدولة كبناء منفصل عن القبيلة، وكذلك التعامل مع القبيلة كبناء منفصل عن الدولة، وفي فترة لاحقة ظهرت دراسات تعالج القبيلة كبناء من خلال علاقته بالدولة كبناء، وهي تتحدث أما عن ضغط تمارسه القبيلة على الدولة، أو عن ضغوط تمارسها الدولة على القبيلة

من الصحيح القول أن الإتجاه السابق يبرز تطورا حقيقيا في معالجة ظاهرة الدولة في مجتمعات الشرق الأوسط، وكذلك معالجة ظاهرة القبيلة، ولكن هذا الاتجاه وبالرغم مما أضافه، ما زال يعاني من بعض القصور، لقد تعاملت هذه الدراسات مع هذه العلاقة، كعلاقة تقوم بين بنائين منفصلين (بناء القبيلة وبناء الدولة)، وقد حاولت في الغالب، أن تبين أوجه الصراع بين هذين البنائين، وتعطي هذه الدراسات إيحاء بوجود حدود واضحة لهذه البناءات، وإن كانت لا تتكلم عن هذه الحدود،

إن دراسة العلاقة بين المضافات والعاملين في الجهاز البيروقراطي الحكومي، يمكن أن يبرز عدم وجود حدود قاطعة تميز بين أبنية الوحدات القرابية من جهة، وبناء الدولة من جهة أخرى، إذ أنه وعند النظر إلى البنية الإجتماعية، باعتبارها تتشكل من مجموع علاقات الافراد ومكاناتهم، فإن الدراسة تستطيع أن تبين تداخل حدود هذه البناءات وصعوبة تمييزها، بالنظر إلى أن رواد المضافات والمتنفذين داخلها، هم في أغلب الأحيان من العاملين في الجهاز البيروقراطي، وبالتالي فإن الحديث هو عن أعداد من الأفراد الذين ينخرطون في مؤسسات وتنظيمات متنوعة، مما يجعل من الصعب الفصل بين البنائين والتعامل معهما كبنائين محددين ومميزين،

ويمكن القول أن دراسة العلاقة التي تقوم بين البيروقراط، كفئة إجتماعية تشكل محتوى لطبقة وسطى تحديثية، وما بين المضافات، (كمؤسسات تقليدية) تجسد علاقات قرابية، تتيح إمكانية دراسة طبيعة العلاقة التي نشأت في ظل دولة ما بعد الاستعمار في الشرق الأوسط، بين الجهاز البيروقراطي والتنظيمات

© Arabic Digital Library Yarmouk University

القرابية، وتتيح توضيح الدور الذي يمارسه البيروقراط من خلال تزعم حركة بناء المضافات ورعاية أنشطتها، على عملية إعادة إنتاج بناء العشيرة أيديولوجيا، بعد أن عملت سلسلة معقدة من التطورات الإقتصادية ـ الإجتماعية على ممارسة ضغوط على البناء المادي للوحدات القرابية في المدينة.

٦ ـ منهج البحث ومحدداته:

تتعدد وسائل جمع المعلومات المتعلقة بموضوع الدراسة، ويمكن تلخيصها بالوسائل والمصادر التالية:

١ـ الملاحظة بالمشاركة:
لقد تم الإتصال وبشكل مستمر بمجتمع الدراسة، وتحديدا برواد المضافات إضافة إلى تنظيم أحاديث مع اشخاص لا ينتمون لأي مضافات، وتم تنظيم زيارات منتظمة لهذه المضافات التي يبلغ عددها ١٠ مضافات، بالإضافة إلى زيارات تتطلبها بعض المناسبات داخل المضافات، مثل الجاهات وتقديم التعازي، والصلحات وغيرها.

٢ـ المقابلات الشخصية:

وهي توفر مادة خصبة لأغراض التحليل، وشملت هذه المقابلات بعض الشخصيات المهمة والمتنفذة داخل المضافات وداخل الجهاز البيروقراطي، وتشتمل هذه المقابلات على أسئلة حول ارتباطات هؤلاء بالمضافات وبالوحدات القرابية التي ينتمون اليها، وكذلك عن أرائهم بشان اهمية العلاقات القرابية.

٣ـ الإستبيانات:

لقد تم توزيع استبيان يتناول بعض المعلومات التي تتعلق برواد المضافات، من حيث الفئات العمرية والتعليمية والمهنية، كذلك، يتناول معلومات متصلة بمدى الارتباط بين هؤلاء والمضافات، ومعلومات اخرى تتعلق بالولاءات والانتماءات

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لدى الافراد من رواد المضافات.

وقد وصل عدد هذه الاستبيانات إلى ١٠٠، حيث يحتوي كل واحد منها على ٢٩ سؤالا يتعلق بالعلاقة بين الفرد والمضافة التي تملكها مجموعته القرابية، وكذلك تتعلق بالولاءات والانتماءات التي يملكها الفرد تجاه المضافة والوحدة القرابية والمدينة والدولة والامة العربية والاسلامية.

وقد تم اختيار الأشخاص بالإعتماد على عامل الإنتماء إلى المضافة، وعلى عامل السن والتعليم بشكل أساسي، حيث روعي عند توزيع الإستبيان قيام أشخاص من فئات عمرية وتعليمية متباينة بتعبئته.

لقد جرى توزيع الاستبيانات على فترات مختلفة وإستغرق توزيعه أكثر من شهر، وفي معظم الأحيان تم توزيع نسخ من الاستبيان في فترات المساء، حيث تفتح المضافات أبوابها، كذلك تم توزيع الاستبيانات في بيوت بعض أعضاء الوحدات القرابية التي تتردد على المضافات، بعد ترتيب موعد مسبق، وبالنظر إلى عدم فتح المضافات التي ينتمون اليها أبوابها في تلك الفترات.

وبالنظر إلى أن حجم العينة التي شملها الإستبيان لا يمكن إعتباره ممثلا، مقارنة بالأعداد الكبيرة من الناس التي ترتاد المضافات، فإنه سيتم إبراز الخصائص الديموغرافية والإجتماعية للعينة بشكل مختصر، في حين سيكون هناك إسهاب في تناول العلاقة بين المستويات التعليمية والمهنية والعمرية للرواد من حيث علاقتها مع ترتيب الولاءات والإنتماءات لدى أفراد العينة.

وفيما يتعلق بالاستجابة التي أبداها مجتمع الدراسة تجاه تعبئة الاستبيان، فانها لم تكن متجانسة عند الجميع الذين طلب منهم عمل ذلك. لقد استجاب معظم الاشخاص وقاموا بتعبئة الاستبيان، إلا أن البعض رفض عمل ذلك بشكل قاطع، وفي الغالب، فإن مهن من رفضوا تعبئة الاستبيان كانت متشابهة؛ لقد عمل معظمهم في مناصب هامة؛ فأحدهم كان يشغل منصب مساعد متصرف لاحد الالوية، وشغل اثنان منهم منصب قاض، ومدعي عام.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وينبغي الاشارة إلى أن الفترة التي تم فيها توزيع الاستبيان، شهدت أحداثا هامة كان أبرزها نشوب الحرب في الخليج بين الولايات المتحدة وحلفائها من جهة والعراق من جهة أخرى، وهو ما يعني تأثيرا في نمط إجابة الاشخاص حول الاسئلة المتعلقة بالولاءات والانتماءات، واجاباتهم حول تطوير عمل المضافات.

٤ـ السجلات الحكومية:

تشمل هذه السجلات تلك الموجودة لدى وزارة الداخلية الاردنية، وبلدية إربد والتي تتعلق بالمضافات من حيث الاعداد والتوزيع والإجراءات القانونية اللازمة لإنشائها.

٥ـ الصحف الرسمية والمحلية:

بالاعتماد على المواد التي توفرها هذه الوسائل، فإنه يمكن مراقبة تطور الخطاب الاجتماعي والرسمي الاردني من حيث العنصر القبلي فيه وبامكان الجريدة الرسمية أن تقدم معلومات عن تطور القوانين القبلية في الأردن، وعن تطور نشاطات المضافات.

لقد إستغرق البحث الميداني فترة إمتدت إلى حوالي الثمانية أشهر، تم خلالها القيام بزيارات متعددة إلى عدد من المضافات، وقد تنوعت هذه الزيارات، وتنوعت أهدافها أيضا، إن بعض الزيارات كان تتم بشكل روتيني ودون حصول مناسبات معينة داخل المضافات، في حين أن بعض الزيارات تمت في أوقات كانت فيها بعض الوحدات القرابية تمارس بعض الأنشطة عبر المضافات، وقد تعذر القيام بجولات في بعض المناسبات لأسباب مختلفة.

لقد كانت هناك زيارات منتظمة لمضافات العشائر التي قطنت وسط إربد منذ فترات طويلة، وتم تحديدها باعتبارها تشكل العشائر الأكثر قدما في المدينة، حيث شملت هذه الزيارات مضافات عشائر الرشيدات، والتلول، والخريسات، كذلك، شملت مضافات بعض العشائر التي قطنت المدينة في فترة لاحقة، ومنها مضافة الحتاملة في شرق المدينة، وضمن منطقة البارحة، فقد كانت

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هناك زيارات لمضافات عشائر بني هاني، والبصول، والطبيشات. وينبغي الملاحظة أنه كانت زيارات لمضافتين من مضافات الطبيشات الثلاث، كذلك كانت هناك زيارات لمضافات عشيرة البصول الثلاث. ويعود أحد هذه المضافات إلى عشيرة البصول بكاملها، في حين يمتلك كل من الحاج محمد عطية البصول، والحاج يوسف السليمان البصول مضافتين خاصتين بهما.

وبالإضافة إلى الزيارات المتكررة التي تعتمد على مناسبات معينة، كانت هناك زيارات إرتبطت بحصول مناسبات أو أنشطة معينة داخل المضافات. فقد كانت هناك زيارة لمضافة عشيرة التلول لحضور مناسبة إجراء صلح عشائري. وكانت هناك زيارة لمضافة البصول لحضور معرض فني، وزيارتين أخريتين لمضافتي الحتاملة وبني هاني من أجل حضور مناسبة تلقي التعازي. وتم تنظيم زيارة لأحد مضافات الطبيشات لحضور صلح بين فرعين متخاصمين من العشيرة.

أما حضور بعض المناسبات، مثل إقامة بعض الأعراس، ومناسبات تتعلق بمناقشة بعض المسائل المثيرة للخلاف داخل الوحدات القرابية، فقد تعذر. وكان هناك تهرب من كشف الموعد الذي ستتم فيه هذه المناسبات. كذلك، فإن مناقشة شروط الصلح لعشيرة ما مع عشيرة أخرى، كانت تتم دون الكشف عن موعد حصولها، ويمكن القول أن قيام بعض المضافات بفتح أبوابها في مناسبات معينة، قد حد من إمكانيات البحث الميداني.

لقد تم أيضا القيام ببعض المقابلات مع بعض الشخصيات التي تتردد على المضافات وتمارس أنشطة مختلفة داخلها من خلال زيارة هذه الشخصيات في بيوتها أو مكان عملها، وعلى سبيل المثال، فقد كانت هناك لقاءات مع الدكتور عبدالرزاق طبيشات وزير الشؤون البلدية والقروية في مبنى بلدية إربد، حين كان يشغل منصب رئيس للبلدية، وتم تنظيم لقاء مع السيد حسن التل رئيس تحرير جريدة اللواء ذات الميول الإسلامية في بيته.

وفيما يتصل بجمع المعلومات المتعلقة بدور البيروقراط داخل المضافات، فقد تم الحصول عليها من مصادر مختلفة. إن جزء منها تم الحصول عليه من خلال الملاحظة المباشرة والميدانية، وخلال المناسبات المختلفة التي كانت تجري داخل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المضافات، في حين تم الحصول على معلومات أخرى من خلال المقابلات الشخصية مع بعض هؤلاء في بيوتهم أو في مكان عملهم أو في المضافات نفسها، كذلك تم الحصول على معلومات أخرى تتعلق بعلاقات هؤلاء البيروقراط داخل الوحدة القرابية وداخل المضافة ومع الوحدات القرابية الأخرى من خلال بعض الأحاديث الشخصية مع بعض أقارب العاملين في الجهاز البيروقراط.

بالنظر إلى أن البحث يتناول ظاهرة ذات إمتداد تاريخي، فقد تطلب الأمر إلتزام جانب الحذر في معالجة كثير من المعلومات المتعلقة بالجانب التاريخي من الظاهرة، لقد تم جمع المعلومات التاريخية من خلال الإعتماد على التاريخ الشفوي الذي توفره ذاكرة بعض الأشخاص المسنين في المدينة، إلا أنه تم الأخذ بعين الاعتبار الدوافع الايديولوجية الذاتية لهؤلاء المسنين التي تنبع من كونهم جزء من الظاهرة المدروسة، إن الأحاديث المختلفة مع بعض كبار السن ممن يمثلون مواقع إقتصادية وإجتماعية مختلفة تعطي فرصا أكبر لتحقيق درجة أكبر من الموضوعية في معالجة المعلومات المتعلقة بالجانب التاريخي للمضافات في مدينة إربد، لقد أعتمد على أشخاص مسنين يمثلون مواقع إقتصادية وإجتماعية متباينة في المدينة في جمع هذا النوع من المعلومات.

وعلى صعيد زيارة بعض الدوائر التي تملك بعض المعلومات المتعلقة بالمضافات، فقد بذلت بعض المحاولات من أجل الحصول على بعض المعلومات المتصلة بالجانب القانوني لمسألة بناء المضافات، ويمكن القول أن هذه المحاولات لم تحقق معظم أهدافها بسبب تهرب بعض المسؤولين في وزارة الداخلية من إعطاء أي معلومات، بل وحتى رفض تحديد موعد الموظف المسؤول عن منح تراخيص لبناء المضافات والروابط والجمعيات، في حين فشلت محاولات مشابهة للحصول على أعداد المضافات وتوزيعها في مدينة إربد من موظفي البلدية، بالنظر إلى أن بناء المضافة لا يحتاج لأكثر من موافقة روتينية من البلدية، وحيث لا يقوم الموظف المسؤول بعمل إرشيف لعدد التواقيع التي تم منحها لبناء مضافات في المدينة.

لقد تزامنت فترة البحث الميداني مع قيام الحرب في الخليج بين الولايات المتحدة والأطراف المتحالفة معها من جهة والعراق من جهة أخرى، وقد شكل هذا

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الحدث أثرا ذي وجهين؛ فمن جهة فقد نشط عمل المضافات وشهدت توافدا لاعداد اكبر من الناس، وهو ما أعطى فرصة أفضل للزيارات الميدانية، ومن جهة أخرى فقد كان تركيز الافراد في تلك الفترة مشدودا الى ما يحدث في الخليج، وهو ما كان يدفعهم لعدم الترحيب باشخاص لا يعرفونهم جيدا، ولا يريدون رؤيتهم في تلك الفترة، وكثيرا ما كانت إجابات بعض الأشخاص حول إمكانية زيارة مضافاتهم تتجسد في الطلب بأن يتم تأجيل الزيارة الى فترة لاحقة.

ولا يمكن تجاهل الحساسية التي يثيرها وجود شخص غريب في أماكن ينظر إليها على أنها ذات خصوصية كبيرة، وخصوصا لدى الاشخاص الذين يملكون هذه الامكنة، ويمارسون أنشطتهم داخلها، إن وجود باحث أنثروبولوجي لا ينتمي للمضافة التي تمارس نشاطا يمكن أن يخلق حساسية عند البعض في حال مناقشة بعض القضايا، كذلك، فقد برزت حساسية عند بعض البيروقراط تجاه توثيق أحاديثهم أو حتى تعبئة الاستبيانات، لقد أعتبر بعض العاملين في الجهاز البيروقراطي أن من غير المعقول بالنسبة لهم القيام بكتابة آرائهم في بعض المسائل، بالنظر الى وظائفهم، وقد ردد بعضهم أنه على استعداد لان يخوض في النقاش حول مختلف المسائل حتى الصباح، ولكنه ليس على استعداد لان يكتب حرفا واحد لانه «إبن دولة».

كذلك، فإن صعوبة برزت نتيجة للهدف الحقيقي للدارسة وتوقع مجتمع الدراسة منها، والافكار المسبقة التي يحملونها عن العشائر والعشائرية والمضافات، لقد أعتقد الكثيرون في بداية الامر أن زيارة مضافتهم هو بهدف ابراز المضافة وبالتالي إضفاء بعض السمعة والهيبة عليها، وكان توقعهم هو أن الزيارات لن تتكرر، ولكن مع تكرار الزيارات لبعض المضافات فقد كانت هناك حساسية تجاه الاسئلة المطروحة، وفي بعض الأحيان كان هناك تهرب من تحديد المواعيد لزيارة المضافة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثاني

عوامل نشوء المضافات وأنشطتها السابقة

مقدمة

إن الخوض في مناقشة العوامل التي كان من نتيجتها تشجيع الاتجاه نحو بناء مزيد من المضافات في إربد، يتطلب في البداية الإشارة إلى أن النقاش، يتناول ظاهرة معاشة، ولكنها ذات امتداد تاريخي يصعب تحديد بداياته، والحديث عن المضافات، إنما هو حديث عن ظاهرة ذات شكلين؛ مجرد عندما يتم التعامل مع المضافات كظاهرة ذات امتداد تاريخي وغير معاش ؛ وملموس عندما يتم تناول المضافة، من حيث هي ظاهرة موجودة في الحاضر، ويتم عبرها ممارسة أنشطة وأدوار يستطيع المرء أن يلاحظها بشكل جلي وواضح.

إن الجانب التاريخي من الدراسة المتعلق بتطور الشروط الاقتصادية - الإجتماعية لإنشاء المضافات، سيهتم بمقارنة فترتين تاريخيتين؛ الأولى تتحدد في بداية القرن، وهي الفترة التي كان يخضع فيها الأردن للحكم العثماني، أما الفترة الثانية، فتتناول مرحلة ما بعد منتصف السبعينيات، وهي الفترة التي شهدت أكبر توسع في أعداد المضافات.

أما مبررات هذا التقسيم، فهي؛ أن التاريخ الشفوي الذي مصدره ذاكرة كبار السن من مجتمع الدراسة، لا يستطيع تقديم معلومات كافية عن المراحل التي تسبق هذه الفترة، كذلك، فإن هناك تمييز لهذه الفترة لدى كبار السن، وفي كثير من الأحيان، فإنهم يصيغون تقسيما خاصا بهم من خلال ترديد عبارة «زمن تركيا»، و«الآن» كذلك، فقد كانت هناك وباستمرار ثنائية زمنية، تتردد بين أفراد مجتمع الدراسة، يتم بموجبها إختزال الزمن في جزئين، أو لحظتين، هما زمان والآن، دون تحديد المضمون الزمني الدقيق لهذين التعبيرين، وينسجم تقسيم كهذا مع إشكالية الدراسة، التي تتخذ من تضخم الجهاز البيروقراطي وعلاقته بالمضافات موضوعا رئيسيا للدراسة، ويتيح مقارنة هاتين اللحظتين التاريخيتين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تحقيق هدف الدراسة، فالمرحلة الأولى تمثل فترة نشاط زراعي ورعوي، وحيث هناك تواجد ضعيف لأجهزة الدولة، أما المرحلة الثانية، فتمثل أدنى انتشار للأنشطة الزراعية، وأكبر تضخم للجهاز البيروقراطي.

١ ـ العشائر في مدينة إربد

يرتبط الحديث عن المضافات لدى أفراد مجتمع الدراسة في إربد، بوجود تنظيمات قرابية يطلق عليها في غالب الأحيان من قبلهم «العشاير» وفي بعض الأحيان «الحمايل»، كذلك، فإن البعض يتكلم عن ما يسمى «بالفرع» عندما ينصب الحديث عن تقسيمات داخل الوحدة القرابية نفسها، أما تعبير «القبيلة» فلا ترديد له، ولا استخدام.

ويرتبط التاريخ الاجتماعي لمدينة إربد، وكما تتناوله ذاكرة المسنين من رواد المضافات، والاجيال الأكثر شبابا والتي تعتمد بدورها على ذاكرة كبار السن، بوجود مجموعة من «العشائر»، يبلغ عددها سبعا، هي الأكثر قدما وأصالة من حيث الوجود في المدينة، وهناك حديث شائع يربط بين عدد هذه الوحدات القرابية ووجود سبعة آبار للمياه لتجميع مياه الامطار المستخدمة للشرب والاستخدامات المنزلية في المدينة، وتحتل مقولة «السبع خرزات» القديمة في إربد موقعا هاما في الحديث عن البناء القرابي في المدينة، ويقصد «الخرزة» الجزء الأعلى البارز من بئر المياه الذي تقوم الوحدات القرابية ببنائه لتجميع مياه الأمطار فيه، للاستفادة منها في الفصول التي يتوقف فيها هطول الأمطار.

وتجمع الروايات الشفهية على وجود سبع وحدات قرابية ترتبط بهذه «الخرزات»، والوحدات القرابية هي: الخريسات، والتلول، والعبندات، والشرايرة، والدلاقمة، والحجازات، والرشيدات، فقد امتلكت كل من هذه الوحدات القرابية بئرا للمياه في المدينة، وإرتبط باسمها.

إن الحديث عن الوحدات القرابية في إربد، يفرض الإشارة الى المقصود بمدينة إربد عند مجتمع الدراسة، فعند الكثيرين يتحدد المقصود بإربد

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بالمنطقة التي تشكل وسط المدينة الآن، وهم يستثنون منطقة البارحة، التي تقع غربي المدينة، وبذلك، فإن هناك إستثناء للوحدات القرابية التي تقطن تلك المنطقة، وهي وحدات البصول، وبني هاني، والبطاينة، والطبيشات، والكوافحة، بالرغم من ضخامة عدد بعض هذه الوحدات، وقدم وجودها في المنطقة، كما تفيد الرواية الشفهية.

وربما يعود هذا التقسيم الذي لا يقبل بالمدينة بنفس حدودها الحالية، إلى ضخامة أعداد بعض الوحدات القرابية التي تسكن في البارحة، ويؤدي هذا الوضع إلى شعور أعضاء الوحدات القرابية السبع، بعدم التميز وربما الضعف أمام هذه الوحدات الكبيرة عدديا، إن الكثيرين مثلا لا ينكرون ضخامة عدد افراد عشيرة [redacted]، وتقول تقديرات بعض أفراد عشيرة [redacted] بأن عدد العشيرة يتجاوز السبعة الآف، في حين تشير تقديرات الوحدات القرابية الاخرى إلى عدد لا يتجاوز الثلاثة الآف.

ويستخدم معظم أعضاء الوحدات القرابية تعبير «العشيرة» عندما يتحدثون عن انفسهم وعندما يطلب منهم تعريف أنفسهم، ويستخدم هذا اللفظ فقط، إذا كان الفرد لا يريد إبراز أي نوع من الخلافات داخل الوحدة القرابية، أما عندما يتكلم الفرد عن الوحدات القرابية الاخرى، فإنه يلجأ إلى تعبير «العشائر» أو «الحمايل» وفي الغالب، فإن تعبير «الحمولة» يرادف تعبير «العشيرة» وإن كانت «الحمولة» تشير إلى عدد أقل من أعضاء الوحدة القرابية.

وتبرز داخل الوحدات القرابية الكبيرة مثل عشيرة [redacted]، وبعض الوحدات الصغيرة التي تعاني من بعض الانشقاقات، تعبير «فرع» ويشير هذا التعبير الى عدد من الاعضاء الذين يلتقون عند جد معين، ينحدر من الجد الذي تتبع له الوحدة القرابية كاملة، وفي الغالب، فإن تعبير «الفرع» يبرز لدى الوحدات القرابية التي تملك عددا من المضافات، نتيجة معاناتها من الإنقسام، إن احد العشائر الكبيرة في منطقة البارحة تنقسم إلى فرعين، وهي تمتلك مضافتين، في حين أن عشيرة أخرى متوسطة الحجم، وتسكن نفس المنطقة تتكون من ثلاثة أفرع وهي تملك ثلاثة مضافات، وتنقسم أحد العشائر المتوسطة في المدينة إلى فرعين وتملك مضافتين.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن أعضاء الوحدات القرابية لا يستطيعون في أغلب الأحيان تحديد خط إنتساب متواصل إلى الجد الذي ينحدر منه كافة أعضاء العشيرة، ويستطيع الفرد في معظم الأحيان تحديد الجد الخامس الذي ينتمي إليه وهو يستطيع أيضا تحديد معظم الأفراد الذين يشاركونه الإنتساب إلى نفس الجد، ولكنه لا يستطيع تعداد الأفراد الذين ينتمون الى أجداد آخرين داخل الوحدة القرابية، ولا يستطيع معظم الافراد صياغة قائمة من الأجداد الذين ينتسبون اليهم والذين ينحدرون من الجد الذي تنتمي اليه العشيرة كاملة، إن نوعا من القطع يبرز عند محاولة الفرد تحديد الاجداد الذين يربطونه بالجد الاصلي للعشيرة كاملة.

إلا أن بعض الأشخاص المتنفذين داخل الوحدات القرابية يملكون إدعاءات حول قدرتهم تحديد الجد الأول والتسلسل التي تملكه كافة الأفرع التي تكون العشيرة في علاقتها مع هذا الجد، وهم يجادولون أيضا بقدرتهم على تحديد المكان الذي قدمت منه العشيرة أولا والأماكن التي قطنتها العشيرة قبل إستقرارها في المدينة.

ويعتمد أعضاء الوحدات القرابية في تحديدهم الفرع الذي ينتمون إليه على انتسابهم للجد الخامس الذي ينحدرون منه، ويستطيع معظم الأفراد تحديد خط النسب الذين ينتمون إليه حتى الجد الخامس، ولا يستثنى الشباب من هذا الوضع، إن معظمهم يستطيعون تحديد الجد الخامس الذين ينتمون اليه، في حين أن بإمكان كبار السن تقريبا تذكر خط نسب يتجاوز الجد الخامس، ويبدي كبار السن هؤلاء إهتماما أكبر بخطوط الانحدار لدى الأفرع المختلفة داخل العشيرة، بل أن كثيرا منهم يملك معلومات عن تسلسل خط الانحدار لدى بعض الوحدات القرابية التي تقطن مناطق مجاورة للمنطقة التي يقطنونها.

٢ ـ عوامل إنشاء المضافات في الماضي

يمكن تقسيم العوامل التي قادت الى إنشاء المضافات في مطلع هذا القرن الى أربعة مجموعات، فهنالك من العوامل ما هو إقتصادي ويرتبط بطبيعة النشاطات الاقتصادية السائدة في مدينة اربد، ويرتبط أيضا بطبيعة الفئات التي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تملك سيطرة إقتصادية أكثر من غيرها على هذه النشاطات وهنالك من العوامل، ما هو سياسي ويتعلق بطبيعة التنظيم السياسي الذي خضع له الأردن عموما ومدينة اربد تحديدا، من حيث تواجد سلطة للدولة من خلال مؤسساتها، وثمة عوامل اجتماعية تتعلق بمجموعة الأنشطة المختلفة التي أنيطت بالمضافات، وجعلت منها كيانات مقبولة ومنتشرة، وضمن نفس العامل الاجتماعي، يمكن تناول طبيعة البناء الاجتماعي من حيث تواجد الوحدات القرابية ضمنه، وتاثيره في تشجيع بروز المضافات.

أ ـ العوامل الإقتصادية

تلتقي الروايات الشفهية المتعلقة بطبيعة الانشطة الاقتصادية في اربد في مطلع هذا القرن، على القول بوجود ملكيات فردية للاراضي الزراعية، وعلى نطاق واسع، وفي الغالب كانت هذه الملكيات ترتبط بشخص متنفذ داخل الوحدة القرابية، وكان هذا المالك يلجأ الى تشغيل أقاربه في تلك الأرض، وفي بعض الأحيان تأجير جزء منها الى أشخاص من وحدات قرابية أخرى، وقد انعكس التكاتف بين أعضاء الوحدات القرابية في إنجاز العمليات الزراعية الضرورية، في توزيع المساكن التي كان يقطنها أعضاء الوحدات القرابية، إن أعضاء الوحدة القرابية اعتادوا السكن في بيوت متجاورة ومتلاصقة، وكان بالامكان الحديث عن وحدة قرابية معينة تسكن في منطقة محددة، ولم يكن هناك انتشار واسع للمساكن، وإنما كان هناك اتجاه نحو تمركز المساكن في مناطق محصورة، والارتباط الكبير مع أعضاء الوحدة القرابية.

ويلاحظ أن كثيرا من حيازات الافراد، وحتى هذه الفترة تكون متقاربة إذا كانوا ينتمون لنفس الوحدة القرابية.

اعتمدت النشاطات الزراعية التي كانت سائدة في مدينة اربد على مياه الامطار، بالنظر الى عدم وجود مصادر مياه قريبة منها، تتيح تطوير أنشطة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مختلفة فيها، وتشير الدراسات أيضا، الى أن نقص المياه في مدينة اربد، هي حقيقة لها جذورها التاريخية، ويشير هاردنج الى « أن التوسع في اربد، حدث منذ أواخر الحرب العالمية الثانية، وكان العائق الرئيسي دون ازدهارها قبلا، هو عدم وجود مورد طبيعي للماء قريب منها، وعدم وجود أموال كافية لجلب المياه اللازمة» (هاردنج ١٩٧١: ٥٦) ويتكهن هاردنج باحتمال حصول زلزال في فترة ما بعد العصر الروماني، جفف مصادر مياه الامطار.

لقد ساهم الوضع المائي للمدينة ايضا في تركز النشاطات الزراعية في فترات محددة من العام، كذلك، فإن الإنتاج الزراعي عموما، كان من أجل تحقيق الاكتفاء للوحدات البيتية على مدى العام، وقد ساهمت وسائل التخزين المستخدمة انذاك في تحقيق هذا الاكتفاء، أن أهم المحاصيل التي كانت تزرع وبشكل كبير، هو القمح، الذي كان يعتمد عليه الناس في الغذاء، كذلك، فإن محاصيل، من قبيل العدس والفول، كانت تزرع وعلى نطاق واسع، أما الشعير، فقد كان يزرع من أجل توفير الغذاء للحيوانات، التي كانت تستخدم على نطاق واسع في الأعمال الزراعية، وفي مجال المواصلات، الا أن الشعير كان يشكل في بعض الاحيان مادة غذائية للسكان، بعد طحنه وخبزه.

ويمكن القول أن الأرض الزراعية، شكلت المحور الرئيس في عملية الانتاج في مطلع هذا القرن، وهناك حديث عن وجود نشاط تجاري بسيط في مطلع هذا القرن، يقوم على تجارة المواد الزراعية، وبالذات الحبوب، وبالنظر الى أن الزراعة كانت النشاط الرئيس الذي تعتمد عليه حياة غالبية سكان المنطقة، فان من البدهي أن تصبح ملكية الارض ذات تأثير على طبيعة البناء الاجتماعي، ومجموعة العلاقات الاجتماعية المشكلة له.

لقد ارتبط امتلاك المضافات في العقود الاولى من هذا القرن، بافراد يمتلكون حيازات كبيرة من الارض، ويمكن الجدال، هنا، بأن ملكية الارض، لعبت دورا مزدوجا! فهي من جهة وفرت الوسائل المادية الكفيلة بخلق مصدر إنفاق معقول، كان ضروريا لوجود المضافات، واستمرارية نشاطاتها، ولا يمكن الحديث عن أنشطة للمضافات دون توفر مصادر كافية من التمويل، ومن جهة أخرى، وفرت ملكية الارض مكانة اجتماعية للفرد، والذي عبروا عنه ببناء مضافة لهم،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن الوسائل المادية الضرورية لممارسة انشطة المضافة، كثيرة ومتعددة، وهي تبدأ من امتلاك القدرة على إيجاد حيز مكاني، يرتبط في الغالب، بمنزل الفرد وبيته، وتمتد هذه الوسائل لتشمل القدرة على توفير بعض الإثاث الضروري، من فراش ووسائد، وتوفير بعض التجهيزات الضرورية لجلوس الضيوف، ومكان للنوم، وتبقى المهمة الاكثر كلفة، هي توفير الطعام والمشروبات للضيوف التي يجب أن تقدم بشكل يومي كذلك، فان توفير مكان مناسب لمبيت الحيوانات التي ترافق الضيوف القادمين من أماكن بعيدة، يعد من المتطلبات المادية الملازمة لامتلاك المضافة، لقد كان يتم توفير هذا المكان في موقع قريب من المضافة، يتم فيه وضع هذه الحيوانات الى جانب الحيوانات التي يملكها مالك المضافة.

ويترافق مع الملكيات الكبيرة للاراضي الزراعية، إمتلاك أعداد كبيرة من الحيوانات المنتجة، وتتيح هذه الملكيات الكبيرة من الاراضي المحافظة على هذه الاعداد من الحيوانات، بل وزيادة أعدادها، لقد تركزت انواع هذه الحيوانات في الابقار والاغنام بشكل اساسي، والجمال بشكل أقل، وتوفر هذه الأنواع من الحيوانات مصدرا للدخل لمالك المضافة، وهي تتيح له كميات من الغذاء، ومن المواد الاولية، كالصوف اللازم لتوفير الاثاث الضروري للمضافة، ولتوفير الطعام بشكل مستمر في المضافة، كذلك، فقد كان من الشائع تربية بعض أنواع الطيور كالحمام والدجاج، لما توفره من مصادر للطعام لمالك المضافة وعائلته، ويمكن تقديمها لمرتادي المضافات.

ويربط بعض افراد مجتمع الدراسة بين وجود الملكيات الكبيرة من الاراضي، وامتلاك الاعداد الكبيرة من الحيوانات، وبين امكانية امتلاك المضافة، ويقول أحد الأشخاص الذي يعمل معلما، ومارس أنشطة سياسية تم اعتقاله على أثرها «ان المضافات انبثقت من النظام (الاقطاعي)، حيث كانت المضافة تترافق مع وجود ملكيات كبيرة من الاراضي، وتترافق المضافات، أيضا مع امتلاك أعداد كبيرة من الاغنام»، ويؤكد الجانب المتعلق بالملكيات الكبيرة للأراضي، والأعداد الكبيرة من الحيوانات، أيضا الحاج عبداللطيف طبيشات (٧٠ عاما) من منطقة البارحة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما رئيس تحرير إحدى الصحف ذات الميول الإسلامية والمتنفذين داخل مضافة عشيرته، فيعتبر أن «المضافة تعد مظهرا من مظاهر المجتمع الزراعي، الذي توارثها بدوره عن المجتمع البدوي» وتتضمن هذه المقولة ربطا بين المجتمع الزراعي من حيث التنظيم الإجتماعي القائم على العلاقات القرابية، حيث العشيرة هي الوحدة السائدة، والمجتمع البدوي حيث التنظيم الاجتماعي يقوم على وحدات العشيرة والقبيلة، بالرغم من إختلاف التنظيم الإقتصادي لدى المجتمعين.

يمكن الجدال، أنه في ظل اقتصاد ذات نشاط واحد مهيمن، يعتمد فيه بقاء الفرد على النشاطات الزراعية بشكل رئيس، فإن عدم تمكن الفرد من الوصول إلى هذه النشاطات، قد يخلق له مصاعب في تأمين غذائه وبقائه، وبالنظر الى وجود ملكيات كبيرة من الاراضي الزراعية لدى بعض الافراد، مع ما يعني ذلك من تركز مخرجات الانتاج بأيدي عدد غير كبير من الافراد، فانه يمكن القول أن المضافات المملوكة من قبل هؤلاء المقتدرين، لعبت دورا كوسيلة لاعادة توزيع مخرجات الانتاج، وبالتالي، فقد كانت توفر ملاذا لبعض الافراد، ممن لا يستطيعون تأمين قوتهم في بعض الايام، وينتمي هؤلاء في الغالب الى وحدات قرابية أخرى، لا ينتمي اليها مالك المضافة، ولا تمتلك حيازات زراعية كبيرة. لقد اعتادت المضافة تأمين الغذاء والمأوى لمن يلتجأ اليها، ويقول بعض أفراد الدراسة أنهم كانوا يمضون وفي بعض الأحيان، عدة أيام في المضافة، وأنهم كانوا يحصلون على الطعام بشكل مستمر من المضافات.

وتؤكد الروايات الشفهية على الدور الذي مارسته مدينة إربد، كمركز لتسويق الابقار والأغنام، للعديد من الراغبين في البيع والشراء، لقد اعتاد الناس القاطنين في المناطق المحيطة بالمدينة القدوم إليها من أجل بيع بعض حيواناتهم وشراء بعض الحاجيات التي يحتاجونها في حياتهم اليومية، وأثناء قدومهم إلى إربد، التي أعتادوا الوصول إليها في المساء، كانوا يحتاجون أماكن يستقرون بها، إضافة الى أماكن يأمنون بها على حيواناتهم، لحين طلوع الصباح، حيث يكون بإمكانهم التوجه إلى «سوق الحلال» ويذكر أحد كبار السن من أحد العشائر متوسطة الحجم في البارحة، وممن يملك مساحات من الاراضي في مناطق مختلفة من إربد، والذي يشارك بحماس في أنشطة مضافة وحدته القرابية، أن

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المضافات التي كانت في قرية البارحة، كانت تستقبل الفلاحين من القرى المجاورة، الذين يجلبون حيواناتهم لبيعها في سوق إربد وذلك يومي الأحد والخميس من كل إسبوع، وفيما بعد تم تبديل يوم الأحد بيوم الإثنين مراعاة ليوم العطلة عند المسيحيين، وهو يؤكد أنه كان هناك حوالي ٥٠٠ ضيف يرتادون المضافات في البارحة في الليالي التي تسبق أيام الاثنين والخميس، إن المضافات كانت الملاذ الملائم لهؤلاء في جميع الأحوال، لقد اعتاد مالك المضافة أن يوفر أماكن خاصة للحيوانات التي تصاحب الضيف، إضافة إلى توفيره للغذاء الذي تحتاجه هذه الحيوانات.

إن سيادة أسلوب الزراعة الموسمية، لم يسمح كثيرا ببروز مرافق ونشاطات خدمية من قبيل الفنادق، كذلك، فان تمحور النشاط الاقتصادي حول الارض الزراعية، يقود الى الافتراض، بان امكانية التنقل والحركة للافراد تصبح عسيرة، ومقيدة، لقد قاد ارتباط الفرد بالارض الزراعية الى عدم امكانية تنقله كثيرا، كذلك، فان عدم وجود مرافق خدمية توفر المأوى والطعام للمسافر، لم يكن يشجع كثيرا على التنقل، ويرتبط بالظاهرة السابقة، عدم وجود وسائل سريعة وناجعة للتنقل والحركة، لقد اعتمد الافراد في تنقلاتهم بشكل أساسي على الحيوانات، وخصوصا الخيل والحمير، كذلك، فان عدم وجود شبكة مواصلات ناجعة لم يكن يشجع كثيرا على الحركة والتنقل، اضافة الى أن الطرق الطويلة لم تكن توفر درجة كبيرة من الامان لسالكيها، بالنظر الى عدم وجود سلطة كبيرة لاجهزة الامن المرتبطة بالدولة.

لقد قادت هذه العوامل المرتبطة بحركة الافراد الى نتائج مختلفة، أن التنقل المحدود للافراد من منطقة لاخرى ، لبعض الاسباب، كان يتم استيعابه بواسطة مرافق صغيرة، وغير مكلفة، فكانت المضافات افضل تجسيد لهذه المرافق، كذلك، فان الاعتماد على الحيوانات في التنقل، تطلب وجود أماكن تستطيع توفير المأوى لهذه الحيوانات في حالة التنقل، وقد كانت المضافات توفر دائما المأوى والغذاء لهذه الحيوانات.

ويمكن النظر الى المضافات على أنها أماكن ضيافة تتوفر فيها درجة كبيرة من الامان، لمن هم في سفر وتنقل، ان ارتباط المضافة بمن هو في مكانة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اجتماعية متميزة، وعلى درجة كبيرة من التنفذ والقوة، يمكن أن يعطي احساسا كبيرا بالامن للمسافر، كذلك، فان ارتباط المضافة الى حد ما، بوحدات قرابية معينة، يعطي الاحساس للشخص المسافر بوجود مصدر للحماية له، في ظل غياب مؤسسات الحماية التابعة للدولة، أو في ظل تواجدها الضعيف.

إن مالكي المضافات لم يعتادوا فتح أبواب مضافاتهم لفئة دون أخرى، ويقول البعض أن أي شخص مسافر كان يعرف وقبل سفره عن المضافة التي سيلجأ للمبيت فيها، كذلك، فإن مالكي المضافات يرون أن من المعيب سؤال الشخص عن هويته عند دخوله، ويستشهد بعضهم بمثل «بدوي» أنه من المعيب سؤال الشخص عن هدفه قبل ثلاثة أيام من وجوده في المضافة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ب - العوامل السياسية

لقد ترافق العامل الاقتصادي المتمثل في سيادة النشاطات الزراعية، المعتمدة على الزراعة الموسمية، بالنظر الى عدم وجود تقنيات للري، ترافق مع عامل سياسي يعد أيضا مواتيا لبروز المضافات، ويقصد بالعامل السياسي هنا، ذلك المتعلق بتواجد الدولة، من حيث مؤسساتها وانشطتها.

وترى بعض الدراسات، بأنه في ظل النظام الامبراطوري، كما في حالة الدولة العثمانية، فإن العلاقة بين المركز والمحيط تتسم بالضعف، إذا لم تستطع الدولة امتلاك الطاقة والقوة اللازمتين لتوفير الوسائل المادية، التي تتيح لها تواجدا دائما وملموسا في مختلف أجزاء هذا المحيط الشاسع، كذلك، فإن هذا الإتساع يثقل المركز (شتريبر ١٩٨٢)، ويصح القول بأنه، وفي الحالة العثمانية، فقد كان ثمة تذبذب كبير خضعت له العلاقة بين المركز والمناطق المحيطة، خلال الفترات التاريخية التي ساد خلالها النظام الامبراطوري العثماني.

وتجد الفكرة السابقة أفضل تجسيد لها في الغيابات المتعددة لجهاز الدولة العثمانية في منطقة الدراسة، لقد غاب عن المدينة الكثير من المؤسسات الحكومية، وقد إنحصر وجود الدولة في ثلاث مؤسسات، هي مقر للحاكم الاداري، ودائرة لتسجيل الاراضي، واحدى المحاكم، وقد اضطر هذا الوضع بعض الاشخاص

للتوجه الى منطقة الدراسة، قادمين من مناطق محيطة لإنجاز بعض المعاملات الضرورية.

افتقرت مدينة إربد ولفترات طويلة الى تواجد قوي الى مؤسسات مدنية منبثقة من جهاز الدولة، ولم تتمتع المدينة بوجود هذه المؤسسات، بالنظر الى التقسيمات الادارية العثمانية التي أبقت وضع المدينة تابعة لولاية دمشق حتى العام ١٨٥١، حين قررت الحكومة العثمانية تأليف وحدة ادارية باسم (سنجق أو قضاء) (الخطبا ١٩٨٩: ١٠)، وتمتد المنطقة التي يشملها هذا القضاء ما بين نهر اليرموك شمالا، ونهر الزرقا جنوبا، وقد عين لهذا السنجق الذي مركزه مدينة إربد، قائم مقام.

وتوحي الفكرة السابقة، بامكانية القول أن وجود المضافة يعزى في جانب منه الى الدور الذي كان يمارسه مالك المضافة في حل النزاعات بين الأفراد أو المجموعات القرابية، إن كثيرا من النزاعات لم تكن تحل عن طريق محاكم الدولة، وقد كان من الشائع فض النزاعات المتعددة داخل المضافات، وبصورة مؤسسية تعتمد على العرف، وتتنوع أسباب وأشكال هذه الخلافات، فقد تقوم بسبب خلاف حول ادعاء الملكية على الارض، وقد تقوم بسبب قضايا متصلة بالعرض أو القتل، وفي معظم هذه الاحوال كانت المضافة قادرة على إيجاد صيغة ما من الاتفاقات والحلول النازعة لفتيل الخلاف.

لقد غابت عن المدينة أيضا الكثير من المؤسسات المدنية التي تلعب دورا في الحياة السياسية، فقد افتقرت المدينة في تلك الفترة الى بعض المؤسسات التي تستطيع توفير درجة ما من الترفيه، وبذلك، فقد كانت المضافة المكان الذي يمكن أن يوفر حدا معينا من بعض الانشطة التي يمكن أن تقوم بها مؤسسات أخرى.

ويتجسد العامل السياسي، في إستخدام مالكي المضافات، كواسطة للحكومة العثمانية تقوم من خلالهم بتقدير وتحصيل كمية الضرائب التي ينبغي على الأفراد دفعها للحكومة العثمانية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كذلك، يتجسد العامل السياسي أيضا في إرتباط المضافة بالزعامة وفي الغالب، فان المضافة ارتبطت بمن هو في منصب المختار، وتقيم الغالبية من أعضاء مجتمع الدراسة من المتقدمين بالسن، ربطا بين المضافات وبين المخاتير، وعموما فقد اعتاد المختار امتلاك المضافة، بالاعتماد على ميزات اقتصادية، تتمثل في امتلاكه بعض الحيازات، وأعداد كبيرة من الحيوانات وفيما يتعلق بتعيين المختار، فإن الحكومة العثمانية كانت تلعب دورا في ذلك، فمنصب المختارية لا يتم الحصول عليه بعيدا عن الدولة وإنما من خلالها، حيث تقوم الحكومة العثمانية باختيار شخص هو من مالكي الاراضي والحيوانات، ويتمتع بموقع داخل الوحدة القرابية كذلك، فقد كان يراعى في تعيين المختار أن يخدم الحي بأكمله

يمكن ربط الفكرة السابقة بالروايات الشفهية التي ذكرها بعض المتقدمين في السن من مالكي المضافات، بان مضافة ابائهم اعتادت استقبال موظف منتدب من قبل الحكومة العثمانية، يقوم بزيارة المضافة من أجل تحصيل الضرائب المتوجبة على الافراد والجماعات التي تقطن في نفس الحي المحيط بالمضافة، فقد ذكر الحاج محمد عطية البصول، بانه شاهد مرارا موظفا تابعا للحكومة العثمانية في مضافة أبيه، وفي العادة، كان هذا الموظف يقوم بتقدير قيمة الضرائب المتوجبة على الافراد والجماعات، ومن ثم تحصيلها، وكان مالك المضافة يقوم في الغالب، بمساعدة هذا الموظف في تقدير هذه القيمة، حيث يقوم باصطحابه الى الاراضي الزراعية، أو الى أماكن تجميع المحاصيل الزراعية، أما فيما يتعلق بالضريبة على الثروة الحيوانية، فقد كان مالك المضافة، يقوم بمساعدة الموظف المنتدب في تقدير أعداد الحيوانات التي بحوزة الافراد،

ويقيم بعض أعضاء مجتمع الدراسة، وخصوصا من المتعلمين، ربطا بين المضافات والزعامة داخل المجتمع الزراعي، وتجسد فكرة السيد حسن التل شكلا لهذا الربط، ويعتبر السيد التل « أن شيخ القبيلة، كان يمثل أحد أشكال الزعامة التقليدية، حيث كان بمقدوره فرض ارادته على بقية افراد الحمولة» ويربط الكثيرون أيضا فكرة الزعامة، بظاهرة الكرم واستقبال الضيف، ان السيد جاد الله الخصاونه يرى أن المضافة تم اشتقاق اسمها من الفعل (ضاف) بمعنى زار، أما السيد حسن التل فيرى في المضافة « تجسيدا لصفة الكرم التي يلح عليها العرب

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كثيرا، والتي يفترض أن تتوفر في الزعيم»

ج - العوامل الإجتماعية

يمكن اختزال العوامل الاجتماعية المشجعة على بروز المضافات الى نوعين؛ الاول يتعلق بطبيعة البناء الاجتماعي السائد في مطلع القرن، أما الثاني فهو مرتبط بمجموعة الأنشطة التي تمت تأديتها من خلال المضافة في تلك الفترة.

لقد تميز البناء الاجتماعي بوجود مراتبية تعتمد على ملكية الارض الزراعية، وامتلاك أعداد كبيرة من الحيوانات. وقد سمحت هذه المراتبية بسيادة علاقات سلطة داخل البناء الاجتماعي. ان الزعامة في تلك الفترة، ارتبطت بمن يملك الارض، والحيوانات. ويمكن التعامل مع المضافات في تلك الفترة، بأنها تجسيد لعلاقات السلطة داخل البناء الاجتماعي، أكثر منها تجسيد لعلاقات المساواة. لقد ارتبطت أسماء المضافات، في تلك الفترة، باسماء أفراد، أكثر منها بأسماء وحدات قرابية، وفي منطقة البارحة هنالك عدد من المضافات، التي لا زال بعضها مرتبطا باسم شخص معين، أكثر من ارتباطه باسم وحدته القرابية.

وتأكيدا لمبدأ المراتبية، فان النظرة الاجتماعية السائدة في تلك الفترة حول أهمية امتلاك مضافة، تقوم على مبدأ التمييز بين من يمتلك مضافة ما، ومن لا يمتلك، وتتيح ملكية المضافة للفرد ولاقاربه درجة من الهيبة داخل البناء الاجتماعي. أما أولئك الذين لا يمتلكون مضافة، فان هناك نظرة من الازدراء، قد تحيط بهم، وعلى سبيل الازدراء، فان الكلمة التي كانت تستخدم لوصف من لا يملكون مضافة، هي أنهم «فلوتية».

ويمكن فهم التعبير السابق «فلوتية» من خلال العناصر التي تتكون منها الهرمية الاجتماعية في تلك الفترة. إن الفئة الأقل عددا والاكثر قوة ونفوذا هي فئة مالكي الأراضي الزراعية، ومالكي الاعداد الكبيرة من الحيوانات، أما الفئة الثانية فقد كانت تلك التي تستأجر بعض الأراضي من الفئة الأولى وتقوم بدفع حصة من الانتاج لمالك الأرض، في حين أن هناك فئة ثالثة لاتقوم باستئجار الاراضي، وانما تعتمد على قوة عملها عند مالكي الأراضي. وتعمل الفئة الثالثة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

في الغالب في أعمال الحراثة من خلال استخدام الحيوانات. ويشير التعبير «الفلوتية» الى الفئة الثالثة، التي لا ترتبط في الغالب بوحدات قرابية كبيرة ومالكة لمساحات شاسعة من الأراضي، ويتضمن التعبير معاني عدم الانتماء ومعاني التحلل من التقيد، وهنا يشير التعبير الى معاني عدم التقيد بوحدات قرابية.

ويذكر أعضاء مجتمع الدراسة أن المضافات كانت مكانا لالتقاء الناس، ليس فقط ممن ينتمون لنفس الوحدة القرابية، وانما لمن ينتمون لوحدات قرابية مختلفة، وأحيانا من مناطق بعيدة جغرافيا، كذلك، فقد وفرت المضافات أماكن آمنة لمن يفتقد الحماية أثناء تواجده في منطقة بعيدة عن منطقة تواجد وحدته القرابية، وقد ساهمت المضافات أيضا في تلبية احتياجات الافراد الترفيهية، فهناك الكثير من الالعاب المسلية التي كانت تمارس داخل المضافة.

وكان بناء المضافة في الماضي، لا يزيد في معظم الحالات عن غرفة واحدة واسعة، وكانت هذه الغرفة تجاور الغرف الاخرى التي تشغلها أسرة المالك وهي بذلك تكون قريبة من أسرة المالك، التي كان عليها توفير احتياجات رواد المضافة، ومالكها، من طعام وشراب، وكذلك، القيام بعمليات التنظيف والترتيب للمضافة، وأثاثها.

ويمكن ايراد مضافة الحاج عطية البصول في حي البارحة كمثال على نمط المضافات التي كانت سائدة في مطلع القرن (شكل رقم ١). لقد بقي البيت مستغلا حتى قيام بلدية إربد قبل أكثر من عشرة أعوام بمصادرة البناء وإقامة متحف للتراث الشعبي فيه، ويعود بناء البيت الى مطلع القرن، وذكر مالكه أنه بني في العام ١٩٠٩ تقريبا، ومن الضروري الاشارة الى تمت بعض الاضافات إلى بناء البيت من قبل بلدية إربد، إلا أنه يمكن وضع مخطط لبناء البيت في الماضي وقبل إجراء أي إضافات عليه بالاعتماد على الرواية الشفهية لمالك البيت في الماضي الحاج محمد عطية البصول.

يتكون بناء البيت من عدد من الغرف، إضافة الى سور مستطيل أمامها، ولا يحوي السور أي شبابيك أو فتحات، ويبلغ عدد الغرف سبعا، وهي مرتبة بشكل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

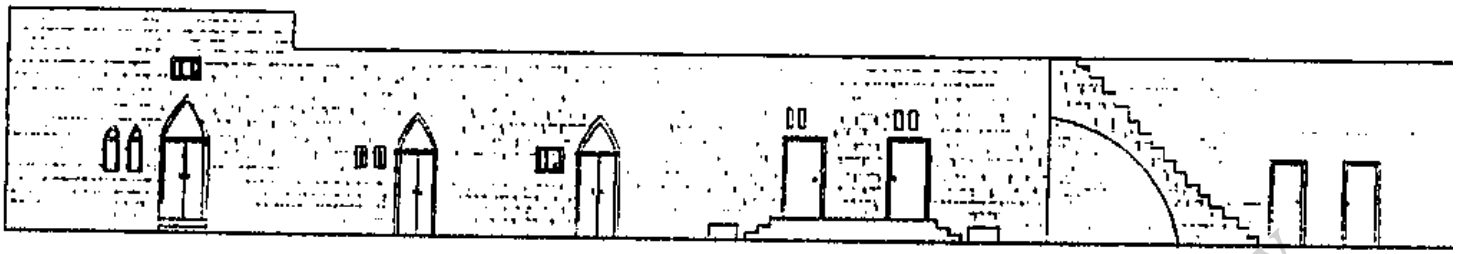

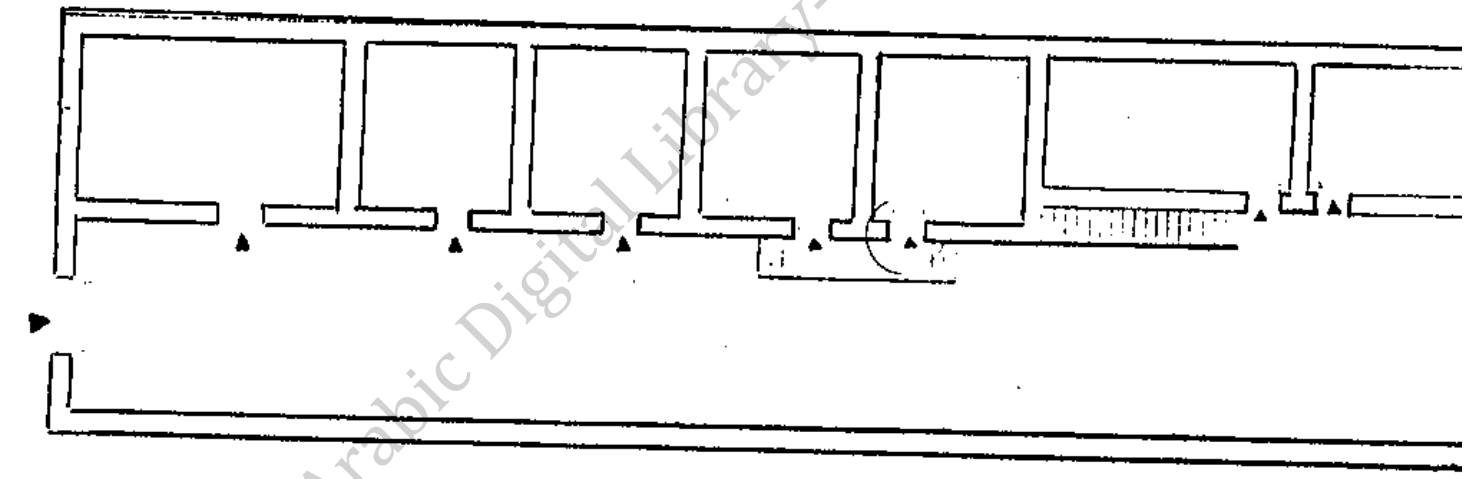

- مسقط علوي مع واجهة لإحدى المضافات القديمة في منطقة البارحة (مضافة بصول)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أفقي، وتشكل صفا واحدا، وتشغل المضافة الغرفة الاولى القريبة من المدخل، ويبلغ طولها حوالي سبعة أمتار، في حين يبلغ عرضها حوالي ستة أمتار، وهي مبنية من الحجارة والطين، وعلى نمط «العقود» القديمة، حيث توضع كميات كبيرة من الحجارة والطين في السقف، وتضم هذه الغرفة ثلاث شبابيك، اثنين من جهة الجنوب وهما متلاصقان، وثالث من جهة الغرب، كذلك، تحوي جدران الغرفة على بعض الفتحات «الطاقات»، يبلغ عددها إثنتان توضع فيها بعض الأواني.

وداخل غرفة المضافة كانت هناك حفرة في وسطها يبلغ مساحتها حوالي ١ x ١م، وهي تستخدم لوضع أدوات صناعة القهوة وتوزيعها، وحيث يوضع في هذه الحفرة بعض الحطب من أجل إستمرارية النيران في المضافة، لصناعة القهوة اضافة لتدفئة المضافة في أيام الشتاء، وداخل المضافة وعلى طول جانبيها من جهتي الشرق والغرب كانت هناك مساحتان مرتفعتان بمقدار متر واحد عن الارض، ويبلغ عرضهما حوالي ٨٠ سم، ما أرضية المضافة، فقد تم رصفها بالحجارة الزرقاء ودون وضع أي مواد عليها، وانما كان هناك اعتماد على اختيار الحجارة الزرقاء الناعمة.

ويتكون الاثاث الذي كانت غرفة المضافة تحويه من بعض الفراش الذي يوضع على جوانب المضافة وبشكل ملاصق لجدرانها، بالإضافة الى بعض الوسائد الموضوعة على الفراش، وكان مالك المضافة يجلس في الغالب بجانب الحفرة التي توضع بها دلال القهوة، في حين يجلس الزوار على الفراش الملاصق للجدران، أما في الحالات التي تشهد بها غرفة المضافة إزدحاما، فقد كان بعض الأشخاص يجلسون على المساحتين المرتفعتين على جانبي المضافة، وينتمي هؤلاء الأشخاص الى الوحدة القرابية التي ينتسب إليها مالك المضافة، في حين تعطى الاولوية في الجلوس على الفراش الى الضيوف القادمين من مناطق بعيدة.

والى جانب غرفة المضافة، هناك غرفة واسعة مشابهة ولكن دون الحفرة التي في الوسط ودون الحواف المرتفعة على جانبي الغرفة، ويبلغ حجم الغرفة تقريبا نفس حجم غرفة المضافة، وهي ذات شباك واحد الى جهة الجنوب، أما من الجهات الأخرى فإن من غير الممكن عمل شبابيك بالنظر لاتصال الغرف ببعضها البعض، وأفاد الحاج محمد عطية أن هذه الغرفة كان يقبع بها جده وجدته في

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الماضي، وكانت خاصة بهما.

أما الغرفة الثالثة ضمن نفس الصف، فقد كانت تستخدم كمكان لايواء الجمال التي يملكها الحاج عطية، اضافة الى إحتوائها على بعض «الكوايز» التي هي أواني واسعة يتم تستخدم لتخزين الحبوب للقاطنين في البيت. ويشير الحاج عطية الى أن أبيه كان يملك سبعة جمال، وأن هذه الجمال كانت تربط في الغرفة الثالثة القريبة من المضافة.

وهناك أيضا غرفتان واسعتان تتكونان من طابقين، تستخدمان بشكل أساسي للنوم، للجلوس أثناء النهار، ويطلق على هاتين الغرفتين أسم «عقدتين»، وكان يقطنهما شقيق الحاج عطية البصول، وابن عمه، اضافة الى زوجاتهم، وأبنائهم.

ويطلق على الغرفة السادسة وهي مرتفعة عن الارض نسبيا اسم «بيت العيلة»، وهي بمثابة مستودع تبلغ مساحته حوالي ١٢ x ٦ م، وكان يستخدم كحيز يحوي بعض الكوايز، التي تستخدم لحفظ بعض المواد الغذائية مثل الجميد والسمن والجبن، وكانت تستخدم ايضا للقيام بأعمال تحضير الطعام لقاطني البيت ولزوار المضافة.

وتستخدم الغرفة السابعة والتي يبلغ طولها حوالي ٨ أمتار كاماكن لايواء الحيوانات التي يملكها الحاج عطية، والتي تشتمل على ثمانية خيول وأربعة عشر حمارا، وعدد من الابقار «الغدان». ويطلق على هذه الغرفة «تبان» ويخزن فيها أيضا التبن الذي تعيش عليه الحيوانات التي تستخدم من قبل قاطني البيت في أعمال الزراعة والتنقل، وتستخدم هذه الغرفة ايضا لايواء الحيوانات التي كانت تفد مع القادمين من مناطق بعيدة، ويختارون هذه المضافة للمبيت فيها، كذلك كانت هذه الغرفة تستخدم من أجل مبيت الحراثين الذين كان يستخدمهم الحاج عطية البصول في الاعمال الزراعية.

ويضم البيت الذي يحوي المضافة مساحة من الارض أمام الغرف وعلى طول صف الغرف، ويبلغ عرض هذه المساحة التي تفصل بين الغرف وبين السور حوالي ٤ أمتار، وهي تشتمل على ٣ آبار للمياه كان القاطنين في المنزل يستخدمونها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

للشرب ولسقاية الحيوانات التي يستخدمونها، وتلك التي تفد مع الغرباء القادمين من مناطق خارج مدينة إربد.

ويلاحظ أن غرفة المضافة تشغل المكان الأكثر قربا من مدخل البيت، وهي تشغل الغرفة الأكثر قربا من الطريق الذي يؤدي الى البيت، إضافة إلى أنها تكاد تكون مفصولة عن معظم المساحات داخل البيت، حيث يكون من الصعب على رواد المضافة ملاحظة ما يجري من انشطة داخل البيت والحوش اثناء تواجدهم في المضافة.

٣ ـ الأنشطة التي مورست عبر المضافات في الماضي

قد يكون من المشروع الانطلاق من مقولة أولية، والقول أن كثيرا من النشاطات التي مورست عبر المضافات كانت تتمحور حول ثنائية العلاقة، التي تربط بين« الأنا» و«الآخر»، أو «الأنا» و«الآخرين» ضمن الشروط التاريخية التي حكمت هذه العلاقة في فترة تاريخية محددة عاشها مجتمع مدينة اربد، فمعظم النشاطات التي مورست داخل المضافة، كانت تعبر عن علاقة مالك المضافة، الذي هو فرد متميز اقتصاديا واجتماعيا، مع الآخر، الذي هو قادم من منطقة بعيدة نسبيا، ومع الزائرين الذين يشاركونه الانتماء لوحدته القرابية، أو زائرين من وحدات قرابية مختلفة يشاركونه المنطقة التي يسكنها، وأحيانا، يكون «الآخر» موظفا تستخدمه الحكومة العثمانية في مهام معينة في منطقة إربد أو المناطق القريبة منها.

وبالنسبة للكثيرين من روادها، الذين تختلف فئاتهم العمرية وتتباين مستوياتهم التعليمية والاقتصادية، فأن المضافة حاليا ترتبط بفكرة الضيافة، وإن كان يمكن ملاحظة هذا الربط بشكل بارز لدى كبار السن وغير المتعلمين، وترتبط تسمية ال «مضافة» في أذهان غالبية الناس بالفعل الماضي «استضاف» في اللغة العربية الكلاسيكية، وهم وبينما يحققون هذا الربط، فانما يعتمدون على النشاط الرئيس الذي كان يمارس داخل المضافة (أي استضافة الآخرين، مع ما يتبع ذلك من التزامات وواجبات تفرضها العلاقة التي تنشأ بين هذا الضيف ومضيفه المقيم، والتي ينبغي أن توفر للضيف القادم)، فثمة ربط رئيسي وجماعي بين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذا النشاط والتسمية، أن السؤال عن الانشطة التي كانت تؤديها المضافة، تدفع بالشخص المبحوث الى أن يبحث وبشكل فوري في الجذور اللغوية لمصطلح مضافة.

إن الضيافة تتعلق هنا بشكل أساسي بمن هو قادم من منطقة أخرى بعيدة نسبيا عن مكان المضافة بحيث لا يكون بإمكان هذا القادم العودة الى مكان انطلاقه في نفس اليوم الذي قدم فيه، وبالتالي فان الحديث يكون هنا عن مضافة بامكانها أن توفر لهذا القادم نقطة يأمن بها على نفسه، ويستطيع أن يجد فيها الاستقبال الحسن بما يشتمل عليه من غذاء ومنام، وكذلك توفير الغذاء والمأوى لوسيلة الانتقال التي كانت في الغالب تتجسد في الحصان وأحيانا الحمار.

ترتبط المضافات بشكل عام بالانشطة التي يمارسها الرجل، وبالمكانة التي يتمتع بها إقتصاديا وإجتماعيا، وتؤكد الروايات الشفهية التي يذكرها بعض كبار السن، ارتباط المضافات بالرجل ونشاطاته المختلفة، فقد اعتادت المضافات في الماضي، أن تستضيف الرجال فقط، ولم يكن للنساء أي نشاط يذكر داخل هذه المضافات، وقد اقتصر عمل النساء داخل المضافة على بعض الامور المتعلقة بنظافة المضافة، وتجهيز الطعام لروادها، وبالنظر لارتباط المضافة بمالك فرد، فان النساء اللواتي كن الاكثر قربا للمضافة من زوجة، أو قريبات هذا المالك كذلك، فان التصاق المضافة ببيت الزعيم أو الشيخ كان يعزز من الدور الهامشي الذي يمكن للمرأة أن تلعبه على صعيد المضافة، ويروي الحاج محمد عطية البصول، انه وفي كثير من الليالي كان يأتي الى المضافة بعض «الخيالة»، وأنه في وقت سريع جدا، كانت النسوة يقمن بتحضير الطعام للضيوف، وهو يقول أن عمل بعض النساء كان يتركز في تلك الفترة على خدمة المضافة، والعمل بها.

أما في الحالات التي كانت تلجأ فيها بعض النسوة للمختار أو الزعيم، ليقوم بتقديم مساعدة ما لها، فقد كان العرف السائد، هو انتظار من تطلب المساعدة أو المشورة في بيت الزعيم نفسه، حيث تقوم زوجة الزعيم أو احدى قريباته بالمناداة عليه، والطلب اليه الخروج الى احدى الغرف المجاورة للمضافة، ومن ثم مناقشة مشكلتها بعيدا عن المضافة، وفي جميع الاحوال، لم يكن من المعتاد دخول المرأة للمضافة، حيث يتواجد في العادة ضيوف كثر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد اعتادت المضافات في الماضي فتح أبوابها لجميع الفئات العمرية تقريبا، أن استقبال« الآخر» القادم يمثل قيمة تكاد تكون عامة في أوساط الناس، وحسن استقباله يكادان يكون مسؤولية ينبغي أن يتحملها أهل المنطقة جميعا، وبالنظر الى أن النشاط الرئيس للمضافة في الماضي، كان استقبال الغرباء القادمين من مناطق بعيدة عن مدينة اربد نسبيا، فانه يمكن القول، أن المضافة كانت مكانا يرتاده من هم فوق سن الخامسة عشرة، والذين يطلق عليهم من قبل مجتمع الدراسة «الرجال»، وجنبا الى جنب مع استقبال الغرباء، فان المضافة كانت تستقبل أعضاء الوحدة القرابية التي يتبعها مالك المضافة، وأبناء المنطقة التي يسكنها، وقد كان هؤلاء يتكونون من فئات عمرية مختلفة، وقد يضمون في صفوفهم بعض كبار السن الذين لا يستطيعون التحرك لمسافات طويلة، بعكس «الغرباء» الذين يفدون من مناطق بعيدة وبالتالي، ينبغي أن يكونوا من فئات قادرة على الحركة والتنقل.

ويمكن تحديد الخصائص الإجتماعية لرواد المضافات في الماضي، من خلال القول، أن معظم هؤلاء الرواد كانوا من القادمين من مناطق خارج مدينة اربد، حيث كان مالك المضافة يستضيفهم، ويقدم لهم ما يحتاجونه من طعام ومبيت، لهم وللحيوانات التي يستخدمونها، أما العمل الذي كان ينخرط به معظم هؤلاء، فهو الزراعة والرعي في المناطق التي قدموا منها، ويطبق الامر كذلك، على ما يتعلق بعمل رواد المضافات من نفس الوحدة القرابية التي يتبعها مالك المضافة، أو من نفس المنطقة التي تقع المضافة بها، إن العمل الاساسي الذي كان يشغله هؤلاء هو الزراعة وتربية الحيوانات.

لقد كان تردد الفئات السابقة على المضافات، يتم بشكل يومي، وقد وصل الامر ببعض الزوار، أن كانوا يتناولون ثلاث وجبات من الطعام يوميا داخل المضافة، ويشير البعض من قبيل الحاج محمد عطية البصول الى أنه كان يتواجد في مضافة والده، وبشكل يومي، ما يزيد عن عشرين «من الغرباء» عدا عن أقاربه الذين كانوا يتواجدون من أجل استقبال هؤلاء «الغرباء».

وإضافة إلى استقبال من يسمون بـ«الغرباء»، فإن المضافة اعتادت أن تستضيف أشخاصا، قد يكونون من ضمن الوحدة القرابية التي ينتمي إليها مالك

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المضافة أو صاحبها، وقد تستضيف أشخاصا من وحدات قرابية مجاورة أو بعيدة، ولكن من نفس المنطقة، ويلتقي هؤلاء في الغالب في فترات معينة من اليوم، وفي أوقات محددة من السنة تبعا لطبيعة الدورة الزراعية، فالتجمع واللقاء في المضافة بالنسبة لابناء نفس الوحدة القرابية، او نفس المنطقة، يتركز في الغالب في الاوقات التي لا تمارس فيها نشاطات انتاجية رئيسية، والتي كانت في معظمها نشاطات زراعية، وبذا فان الفترة الممتدة من شهر سبتمبر وحتى شهر فبراير تعد اكثر الأوقات التي يعتاد فيها اعضاء الوحدة القرابية، وابناء نفس المنطقة التردد على المضافات، حيث فترة النهار تكون قصيرة ويتم فيها اداء بعض الاعمال البسيطة في حين يوفر الليل مساحة زمنية كبيرة يستطيعون فيها أن يقضوا كثيرا من وقتهم في لقاءات مع اقاربهم أو مع ابناء منطقتهم.

وفي الوقت الذي كانت المضافة توفر فيه مكانا للنوم بالدرجة الاولى بالنسبة للقادم من منطقة بعيدة أو بعيدة نسبيا، فانها تعد بالنسبة لابن الوحدة القرابية التي ينتمي اليها مالك المضافة مكانا للزيارة بالدرجة الاولى، وان كان هذا لا ينفي حقيقة أن البعض من ضمن نفس الوحدة القرابية او من سكان نفس المنطقة كان يمضي في المضافة اربعة وعشرين ساعة يوميا، حيث تؤكد الرواية الشفهية أن ثلاث وجبات من الغذاء كانت تقدم للزوار، ومنهم من كان يتناول الوجبات الثلاث، وبعد ذلك يتخذ مكانا ما له في المضافة ويقضي الليل حتى صباح اليوم التالي، وفي الغالب، فقد كان هؤلاء يمضون هذه الاوقات الطويلة في حال قدوم احد الأشخاص ذات السمعة والمكانة من مناطق خارج إربد، ويشير احد كبار السن من احد عشائر منطقة البارحة، الذي كان يملك والده مضافة، أنه وفي السابق كان يتواجد في المضافة وبشكل مستمر، عدد لا يقل عن عشرين شخصا من «الغرباء» عدا عن افراد «الحمولة»، الذين يتواجدون باستمرار ويساهمون في استقبال «الغرباء»

ثمة نوع من الحنين Nostalogia يسود نفس الراوي عندما يكون الحديث عن الطريقة التي اعتاد مالكو المضافات استقبال الغرباء بها، وبالتحديد فيما يتعلق بنوعية وكمية الطعام وسرعة تجهيزه والذي يقدم الى الضيف أو مجموعة الضيوف، ويتسائل أحد كبار السن، ممن كان والدهم يملك مضافة في منطقة البارحة، وما زال يملك هو مضافة خاصة به حتى الان، يتساءل - وبأسلوب

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

استنكاري - فيما اذا كان بالامكان تسمية المضافات الان بهكذا تسمية «اي هي مضافات اليوم مضافات»، ففي رأيه، فان المضافات في السابق هي الحقيقية، وأن لا مضافات حقيقية الان، وهو يبرر ذلك بقوله، «بأن سبق وأن زاره في مضافته مجموعة من «الخيالة» حوالي الساعة الثانية عشرة ليلا، وأنه في خلال فترة بسيطة جدا قامت النساء داخل المضافة واللواتي كن متفرغات للعمل في المضافة بتجهيز الطعام وتقديمه» أن هذه الامور وهذا الكرم لا يمكن أن نجده الان في المضافات الحالية»، وهو ينتقد عمل المضافات الحالية، لانها لم تعد تستقبل الغرباء، ولا تقدم الضيافة لهم.

إن تردد الناس كثيرا على مالك المضافة، وضرورة تأمين الطعام والقهوة، والعناية بالحيوانات التي كان يستخدمها بعض هؤلاءالقادمين من مناطق بعيدة، فرض ضرورة تخصيص عدد من الأفراد يقومون بخدمة المضافة، لقد قامت النساء بهذا الدور، حيث كان هناك تقسيم عمل بين النساء المتواجدات بالقرب من المضافة، سواء زوجة مالك المضافة أو نساء اشقائه، أو زوجات ابنائه ويقوم تقسيم العمل هذا على تفرغ أحد النساء للعمل في المضافة في يوم معين، ومن ثم عدم الذهاب الى الحقل لممارسة الانشطة الزراعية، أما في حال تزايد الأعباء لقدوم أكثر من ضيف في يوم واحد، وفي أوقات مختلفة، يحتاجون لتجهيز الطعام، فإنه تكون هناك مشاركة من قبل النساء الأخريات.

ويتذكر أحد كبار السن من منطقة البارحة، بعض النشاطات التي كانت تمارس من خلال المضافة في الماضي، ويقول أنه وفي حال حصول حفل زفاف عند أحد الوحدات القرابية في منطقة البارحة، فإن أهل العريس، ورغبة منهم في مساعدة مالكي المضافات في المنطقة على تحمل أعباء استقبال الضيوف، كانوا يقومون بإرسال منسف إلى كل المضافات المجاورة، التي تتبع وحدتهم القرابية والوحدات القرابية الأخرى، وبعدها كان مالكو المضافات يقومون بدعوة اقاربهم لتناول الطعام، وبعد الانتهاء من تناول الطعام، يقوم مالكو المضافات بإعادة الوعاء الذي أرسل به الطعام الى أهل العريس، بعد تعبئته بمادة الرز، أما في حال وفاة شخص من «العشيرة»، فان جميع اقارب المتوفي يقومون باحضار «البهار والدخان» أو السجائر الى المضافة التي تتبع قريبهم، وهو يقول بسخرية، ويستشهد بما يجري حاليا في بعض المضافات «أن الدخان كان يقدم رغم معارضة المتدينين» في

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

اشارة منه الى احد النواب الذي يقطن نفس المنطقة، ويتزعم مضافة فيها، حيث قام هذا النائب بتحريم تقديم الدخان في المضافة التي يرعاها.

لقد وفرت المضافة امكانية للقاء في وقت لم يكن بامكان الفرد أن يجد أماكن أخرى بديلة يستطيع من خلالها أن يحقق الاتصال مع الاخرين، فقد كان فتح البيت لاستقبال الزوار يتطلب نفقات، ليس بمقدور غالبية الناس توفيرها، وبالتالي فقد انحصرت القدرة على فتح البيوت للآخرين بعدد معين من الأفراد ممن يتمتعون بوضع إقتصادي متميز، أن تنوع الاحاديث التي كانت تجري داخل المضافة قد يتيح القدرة على إستنتاج حجم الامكانيات التي أتاحتها المضافات لروادها، فيما يتعلق بالاتصال بالاخرين، فوفقا لما تقوله الرواية الشفهية، فان النقاشات كانت متعددة بحيث تتسع لتشمل نشاطات شديدة العمومية والعلنية كالنشاطات الزراعية وتضيق لتشمل نشاطات شديدة الخصوصية والسرية من قبيل الاحاديث المتعلقة بالحياة الخاصة لبعض الافراد وشؤون الزوجة والبيت الداخلي.

وللتحديد، فانه يمكن القول انه وفي كثير من الاحيان شكل الحراثون، الذين كان يستخدمهم مالكو الحيازات الكبيرة من الأرض الزراعية للقيام ببعض النشاطات الزراعية، مصدرا خصبا للحديث داخل المضافة، ويعود ذلك الى أن هؤلاء الحراثين لا يتمتعون بمكانة اجتماعية مساوية لاعضاء الوحدة القرابية التي يعملون عندها، وهو الامر الذي لا يمنع من تناول الجوانب الخاصة والسرية في حياتهم بالسرد والتندر، ويقول الحاج محمد عطية البصول أن الحديث داخل المضافة كان يتناول موضوعات زراعية، وشؤون الخيل والغنم، اضافة الى أحاديث عن الحراثين الذين كانت تستخدمهم «العشيرة»، للقيام بأعباء العمل الزراعي من حراثة وزراعة وبذر وحصاد ونقل للمنتوجات.

إن طبيعة الحديث الذي كان يجري وطبيعة الاطراف المشتركة فيه، يمكن أن يعطيا ايحاء بأن كثيرا من معرفة أعضاء الوحدة القرابية التي تتبعها المضافة أو معرفة أعضاء الوحدات القرابية المختلفة القاطنة في اربد عن «الاخر» وعن العالم الخارجي كانت تتشكل من خلال العناصر والصور التي كان يتيحها اللقاء «بالآخر» الغريب الذي يزور المضافة، ففي مجتمع يعتمد على شبكة اتصالات ضعيفة وعلى تراث ينقل بالمشافهة وليس من خلال الكتابة، فان الاتصال الشفهي والشخصي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

يصبح الوسيلة الاكثر فعالية في الاتصال بالعالم الخارجي ومن ثم في تشكيل جزء كبير من المعرفة حوله، مع ما يعني ذلك من انتاج للصور والرموز والصور النمطية.

ولقد كان من شأن الوقت الدائم والطويل الذي تفتح المضافة خلاله أبوابها لزوارها، أن خلق مشكلة تتعلق في كيفية قضاء هذا الوقت، واضافة لعوامل أخرى تتعلق بعدم وجود أماكن عامة يرتادها الافراد انذاك، فان المضافة كانت تصمم بعض الالعاب والنشاطات ذات الطابع الترفيهي، والتي كانت تمارس في أوقات مختلفة من العام، وخصوصا في فصل الشتاء، حيث تمت الاشارة الى وقت الفراغ الطويل الذي يتيحه هذا الفصل، إن العابا محلية من قبيل «الصينية» كما يسمونها وكذلك «المنقلة» كانت تلقى حماسا كبيرا داخل المضافة، كما يؤكد الحاج محمد عطية البصول.

وتتكون الأدوات المستخدمة في «لعبة الصينية» من وعاء واسع مستدير يتم استخدامه في الغالب لتقديم الشاي والطعام عليه للضيوف، ومن عدد من الفناجين التي تستخدم في تقديم القهوة، إضافة الى أحد حجارة النرد أو الزهر، ويتحدد الفائز في «اللعبة» من خلال قدرته على معرفة، أي من الفناجين الذي يقبع حجر النرد تحته، أما «لعبة المنقلة» فتتكون أدواتها من قطعة خشبية تحوي ١٧ ثقبا، حيث يوضع في كل ثقب مجموعة من الحجارة، ويمارس اللعبة شخصان، وتعتمد اللعبة على مهارة الشخص في توزيع الحجارة داخل الثقوب ومن ثم تجميع أكبر عدد من الحجارة لديه.

كذلك فقد كان من الشائع أن تستضيف المضافة، ولايام طويلة، وأحيانا لاسابيع عديدة، من كان يسمى أنئذ «بالشاعر» الذي اعتاد ان يلقي الشعر، وأحيانا الغناء بمصاحبة آلة «الربابة»، والذي كان يلقى تكريما كبيرا من قبل صاحب المضافة ومن قبل الرواد، بل أن مجيء الشاعر كان يشكل، في كثير من الاحيان، مناسبة لالتقاء الكثيرين داخل المضافات، وفي الغالب فان الشاعر كان يفد من مناطق أخرى محاذية لمدينة اربد، وتحديدا بعض القرى المجاورة، ولم يكن هذا «الشاعر» يرتبط بعمل معين، بل أن العزف على آلة «الربابة» والغناء معها، هو عمله، أما قوته ومنامه فقد كان يتم تامينهما من خلال التردد على

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القرى والمناطق المختلفة، حيث يمكث في احدى المضافات، التي كان عليها توفير المأكل والمبيت لفترة يحددها الشاعر نفسه

ويمكن للباحث أن يلمس نوعا من الحنين في حديث مالكي المضافات وهم يتكلمون عن الشاعر والأجواء التي كان يخلقها أثناء اقامته ويقول السيد يوسف السليمان البصول، والذي يملك مضافة خاصة به، أن «الشاعر الدوقراني ما كان ينقطع عن المضافة» وينتسب هذا الشاعر الذي يملك صيتا لدى رواد المضافات، لبلدة «دوقرا»

ان تنقية العلاقات بين الافراد داخل نفس الوحدة القرابية أو بين الوحدات القرابية بعضها ببعض من أي أسباب للتوتر والخلاف، كانت من النشاطات الجوهرية التي اعتادت المضافة أن تشهدها في الماضي وتكاد الروايات الشفهية تجمع على قوة الدور الذي كان يمارس من خلال المضافة وعبرها، كمكان يجري فيه احتواء أي بوادر للخلاف قبل أن يتطور، والقدرة على معالجته في حال تفاقمه، لقد ارتبطت تسوية النزاعات بالشخص المتنفذ، الذي يملك مضافة، وكانت هذه النزاعات تسوى داخل المضافات، بل أن المكان الذي كان يتوجه اليه الشخص في حال حصول نزاع، هو المضافة، من أجل مقابلة مالك المضافة، والتمتع بحمايته

ان اسباب النزاع الذي كان ينشأ في السابق يتنوع ليشمل كثيرا من النشاطات التي اعتاد الفرد أو العائلة او الوحدة القرابية أن يمارسها أو ينخرط فيها، فثمة نزاعات يسمونها صغيرة من قبيل الخلافات بين مالك أرض وشخص يعمل عنده، أو بين مالك ارض ومستأجرها، وثمة خلافات أخرى أكبر بين وحدة قرابية وأخرى، حول تحديد حدود قطعة أرض أو سبب آخر، أو خلافات أكثر حدة، وهي التي ترتبط بوقوع حادثة قتل أو أعتداء، حيث تقوم المضافة في هذه الحالات بمحاولات لتسوية الخلافات واحتوائها، وهو الامر الذي كان يتحقق من خلال مالك المضافة الذي كان يتمتع في الغالب بمكانة اجتماعية متميزة، كانت تتيح له إمكانية التدخل في هكذا نزاعات

ويمكن القول إن مالكي المضافات اعتادوا الاحتفاظ بنوع من العلاقات والروابط مع الحكومة العثمانية في تلك الفترة، والتي كانت تتجسد بالعلاقة بين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المختار الذي هو مالك المضافة في الغالب، وبين القائم مقام العثماني وتتكرر الروايات من قبل بعض المتقدمين في السن عن بعض الزيارات المتكررة والمنتظمة التي كان يقوم بها المسؤول العثماني للمضافة، الذي كان يتم استقباله بحفاوة من خلال تقديم وجبة غداء متميزة له في المضافة.

كذلك فقد أبرزت الأحاديث الشفوية الأهمية التي كانت تتمتع بها المضافة كحلقة وصل تربط بين البيروقراط العثماني والتنظيمات الاجتماعية المحلية وتتيح له امكانية مراقبة النشاطات الاقتصادية أو الانتاجية التي تمارسها هذه التنظيمات الاجتماعية، فعمليات الإحصاء التي كانت تقوم بها الحكومة العثمانية لأعداد الماشية التي يملكها سكان المنطقة، كانت تتم انطلاقا من المضافة، حيث اعتاد الموظف العثماني المسؤول أن يفد إلى المضافة أولا، ثم يقوم - بمساعدة صاحب المضافة - بتعداد رؤوس الماشية، كذلك، فإن إحصاء أو تقدير كميات المنتوجات الزراعية، وبالتالي تحصيل الضرائب الضرورية، كانت تتم بالانطلاق من المضافة، ويقول السيد محمد عطية البصول (٧٠ عاما) أن مضافة أبيه كانت تستضيف الموظف العثماني «تحصيل دار» الذي كان يقوم في فترات مختلفة بالقدوم إلى إربد لتحصيل الضرائب، وقبلها القيام بعمليات الاحصاء لتقدير قيمة الضريبة المتوجبة على الافراد.

إن الكمية المقدرة التي يسجلها الموظف العثماني، كثيرا ما كانت تخضع لاعتبارات تحكمها أمور من قبيل الطريقة التي تم استقبالها بها داخل المضافة، وعلاقته مع مالك المضافة، ولقد كان من نتيجة هذا الامر أن أتيحت لمالك المضافة امكانية ممارسة تأثير أكبر داخل الوحدة القرابية أو على مستوى المنطقة باعتباره قادرا على التأثير في حجم الضريبة التي سيدفعها الفرد للحكومة العثمانية، بالنظر الى علاقته بالموظف العثماني المسؤول.

٤ - الخلاصة:

لعب التاريخ الشفوي الدور الأساسي في صوغ الجانب التاريخي المتعلق بوضع المضافات في بداية القرن، وقد تم الاعتماد على المعلومات التي تقدمها ذاكرة بعض المسنين، فيما يتعلق بإعادة تشكيل بعض ملامح البناء الاجتماعي في

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

مطلع القرن، من حيث التدرج الهرمي ويلاحظ أن العلاقة مع الأرض من حيث الملكية أو العمل بها تلعب الدور الاكبر في تحديد المكانة الاجتماعية للفرد في المنطقة التي يسكنها،

لقد وجدت المضافات في ظل هذه الهرمية، وقد ساعدت مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية على عمل المضافات وشجعت وجودها، ويتمثل العامل السياسي في الهامش الذي كانت تتيحه الدولة العثمانية لزعيم المضافة في ممارسة بعض الانشطة على صعيد وحدته القرابية وعلى صعيد المنطقة التي يقطنها، إضافة لاستخدام الحكومة العثمانية المضافة كمكان لقدوم الموظف العثماني المسؤول عن تقدير الضرائب من السكان وجبايتها، أما العامل الاقتصادي فيتجسد في سيادة الانشطة التي تعتمد على الزراعة الموسمية، وعدم وجود مرافق خدمية تستطيع تقديم المأوى والطعام للمسافر، فلعبت المضافة هذا الدور في الماضي من خلال زعيمها، ويتلخص العامل الاجتماعي في الامكانيات التي كان يتيحها وجود المضافة في الماضي لمن هو في موقع الزعيم في تأكيد زعامته وإبرازها،

وعلى صعيد الأنشطة التي تمت ممارستها في مطلع القرن، فقد تنوعت وتعددت، إن النشاط الأساسي الذي يرتبط بالمضافة هو الضيافة، وخصوصا الضيف القادم من منطقة بعيدة عن المكان الذي توجد به المضافة، وإن كانت فكرة الضيافة تمتد لتشمل أعضاء الوحدة القرابية التي ينتمي إليها مالك المضافة نفسه، وبعض أعضاء الوحدات القرابية التي تقطن قريبا من المضافة،

ويتلخص الاستنتاج الجوهري، في فكرة أن المضافة في بداية هذا القرن، كانت تعود لمالك فرد، كان عليه توفير المكان، إضافة لتوفير الوسائل المادية الضرورية لتأمين قيام المضافة بتأدية خدماتها لروادها، كذلك، كانت المضافة وسيلة لإبراز سلطة الشخص ومكانته وزعامته داخل الوحدة القرابية، وعلى مستوى المنطقة التي يقطنها،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الثالث

عوامل نشوء المضافات حاليا والأنشطة التي تمارس عبرها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مقدمة

لقد تنوعت وتعددت النشاطات التي إعتادت المضافات أن تشهدها في الماضي، وهي لا تتفق بالضرورة مع النشاطات الحالية، وقد تختلف عنها، وإن كان ثمة شكل من الاستمرارية يحكم بعض النشاطات، وتوحي دراسة الانشطة المختلفة التي تتم مارستها حاليا داخل المضافات وعبرها، بحدوث تغيرات كبيرة على صعيد الانشطة، وعلى صعيد الأفراد المنخرطين في هذه الأنشطة والموجهة اليهم هذه الانشطة، وتتيح دراسة هذه التغيرات إمكانيات مختلفة على صعيد تحليل بعض أبعاد التغير الاجتماعي الذي حدث منذ مطلع القرن في مدينة إربد.

يمكن للملاحظة المباشرة والاولية، تسجيل تنام ملحوظ في أعداد المضافات في حقبة ما بعد السبعينيات، ففي الوقت الذي تم فيه هدم بعض المضافات، نتيجة لقدم بنائها، وعدم صلاحيته الفنية، وتم ايضا، هدم العديد من المضافات القديمة نتيجة للتوسع العمراني في مدينة اربد، ونتيجة لفتح وتوسيع بعض الشوارع، فان الاتجاه العام كان نحو زيادة أعداد هذه المضافات، ويقول أحد مالكي المضافات في منطقة البارحة ومن المتقدمين في السن، أن حي البارحة، أي الحي الغربي من مدينة اربد، شهد بناء ما يزيد على ثلاثين مضافة، بعد أن كان عددها في السابق، لا يزيد عن أربع، وتملك «عشيرة البصول» وحدها ثلاث من هذه المضافات اما «عشيرة الطبيشات» فتملك هي الاخرى ثلاث مضافات.

١ ـ تطور عوامل نشوء المضافات

إن التسارع في وتائر بناء المضافات، يمكن أن يعزى الى تطورات طرأت على مجموعة العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والديموغرافية، التي

شهدها المجتمع الاردني، ومجتمع مدينة اربد، ويشير العامل الاقتصادي هنا، الى تضمينات تتعلق بالنشاطات والتحولات الاقتصادية، في حين يشير العامل الاجتماعي الى مضامين دينية، وثقافية.

أ - التغير الإقتصادي ونمو البيروقراطية في الأردن:

لقد وجدت هذه التغيرات انعكاسا لها فيما يتعلق بحجم المدينة، فقد تضاعف عدد سكان المدينة عدة مرات منذ بداية القرن، وثمة افتراض يشير الى أن عدد سكان المدينة، كان حوالي ٣٥٠٠ نسمة عام ١٩٢٢ (في الربابعة ١٩٨٢: ١٨)، أما في العام ١٩٤٦، فقد بلغ عدد سكانها حوالي ٧٠٠٠ نسمة، وبعد الهجرة الفلسطينية الاولى، بلغ عدد سكان المدينة حوالي ٢٣٠٠٠ نسمة (في الربابعة ١٩٨٢: ١٨)، ووفق أول احصاء سكاني رسمي أردني، فقد بلغ عدد سكان المدينة عام ١٩٦١ حوالي ٤٥٠٠٠ نسمة، أما احصاء عام ١٩٧٩ فقد اشار الى ارتفاع عدد السكان، الذي وصل الى حوالي ١١٣٠٠٠ نسمة، حيث لعبت الهجرات الفلسيطينية المتتالية، دورا كبيرا في هذه الزيادة السكانية.

أن الاتجاه للتغير فيما يتعلق بالعامل الاقتصادي، الذي ساد في منطقة الدراسة، وفي الاردن بشكل عام، هو الانخفاض التدريجي في نسبة النشاطات الزراعية والفلاحية، وبالتالي انخفاض اعداد الافراد المنخرطين في هذه النشاطات، لقد بدأت نسبة العاملين في الزراعة، تنخفض بشكل تدريجي نظرا لبروز نشاطات اتقتصادية أخرى، ويبدو هذا التحول واضحا، في احصائيات تم جمعها في أوائل السبعينيات، وتشير هذه الاحصائيات الى تفوق نسبة العاملين في قطاع الخدمات مقارنة بالقطاع الزراعي، حيث بلغت نسبة العاملين في الزراعة في الاردن حوالي ٤٤ بالمئة من السكان في حقبة الستينيات، ثم أنخفضت الى ما نسبته ٣٩ بالمئة من حجم القوة العاملة، وقد واصلت هذه النسبة انخفاضها حتى وصلت الى حوالي ١٥ بالمئة من حجم القوة العاملة، في عام ١٩٨٠، (صالح ١٩٨٠: ١٢٨).

وقد ترافق هذا الانخفاض في النشاطات الزراعية والفلاحية، مع ارتفاع في وتائر نشاطات أخرى من قبيل التجارة، وإضافة إلى التجارة، فإنه يمكن الحديث عن بروز حقول أخرى للنشاط الاقتصادي من قبيل حقل الخدمات، والتصنيع في

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

فترة لاحقة، وتؤكد الاحصائيات المتعلقة بحجم قوة العمل الاردنية وتوزيعها في النشاطات الاقتصادية المختلفة هذا الاتجاه (الحوراني ١٩٨٠).

ويمكن اعتبار عقد الستينيات على أنه العقد الذي بدأ فيه الاردن في بناء الكثير من مؤسساته، فقد تم انشاء البنك المركزي، ومجلس الاعمار، ومؤسسات الاقراض المختلفة، والبنوك التجارية، والدوائر المتخصصة وفي هذه الفترة نشطت السياحة، وبدأت حوالات الاردنيين في الدول النفطية في التدفق.

ويلاحظ أن الحكومة الاردنية عملت، وحتى بدايات الثمانينيات، بإسلوب الاقتصاد المخطط، حيث تم التعامل مع التنمية الاقتصادية باعتبارها عملية تقع مسؤوليتها على الدولة، التي تتولى التخطيط والتنفيذ مع دور متنام للقطاع الخاص. لقد كانت أول خطة للتنمية الاقتصادية، هي تلك المتعلقة بالسنوات من ١٩٦٢- ١٩٦٧، في حين تناولت الخطة التنموية الثانية الاعوام من ١٩٧٣ وحتى العام ١٩٧٥، ولعوامل جيوبوليتيكية، فقد ارتبط النشاط الاقتصادي في الاردن، بالتدفق النقدي من مصادر عربية وعالمية، وقد ارتبط هذه التدفق، وبدرجة كبيرة بتضخم جهاز الحكومة، ويعزز هذا الافتراض حقيقة أن كثيرا من النفقات الحكومية الاردنية، الواردة ضمن الموازنات السنوية الاردنية، جرى ويجري تمويلها من خلال الاعتماد على المساعدات والقروض الواردة من مصادر عربية وعالمية.

إن اعتماد الاقتصاد الاردني بشكل كبير على المساعدات والقروض الخارجية، التي تقدم من خلال الدولة، عزز من دور جهاز الدولة، وأعطى دورا اقتصاديا ضخما لجهاز الدولة داخل المجتمع الاردني، وأصبحت الدولة، هي المحرك الاول في النشاطات الاقتصادية، ويبلغ حجم القطاع العام في الاردن، وفق العديد من الاحصائيات حوالي ٦٠ بالمئة، في حين يبلغ حجم القطاع الخاص حوالي ٤٠ بالمئة من اجمالي حجم الاقتصادي الاردني، وتدعم بعض الاحصائيات هذه الاستنتاجات. لقد بلغ حجم استثمارات الخطة التنموية الثلاثية ١٩٧٣ - ١٩٧٥ حوالي ١٧٩ مليون دينار، وتبلغ حصة القطاع الخاص من هذه الاستثمارات حوالي ٤٤ بالمئة، في حين بلغت استثمارات الحكومة حوالي ٥٦ بالمئة (عبدالجابر ١٩٨٠).

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد كان من شان التحولات السابقة في بنية الاقتصاد الاردني، وارتباط النشاطات الاقتصادية بالدولة، أن تطور الجهاز البيروقراطي المرتبط بالدولة وقد عزز ارتباط الدولة وطرحها لمقولة التنمية المخططة من تطور الجهاز البيروقراطي وتضخمه، وبرزت مدينة عمان، كمركز ضخم لهذا الجهاز البيروقراطي، وتم في مراحل متعاقبة انشاء فروع للاجهزة البيروقراطية المتواجدة في عمان، وكان من شان تقسيم الاردن إلى محافظات متعددة، أن ساعد على بروز مراكز إدارية كثيرة في الاردن ومنها مدينة إربد كمركز رئيسي في الشمال.

ويمكن للاحصائيات المسجلة في العام ١٩٨٩، أن تدعم الاستنتاجات السابقة، وخصوصا التي تقول بالتطور الضخم لجهاز الدولة، إن هذه الاحصائيات تقدر قوة العمل الاردنية بحوالي ٥٢٤ الفا (دائرة الاحصاءات العامة ١٩٨٩: ٨١)، وهي تبين أن اكثر من ٢٥٧ الفا من هؤلاء يعملون في قطاع الخدمات الاجتماعية، والادار العامة التابعين للدولة، كذلك، فانه يلاحظ أن قطاعات أخرى من قبيل التعدين والصناعة التحويلية، والكهرباء والماء، والنقل والمواصلات والانشاءات تستخدم أعداد معتبرة من قوة العمل، الا انه ينبغي ملاحظة، أن كثيرا من هؤلاء يعملون في منشآت تعود ملكيتها وادارتها للدولة، فالدولة في الاردن تملك الكثير من المنشآت الاقتصادية والخدماتية بالتعاون مع القطاع الخاص.

ان النتيجة الحاسمة لمجموع التطورات السابقة، يتجسد في انخراط أعداد كبيرة من قوة العمل الاردنية في نشاطات الجهاز البيروقراطي الاردني، ومن ثم تحول الجهاز البيروقراطي الى بؤرة استقطاب لكثير من طالبي الوظائف، لقد تمخض عن هذا الوضع بروز فئة اجتماعية جديدة، ذات خصائص محددة.

ب - التطورات السياسية المرافقة

لقد افرزت التطورات السابقة، وتزامنت مع مجموعة من التطورات الاجتماعية والسياسية، والتي كان من نتيجتها تشجيع الاتجاه نحو تنامي اعداد المضافات، ويمكن الافتراض هنا، أن التطورات الاقتصادية التي كانت في مصلحة تضخم جهاز الدولة، قادت الى مزيد من التاثير للعامل السياسي على عملية بناء

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المضافات، ويشير العامل السياسي الى تضمينات عديدة، منها ما يتعلق بدور المؤسسات المدنية السياسية من خلال قوة تواجدها، ومنها ما يتعلق بتواجد مؤسسات الدولة المدنية وقوتها، ومنها ما يرتبط بوجود قوانين وتشريعات معينة، تلعب دورا في ظاهرة انتشار المضافات، ومنها ما يتعلق بوجود خطاب سياسي سائد مشجع، ومنها ما يرتبط باحداث سياسية كالانتخابات التي تلعب دورا في تشجيع عمل المضافات.

'سبق الافتراض، أن ازدهار عمل المضافات يعزى في جانب منه الى غياب مؤسسات الدولة المدنية بشكل مطلق أو نسبي ويمكن القول أن عملية بناء مؤسسات الدولة بدأ فعلا منذ العشرينيات، الا انه لم يبدأ في التسارع الا في حقبة السبعينيات، وبالرغم من التواجد الكبير لمؤسسات الدولة، فإن عمل مؤسسات الدولة المدنية، ما زال يترك هامشا للحركة ولعمل المضافات، وعلى سبيل المثال فإن بعض القضايا والنزاعات ما زالت تحل خارج إطار مؤسسات الدولة المدنية، وما زالت المضافات تستخدم كاماكن مناسبة لحل هذه القضايا.

كذلك، فان غياب مؤسسات مدنية سياسية من قبيل الاحزاب والتنظيمات، يمكن أن يوفر فرصا لمؤسسات أخرى بديلة، يمكن أن توفر وسائل لممارسة انشطة وأدوار مماثلة، يحتاجها الافراد، لقد تم فرض حظر على انشاء تنظيمات وأحزاب سياسية في الأردن، في العام ١٩٥٨، حين أصدر الملك حسين مرسوما، معطلا العمل ببعض فقرات الدستور الاردني المتعلقة بحق إنشاء التنظيمات والجمعيات السياسية، إن البعض يذهب إلى تصنيف المؤسسات الشبيهة بالمضافات، كتلك التي موجودة في البحرين، باعتبارها مؤسسات شبه سياسية Para Political (في خوري ١٩٨١)، وهي تقوم بانشطة سياسية في ظل غياب المؤسسات السياسية الحديثة من قبيل الاحزاب والتنظيمات السياسية.

ويمكن القول أيضا، أن غياب بعض المؤسسات المدنية ساهم ايضا في تعزيز النزعة الانقسامية داخل البناء الاجتماعي في الاردن، وتتجسد هذه النزعة في محاولات الشخصيات المتنفذة إبراز بناء العشيرة، وتشجيعه، ومن ثم خلق تقسيمات اجتماعية قائمة على وحدات قرابية تتباين أحجامها، إن عمل بعض المؤسسات من قبيل مجلس الأعيان، ومجلس النواب، يمكن أن يساهم في خلق نزعة

© Arabic Digital Library Yarmouk University

توحيدية، وبناء شعور من الوحدة، على المستوى الوطني، بالنظر الى الطابع الوطني لمؤسسات كهذه، ولتواجدها في مركز محدد، كذلك، فإن هذه المؤسسات تتيح انخراط مختلف الفئات داخلها، بحيث تصبح رمزا لالتقاء كافة القطاعات، ويمكن اعتبار قمع هذه المؤسسات وعدم تواجدها، بمثابة تعزيز للنزعة الانقسامية داخل البناء الاجتماعي

ويبدي بعض أفراد مجتمع الدراسة اعتقادا بوجود علاقة بين حظر الحياة الحزبية في الخمسينيات، وانتعاش ظاهرة المضافات، وتناميها، ويعتبر أحد الأشخاص العاملين في حقل التربية والذي مارس الحياة السياسية ضمن صفوف اليساريين، أن المضافات والدواوين في الاردن، نشأت بسبب فراغ سياسي وهو يقول أن المضافات لم تنتعش في الخمسينيات، في ظل ازدهار الحياة الحزبية والسياسية، حيث كان هناك أطر أخرى، يلتقي الناس من خلالها، من قبيل الحزب والتنظيم، اما في الوقت الحالي، فيعتبر «أن هناك فراغا سياسيا، أوجب وجود الدوواين، وأعاد الناس إلى الوراء»

ويقدم رئيس تحرير إحدى الصحف ذات الاتجاه الإسلامي، والمتنفذ داخل مضافة عشيرته في وسط المدينة فكرة قريبة، وهو يعقد مقارنة بين المجتمعات الاوروبية، والمجتمع الاردني، ويقول أن المجتمع الاوروبي هو مجتمع مبني على عمل المؤسسات مثل الاحزاب والنقابات، ويرى أن اوروبا امتلكت في السابق ما يشبه المضافات والتي تسمى بالحانات، فالحانة كانت تقوم مقام المضافة، اما الان فقد اقتصر عمل الحانات في أوروبا على تناول المشروبات، وتبادل الحديث ولم تعد تستعمل الحانة، كما تستعمل المضافة هنا، ويربط السيد التل بين تبدل عمل الحانات و«التطور في اوروبا»، وبين عمل المضافات وانتعاشها و«التخلف والانحطاط في الاردن»

وهو يرى أن التجربة الحزبية في الاردن، وما يعتبره أنه فشل لها في الخمسينيات، قاد إلى نوع من عدم الايمان بالحزبية، وقد كان من نتيجة ذلك، أن كانت هناك عودة إلى «العشيرة» ولكنه يعتقد أن العودة، كانت إلى «الشكليات والقشور المتعلقة بالعشيرة، دون التمسك ببعض القيم الجوهرية للعشيرة» وهو يحقق ربطا بين هزيمة الأمة العربية سنة ١٩٦٧، وبين هزيمة القومية العربية،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

التي رفع شعارها الرئيس المصري جمال عبدالناصر، ويخلص رئيس التحرير إلى القول، بأن تلك الهزيمة، ساهمت في تلك العودة إلى العشيرة، ومن ثم إلى المضافات

إلا أن هناك من يرفض فكرة أن المضافات تلعب دورا معيقا أمام تواجد وعمل المؤسسات المدنية السياسية، ويرفض أحد المنتفذين داخل إحدى عشائر منطقة البارحة، والذي يتولى منصبا وزاريا، بعد أن تولى منصبا كبيرا بالانتخاب، الفكرة التي تعتبر أن المضافات تعيق تطوير المؤسسات المدنية، وقال « أن الكلام حول هذا الموضوع هو كلام نظري، ولا يستند إلى أساس واقعي» وهو يرى «أن المضافة، كبناء لا تعني شيئا»، وأن المضافة هي « مكان تتلاقح فيه الافكار، وحيث يجري فيه نقاش مفيد، وقد جرى نقاش كهذا في الانتخابات النيابية الاخيرة»، أما أحد أبناء إحدى العشائر الكبيرة في المدينة، والذي نشر مقالا في إحدى الصحف يدعم فيه العشائرية، فيعتبر أن المقولات عن سلبية دور المضافات، هي من طرح بعض الجهات التي تدعي التقدمية، وهو يرى أن المضافات، كمؤسسات هي ضرورية في المجتمع الاردني، وأن وظيفتها المستمرة، وتواجدها الدائم، رغم كل المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية، يبرر وجودها،

ويشكل الخطاب احد عناصر العامل السياسي الذي يلعب دورا في تشجيع الاتجاه نحو بناء المضافات، إن الخطاب الرسمي، الذي يتجسد كثيرا في الخطاب الملكي الاردني يحمل كثيرا من العناصر التي يفسرها مجتمع الدراسة على أنها من العناصر المشجعة على بناء المضافات، والتي تشجع البناء الاجتماعي الذي تزدهر المضافات في ظله، وبالنظر الى أن المضافات، ترتبط في الاصل بشكل من التنظيم القرابي، المرتكز على «العشيرة» و«الحمولة»، فان كثيرا من خطابات الملك حسين تحمل بعض الاشارات الصريحة والضمنية الى اهمية القرابة والعشيرة، ووجوب احترامها، أن عبارات من قبيل «الاسرة الهاشمية» و«الاسرة الاردنية» و«العائلة الواحدة» تحمل مضامين معينة، فيما يتعلق بطبيعة البناء الاجتماعي

وتفهم الاشارات السابقة المتضمنة في الخطاب الرسمي بمعنى مزدوج، فالعبارات تثير لدى البعض وخصوصا لدى غير المتعلمين، تثير معان ترتبط بوحدة «العشيرة» ووحدة الشعب الاردني، أما المنتفذين والطموحين داخل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الوحدات الغرابية، فهم يتعاملون معها باعتبارها تجسد توجهات الحكم والنظام السياسي، وأنها تشير الى طبيعته، وكثيرا ما تتردد لدى بعض المتنفذين، عبارة أن «النظام لدينا عشائري» وأن «الحكومة تشجع العشائرية»

ويلاحظ أن الرسالة الملكية التي تم توجيهها الى وزيرة الاعلام الاردنية، السيدة ليلى شرف، في العام ١٩٨٤، تترسخ في أذهان الكثيرين، ويربط بعض أفراد مجتمع الدراسة بين انتشار المضافات، وتلك الرسالة، لقد جاءت الرسالة الى وزيرة الاعلام، في أعقاب نقاش وجدل واسعين داخل وسائل الاعلام الاردنية المسموعة حول دور العشائرية، في تحديث المجتمع الاردني، وبناء دولة حديثة قائمة على عمل المؤسسات.

لقد كان بين بعض الكتابات من تناول العشائرية، باعتبارها عائقا، أمام تطور الدولة الاردنية، وبالتالي فان من الضروري، تجاوز العشيرة، والعشائرية، وأن البداية تكون من خلال معالجة، وتحديث التشريعات، والقوانين الاردنية، التي تترك مجالا من العمل والنشاط للعشائرية، لقد ركز النقاش على عناصر من قبيل العشائرية في اختيار الموظفين داخل جهاز الدولة، وعلى دور شيوخ العشائر في حل بعض النزاعات بين الافراد، ودور الجاهة في حل الخلافات، واثر هذه الظواهر في اعاقة بناء مؤسسات حديثة داخل الدولة.

وتجسد الرسالة الملكية، انذاك، ردا على بعض الاقلام التي تناولت العشيرة، والعشائرية، بالنقد، وقد ابدى الملك فيها عدم رضاه عن تلك الاقلام، واعتبر أن تناول العشائرية بالنقد، هو تناول للعائلة المالكة وللشعب الاردني « فلاحظنا من أمد ليس بالقصير أن بعض الكتاب في صحفنا المحلية قد جاوزوا حدود الحقيقة والمعرفة والمسؤولية بتعريضهم بعدد من من مؤسساتنا والتطاول على قيم وقناعات شعبنا في هذه البقعة العربية الأصيلة» وأضاف في إشارة الى بعض النقاشات والرسوم الكاريكاتورية في الصحف الأردنية التي تناولت العشائرية «وقد سئمنا والله عملية الاحباط المستمرة التي نرى عناوينها صباح مساء في الكلمة المكتوبة والكاريكاتير المرسوم، والتي تدفع باستمرار نحو اليأس والضياع باهمال كل جانب مشرق من جوانب الحياة والكفاح الوطني والقومي، إلا فيما قل وندر»، «وفي الآونة الأخيرة لاحظنا أن عددا من الكتابات استهدفت

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بالتحريض القبائل والعشائر والاعراف، وهوأمر مع كل الأسف يسيء الى قطاع عزيز من مجتمعنا الواحد.

وقد تجاوز الملك حسين ذلك، حين اعتبر أنه ابن « لعشيرة هاشم»، وأن من الواجب احترام هذه الحقيقة، عند تناول العشائرية في الاردن، وقال « وأود أن أكرر لكم ما ما قلته في لقاء خير مع بعض وجوه العشائر وقادتها في وطننا - أنا الحسين من هاشم - وقريش اعز قبائل العرب التي كرمها الله بأن بعث فيها محمدا صلوات الله وسلامه عليه رحمة للعالمين، فما يمس عشائرنا يمسنا، هكذا كان عليه حالنا وهكذا سنظل إلى أبد الآبدين، لن نسمح به أو نتسامح فيه - وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» (جريدة الرأي: ٢٨-٤-١٩٨٥).

وقد ثار نقاش حول القوانين «والممارسات العشائرية» في الأردن على صعيد مجلس الاعيان، الذي يعد أحد السلطتين التشريعيتين اللتين تنبثقان عن مجلس الأمة، والذي يتم تعيين أعضائه من قبل القصر الملكي، وعكست وجهات النظر داخل المجلس وجود اختلافات حول القوانين العشائرية ودورها، لقد أعتبر العين زيد الرفاعي، وهو أحد رؤساء الوزارات السابقين، أن هناك فجوة ما بين الواقع القانوني والاجتماعي والثقافي في الاردن وبين القوانين العشائرية، ورأى أنه بالرغم من قيام الحكومة في العام ١٩٧٦ بالغاء القوانين العشائرية، إلا أن بعض أجهزة الدولة بقيت تتصرف وكأن تلك القوانين ما زالت قائمة، واتهم الحكام الاداريين بتشجيع الممارسات العشائرية ودعمها، كذلك، أشار العين الرفاعي الى أن القضاء الأردني ما زال يعتبر إسقاط الحق الشخصي عن الجاني من العوامل المخففة للحكم، وفي الوقت الذي أشاد فيه السيد الرفاعي بالعشائر كلحمة في تكوين مجتمعنا، وكواحات للخير والبركة ومعينا للقيم والمثل والاخلاق الحميدة، فان الممارسات العشائرية تشكل عثرات في وجه أمننا الوطني، ومصدرا للقلاقل والمشاكل بين الناس، وهي وسيلة خطيرة لاضعاف ذلك البنيان وتشويهه» (صحيفة الرأي ٨-٤-١٩٨٥).

وردا على اتهامات السيد الرفاعي، بأن الحكومة الأردنية تشجع العشائرية، فقد رأى وزير الداخلية آنذاك السيد سليمان عرار، وهو من محافظة معان في

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جنوب الاردن، أن الحكومة لم تقم بإحالة أي قضية الى المحاكم العشائرية، وأن ما يحدث هو أن الحكام الإداريين يشجعون نوعا من تهدئة النفوس في بعض الجرائم (تطييب الخواطر) بالرغم من وجود الحل القضائي وبرر السيد عرار استمرار بعض مظاهر «العشائرية» كالجاهات، والصلحات، والمغالاة بها، من خلال القول أن البعض أساء فهم قيام الحكام الإداريين بالاخذ «بتهدئة الخواطر»، واعتبرها تشجيعا للعشائرية.

إن تعليق العمل ببعض بنود الدستور المتعلقة بحرية الأفراد في إقامة الجمعيات والأحزاب السياسية، في العام ١٩٥٨، وكذلك إعلان الأحكام العرفية التي كان من نتيجتها حل مجلس النواب، كانت له انعكاساته على التشريعات الاردنية، ففي الوقت الذي حجبت فيه وزارة الداخلية الاردنية منح تصاريح لاقامة جمعيات وتنظيمات سياسية، وفي الوقت الذي حدت فيه وزارة الثقافة من منح تصاريح لإقامة النوادي والجمعيات الثقافية، في العديد من المدن والقرى، فإن وزارة الداخلية، سهلت كثيرا عمليات تسجيل المضافات وقد سمحت الوزارة بإنشاء المضافات وعلى نطاق واسع، بدء من مطلع الثمانينيات.

إن كافة المضافات والدووايين جرى تسجيلها في وزارة الداخلية، وقد قامت وزارة الداخلية لهذا الغرض، بايجاد صيغة خاصة تتيح اصدار تصاريح خاصة لبناء المضافة، وهي تقوم على تسجيل المضافات باسم أعضاء الوحدة، بحيث لا يكون بمقدور اي عضو في الوحدة القرابية، القيام وبشكل منفرد باي تصرف يتعلق بحقوق الملكية، كذلك، فقد سمحت الوزارة بإنشاء صناديق مالية، تابعة للمضافات، تكون تحت اشراف الوزارة، وأجهزتها، وتتيح هذه التشريعات للوحدات القرابية والمضافات، فتح حسابات مالية في البنوك، تكون خاضعة لرقابة وزارة الداخلية.

لقد لعب الجانب القانوني والتشريعي المتعلق ببناء المضافات، دورا كبيرا في تشجيع الاتجاه نحو بناء مزيد من المضافات، ومع الاخذ بعين الاعتبار تنامي جهاز الدولة، الذي أصبح بمقدوره التواجد من خلال أجهزته الامنية، في كل تجمع مدني، فان العمل في مؤسسات محظورة قانونيا، يعد أمرا بالغ الخطورة، ويسعى الكثيرون لتجنبه، لقد شجعت التشريعات المتساهلة مع بناء المضافات، شجعت انخراط الكثيرين في المضافات المأمونة العواقب، مقارنة بالتنظيمات والجمعيات

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

السياسية المحظورة.

ويمكن القول، أنه وضمن نفس العامل السياسي، المواتي لبروز المضافات، ينبغي الحديث عن الانتخابات بأنواعها المختلفة. لقد بينت الملاحظة الميدانية، الدور الكبير الذي تلعبه المضافات في الانتخابات، والحاجة الكبيرة، لدى الكثيرين من المعنيين بالانتخابات، سواء كانوا ناخبين أم مرشحين، الى المضافات. وقد أكد الكثيرون من مجتمع الدراسة على الاهمية التي تلعبها المضافات في الانتخابات المختلفة، وتجسد المضافة المكان المفضل لكثير من المرشحين لعرض رغبتهم في الترشيح للانتخابات. فقد بدأ مدير إحدى المدارس، وأحد أبناء أكبر العشائر في منطقة البارحة ترشيحه بالعمل داخل المضافة، ويقول أنه يسعى لكسب موافقة «عشيرته» على ترشيحه، وأنه يسعى لضمان عدم قيام «العشيرة» بترشيح شخص آخر الى جانبه، الامر الذي من شأنه، تشتيت أصوات أقاربه. إن العمل التحضيري للانتخابات، يتواصل وبشكل يومي، في المضافات، في مواسم الإنتخابات.

ج - <u>التطورات الاجتماعية وتطور مفهوم الزعامة</u>

ويترافق مع العاملين الاقتصادي والسياسي، اللذين جرى الحديث عنهما، العامل الاجتماعي ويمكن تلخيص العامل الاجتماعي هنا، بسلسلة التطورات التي طرأت على صعيد الحاجة للمضافات، باعتبارها مكانا لممارسة بعض الأنشطة. كذلك، يتضمن العامل الاجتماعي طبيعة التحول الذي طرأ على مصادر المكانة الاجتماعية، والزعامة داخل البناء الاجتماعي لمدينة إربد. وأخيرا، يمكن اختزال الدور المحتمل للدين في تشجيع بناء المضافات، ضمن العامل الاجتماعي.

إن التأثير الحاسم لسلسلة التغيرات الاقتصادية التي شهدها المجتمع الأردني، وبضمنه مجتمع الدراسة في إربد، يبدو أكثر وضوحا، فيما يتعلق بتبدل شروط امتلاك مكانة اجتماعية مميزة، داخل البناء الاجتماعي. لقد اعتمدت الزعامة في الماضي على امتلاك مساحات كبيرة من الاراضي الزراعية، اضافة لامتلاك قطعان كبيرة من الحيوانات، كالاغنام والابقار، ونظرا لبروز نشاطات اقتصادية جديدة، والتي ترافقت مع تضخم جهاز الدولة، فقد تبدلت شروط الزعامة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أصبحت الزعامة التي تنم عن مكانة اجتماعية متميزة، تنبع في الاساس من الانتماء للجهاز البيروقراطي وبالنظر الى اتساع حجم هذا الجهاز، فقد اصبح بالامكان الحديث عن بروز فئة اجتماعية واسعة في الاردن، تتكون أساسا من العاملين في الجهاز البيروقراطي وتتحدد خصائص هذه الفئة من خلال القول باعتمادها على الرواتب الشهرية، كذلك، فإن هذه الفئة تتكون بشكل كبير من الحاصلين على شهادات ومؤهلات علمية، وأكاديمية، حيث يعملون بالدرجة الأولى في قطاعات خدمية، كالتعليم، والاتصالات، والصحة، والجيش، ويمكن القول أيضا أن الجهاز البيروقراطي بمراتبيته المعروفة، يشكل أحد الأطر الأساسية التي يمارس الفرد من خلالها محاولاته في تحسين مكانته الاجتماعية.

وتصطدم رغبة الفرد العامل في الجهاز البيروقراطي، والراغب في تحسين مكانته الاجتماعية، وفي تحقيق نوع من الزعامة، تصطدم بمحدودية الوسائل الاجتماعية والسياسية التي تتيح له الوصول إلى مركز الزعامة، كذلك، فإن هناك اعتقاد لدى الكثيرين، بأن تحسين وضعهم داخل الجهاز البيروقراطي نفسه، يرتبط بدرجة الدعم والمساندة الجمعية التي يمكن أن تقف خلفهم، وبالنظر إلى أن المساندة الجمعية، تتوفر في الجمعيات والمؤسسات السياسية المدنية، والتي هي غير ممكنة في ظل أجواء من الكبت والتمع السياسيين، فإن الكثيرين يجدون في المضافات مؤسسات بديلة، يمكن أن توفر مساندة جمعية، هي ضرورية لتحقيق وضع أفضل داخل الجهاز البيروقراطي كذلك، فان اعتبار بعض البيروقراط، إن النظام السياسي هو «نظام عشائري»، يعزز من دوافع البيروقراط في تشجيع بناء المضافات التي يكون الهدف من وراءها حشد التأييد من خلال خلق وتكوين البعد الجمعي الضروري لتحقيق مكاسب اجتماعية.

لقد كان من الملاحظ أن بعض رواد المضافات والذين كانوا يتصدرون بعض المناسبات في المضافات، يركزون على أن الحكم في الاردن «عشائري»، وأن من يملك عشيرة، فانه يستطيع أن يحقق مكاسب من الدولة، وكثيرا ما يتم الاستشهاد بتسلم شخصين من عشيرة معينة قيادة فرقتين من ثلاث فرق يتكون منها الجيش الأردني، باعتباره يجسد توجهات النظام السياسي، من حيث حاجته ودعمه للعشائر، ويردد بعضهم عبارات «أن أبناء الجنوب، حيث هناك عشائر كبيرة ومشهورة، هم الذين يحصلون على ترقيات «بصلوا» في حين ان أبناء الشمال، لا

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تتيح الدولة لهم قيادة مناصب كبيرة».

ولا يمكن الحديث عن العامل الاجتماعي بمكوناته المختلفة، دون الحديث عن دور الدين ضمن هذا العامل، ويقصد بالعامل الديني هنا، ولاغراض الدراسة مجموعة النصوص القرآنية، والاحاديث النبوية التي وردت عن الرسول، والتي يستشهد بها مجتمع الدراسة عند حديثه عن المضافات.

يمكن القول أن الدين يمارس، فيما يتعلق بظاهرة انتشار المضافات، دورا مزدوجا، وللتحديد، فان الدين يلعب دورا مباشرا وصريحا، فيما يتعلق بتشجيع بروز المضافات، كابنية مادية، وفي ذات الوقت، فان الدين يلعب دورا، فيما يتعلق بتشجيع واعادة انتاج البناء الانقسامي، المرتبط بالابنية القبلية، التي يمكن للمضافات أن تزدهر في ظله.

يلعب التاريخ العربي الاسلامي دورا كبيرا في تشكيل المفاهيم التي تتكون لدى افراد مجتمع الدراسة حول كثير من الظواهر، ويمكن ملاحظة هذا الدور من خلال استشهاد الكثيرين في نقاشهم، بنصوص وأحداث تاريخية، وغالبا ما يلجأ الى هذه النصوص من أجل تدعيم وجهة نظر المتحدث، واعطائها درجة مصداقية أكبر، وتستمد هذه النصوص والاحداث التاريخية تأثيرها من خلال السياق الاسلامي التاريخي المزدهر الذي برزت فيه هذه النصوص والاحداث، ويمكن اعتبار السياق الذي يتم ايراد هذه النصوص فيه، بمثابة عملية قياس (أي قياس الحاضر على الغائب).

ويستشهد البعض، بالدور الذي لعبته «دار ابن أبي الارقم» في مكة خلال القرن السادس الميلادي، وقبل ولادة النبي محمد بن عبدالله، لقد ارتبطت هذه الدار في تلك الفترة، بقوة قبيلة قريش، وسط مجتمع قبلي يقوم على الرعي والزراعة، في حين اعتمدت قريش من موقع مكة التجاري، لكي تعزز من قوتها، وكانت دار «ابن أبي الارقم» تمارس دورا يشبهه البعض، بأنه مشابه لدور المضافات، فقد كانت هذه الدار تفتح أبوابها لشيوخ مكة، وحيث كان يجري نقاش تتنوع أبعاده في تلك الفترة، وحيث كان الكثير من النزاعات بين القبائل والافراد يجد حلولا له داخل هذه الدار.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

كذلك، فان احداثا من قبيل فتح مكة والدور الذي أوكله الرسول إلى شيوخ القبائل، ينظر إليها من قبل بعض اعضاء مجتمع الدراسة، كأحداث تاريخية تعطي شرعية للمضافات وللعشائرية، إن أحد المتنفذين داخل أحد العشائر في مدينة إربد، ويحمل درجة الماجستير في الدراسات الاسلامية، يورد بأن الرسول وحين قام بفتح مكة، أسند دورا كبيرا لاثني عشر شخصا من شيوخ قريش من خلال تعيينهم في مواقع حساسة كذلك، يعتبر أن قيام الرسول باعطاء دور لابي سفيان باعتباره من شيوخ قريش، يؤكد المساندة والشرعية التي يعطيها الرسول للعشائرية، وهو يضيف أن الرسول كان في بعض الغزوات يلجأ الى استفزاز الاحساس بالتميز عند الافراد من خلال استفزاز مشاعر الانتماء للعشيرة، فكان الرسول في بعض الغزوات ينادي على المقاتلين من خلال ذكر أسماء قبائلهم.

وتمارس النصوص القرآنية والنبوية المتعلقة بالعشائرية وفكرة التعاون دورا محفزا لنشوء المضافات، بل واعطائها درجة من الشرعية والاهمية، ان الكثيرين يبررون مساندتهم ورعايتهم لعمل المضافات واقامة المزيد منها، من خلال الاستشهاد ببعض النصوص القرآنية التي يعتقد أنها تشجع المضافات، فالبعض يورد الاية القرآنية التي تحث على التعاون، والتي تقيم ربطا بين التعاون والايمان «وتعاونوا على البر والتقوى»، كذلك، يورد البعض الاية التي تقول «وجعلناكم شعوبا وقبائل»، ويؤكد الكثيرون من رواد المضافات أن المتدينين داخل العشيرة لم يعارضوا انشاء المضافة، بل على العكس من ذلك، فقد كان موقفهم هو التشجيع.

٢ـ النشاطات التي تمارس داخل المضافات حاليا

يمكن القول أن النشاط المتعدد داخل المضافات في الظروف الحالية، وفي بعض جوانبه، ما هو الا امتداد لنشاطات تمت ممارستها عبر المضافات في فترات سابقة، فثمة نشاطات استمرت المضافة في أدائها، في حين اضيفت نشاطات جديدة، وهناك من النشاطات ما تم تعديله وتطويره، بحيث يناسب بعضا من المتغيرات المحيطة، غير أن بعض النشاطات اختفى وبشكل قاطع.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وقد رافق التغيرات على صعيد الانشطة التي تتم ممارستها عبر المضافات تغيرات على صعيد البناء الذي تشغله المضافة، فبعد أن كانت المضافة تشغل إحدى الغرف التي تعود لمالك فرد متميز إقتصاديا وإجتماعيا، أصبحت المضافة الان تشغل مكانا منفصلا عن بيوت أعضاء الوحدات القرابية وهي تكون بيتا قائما بذاته ولا يقطنه أحد من أعضاء الوحدة القرابية، كذلك، فإن حجم البناء ومواصفاته اختلفت كثيرا،

وتقدم مضافة عشيرة الرشيدات في المدينة نموذجا للمضافات الحديثة التي تم بنائها في مرحلة ما بعد السبعينيات (شكل رقم ٢)، تقع المضافة في وسط المدينة، وتشغل حيزا يقع بين شارع فلسطين وأحد الشوارع الفرعية الموازية للشارع، ويختلف الشكل الخارجي للمضافة عن بقية البيوت الموجودة في المنطقة، إن معظم البيوت، في المنطقة تم بنائها في فترات قديمة، تعود لاكثر من ثلاثين عاما، أما بناء المضافة فيوحي بتميز البيت عن بقية البيوت في الحي، كذلك، فان الشكل الواجهة الامامية للمضافة تحوي بعض التصميمات الهندسية، من حيث وجود بعض الشبابيك ذات الاشكال القوسية، وقد تم التبرع بقطعة الارض المقام عليها المضافة من قبل أحد المحامين من أبناء العشيرة الذي عمل في وزارة العدل، ورشح نفسه للانتخابات النيابية الأخيرة عن مدينة إربد، كذلك، تبرع نفس الشخص بمبلغ يصل الى حوالي ٥ آلاف دينار،

تشمل المضافة بناء واسعا، ذات شكل مربع، وتبلغ أبعادها ١٥ × ١٥م، ويرتفع مدخل المضافة عن مستوى الشارع الفرعي حوالي المتر، وقد تم بناء بضع درجات على هذا المدخل، وتضم المضافة طابقا ارضيا، إضافة الى قبو ذات مساحة محدودة، بني من أجل تسوية المساحة المقام عليها المضافة، ولا تحوي المضافة أي حواجز داخلها، وإنما تشبه المساحة المتوفرة داخل تلك المتوفرة في القاعات الكبيرة، وفي الجزء الشمالي الشرقي من المضافة تم بناء مطبخ، إضافة الى حمام، كذلك، فان هناك درج داخلي يربط بين الطابق الارضي من المضافة وبين القبو السفلي، وقد تم بناء المضافة من الحجر الابيض،

ويستخدم القبو من قبل رواد المضافة الذين ينتمون لنفس العشيرة، حيث توجد فيه بعض المقاعد والطاولات، وفي الوقت الذي تكون القاعة في الطابق

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

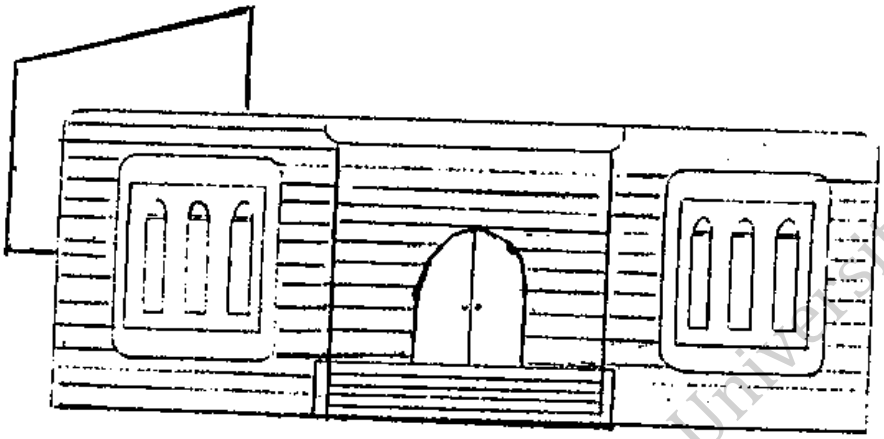

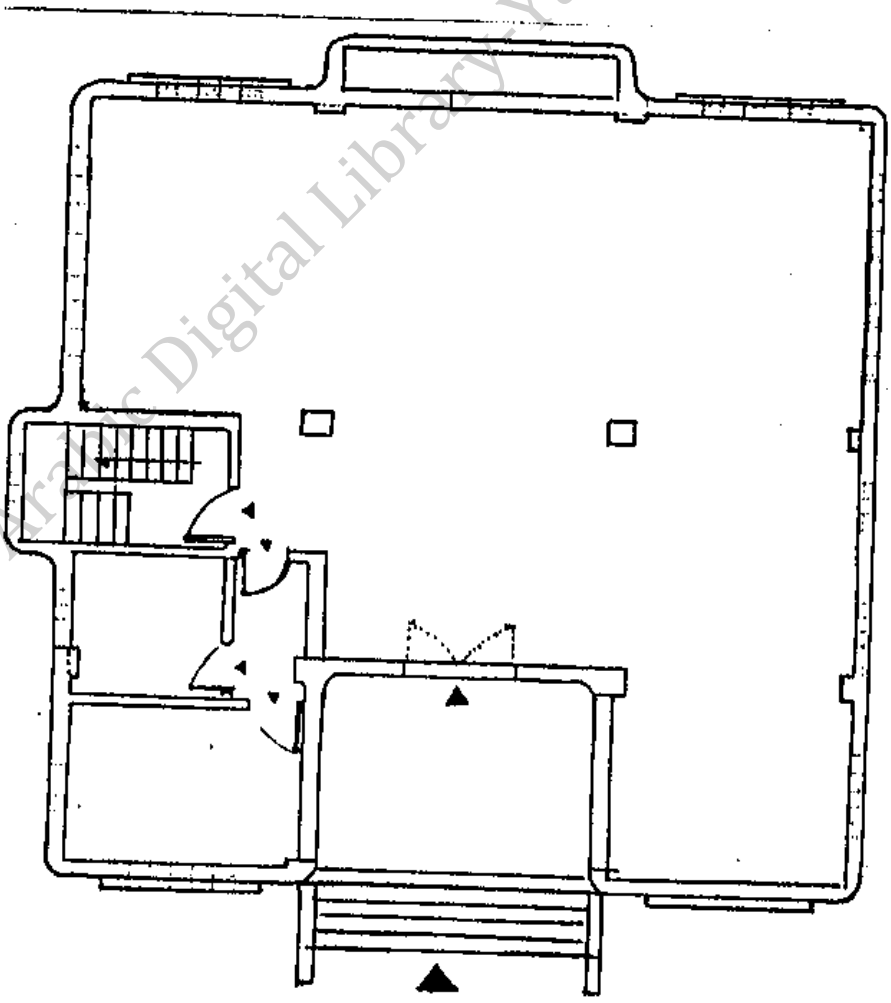

٢ـ مسقط علوي مع واجهة لإحدى المضافات الحديثة في وسط مدينة إربد (مضافة الرشيدات)

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الارضي مفتوحة الابواب بشكل يومي ومضاءة، فإنها تكون فارغة ولا تحوي أي شخص، إذ أن الجميع يجلسون في القبو السفلي من المضافة ويمارس هؤلاء الأشخاص في القبو بعض الالعاب المسلية، من قبيل لعب الورق، أما في حال قدوم زائر أو ضيف، فإنهم يصعدون الدرج الى الطابق الارضي، ويجلسون على المقاعد المناسبة.

وتحوي المضافة أثاثا، يشتمل على عدد كبير من المقاعد والكنبات، التي تم ترتيبها على طول جدران المضافة ومن معظم الجهات، ويزيد عدد هذه المقاعد عن ١٠٠ مقعد، كذلك، تم وضع بعض الطربيزات والطاولات التي وضع عليها بعض المنافض، وقد تم تعليق بعض الصور على جدران المضافة، حيث علقت صورة السيد (عبدالرحمن الرشيدات الذي سبق وان تولى منصب الوصي عن العرش بعد تنحية الملك طلال عن العرش في العام ١٩٥١، وعلقت أيضا صورة السيد شفيق الرشيدات، وهو أحد الشخصيات الهامة في الحياة السياسية في الاردن في الخمسينيات والستينيات، وقد تبنى خطا أيديولوجيا قوميا، وكان في بعض الأحيان من المعارضين للعائلة المالكة في الأردن.

ويتيح المطبخ الموجود في زوايا المضافة، إعداد بعض المشروبات من أجل زوار المضافة، ويتم تقديم القهوة «السادة» في المضافة بشكل يومي وبعد تناول القهوة، فإنه يجري إعداد أكواب من الشاي داخل المطبخ أيضا، أما في بعض المناسبات التي تتطلب تقديم الطعام، فإنه يتم إعداد الطعام في أحد البيوت التي تتبع عشيرة الرشيدات، وفي أحيان أخرى يتم شراء الطعام من أحد المطاعم المتوفرة في المدينة، ويقوم بإعداد الطعام عدد من النساء من عشيرة الرشيدات، واللواتي يتعدين سن الثلاثين في الغالب، ولا يعملن خارج منازلهن.

لقد كان لتطور شبكة المواصلات في الاردن أثرا ذي أتجاهين على عمل المضافات ونشاطاتها؛ فمن جهة، فان وجود السيارة أعطى أمكانية للفرد لكي يتنقل، مع أعطائه القدرة على العودة الى مكان سكنه في نفس اليوم، وبالتالي عدم اضطراره للمبيت خارج منزله، وغالبا في أحد المضافات في مدينة اربد، ان ذلك يعني تناقصا في الحاجة الى المضافة، واتجاها نحو التقليل من أهميتها، ومن جهة أخرى، فان الناس يربطون بين تطور شبكة المواصلات، وبين الحاجة الى

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مزيد من المضافات في الفترة الحالية، أن مدير شؤون الموظفين في إحدى الوزارات، والذي يرعى شؤون المضافة التي تعود لعشيرته يعتقد أن وجود شبكة مواصلات متطورة زاد من امكانية التقاء، وتجمع أعداد كبيرة من الاقارب في مكان واحد، وخصوصا في مناسبات محددة، وبالتالي كان دافعا قويا لتطوير حجم المضافة وبناء المزيد منها.

ان أحدا لا يجانب الحقيقة عندما يدعي بأن النشاط الاساسي الذي مورس عبر المضافة، وارتبط بها، وتحديدا ذلك المتعلق باستقبال «الآخر الغريب»، قد تقلص وربما لم يعد قائما، وبالتالي فان المنطق يفترض زوال المضافة بعد زوال السبب الذي أعطى شرعية وضرورة لوجودها لفترات سابقة طويلة، الذي هو استقبال الغريب.

وللاجمال، فانه يمكن القول أن تطور شبكة المواصلات وبالتالي قدرة الفرد على العودة الى مكان سكنه وعدم حاجته الى مكان يقضي فيه ليلته، قد أدى الى تغير في توجه المضافة من حيث النشاط الذي يمارس عبرها، فبعد أن كان «الاخر» الغريب عن المنطقة هو بؤرة التركيز وبعد أن كان العنصر الخارجي واستقباله هو الهدف الاساسي، فان التحول كان باتجاه أعضاء الوحدة القرابية نفسها التي تتبع لها المضافة، فاستقبال أعضاء الوحدة القرابية وحل خلافاتهم ومناقشة نشاطاتهم أصبح من النشاطات الاساسية التي تجري في أروقة المضافات.

من المهم الاشارة الى أنه وعند الحديث عن الأنشطة التي تشهدها المضافات حاليا، فإنه يسود لدى المتحدثين شكل من التجسيد (Reification)، وخصوصا حين يتحدثون عن الأنشطة التي تمارس عبر المضافات، إن حديثهم يغفل المضافة كبناء أو كمؤسسة، يقوم بعض الأفراد من خلالها بممارسة بعض الأنشطة، وانما يتعاملون مع مع المضافة وكأنها كائن فاعل، يمارس الانشطة المختلفة، وهم يغفلون أيضا الاشخاص الذين يمارسون الانشطة داخل المضافة ويتعاملون مع المضافة وكأنها هي الشخص، وكثيرا ما تستخدم جمل من قبيل «قامت المضافة» و«ساعدت المضافة».

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أ ـ النشاطات اليومية

إن أحد الجوانب المشرقة في نشاطات المضافة، كما يعتقد المتحمسون لها من مجتمع الدراسة، يتمثل في قدرتها على توفير منبر للنقاشات المفيدة بين ابناء «العشيرة»، فطول النقاشات وتعدد موضوعاتها يوفر حافزا عند البعض للترويج لاهمية المضافة وجدواها، فالمضافة ـ وبكلمات أحد الوزراء من المتنفذين داخل المضافات ـ هي «مكان تتلاقح فيه الافكار، حيث يجري نقاش مفيد، وحيث بناء المضافة لا يعني شيئا» والمضافة وفقا لكلمات رئيس تحرير إحدى الصحف هي «ملتقى عائلي تطرح فيه شؤون «العائلة» والوطن بابعادها الفكرية والسياسية»

ويعتبر البعض ـ مثل مساعد أحد الحكام الإداريين، وهو من إحدى العشائر المتنفذة في وسط المدينة ـ «أن كثيرا من النقاشات العلمية تجري داخل المضافة ويشارك بها المتعلمين من أبناء «العشيرة»، وحيث تساهم هكذا نقاشات في تنويع ثقافة ومعرفة أبناء «العشيرة»، كذلك فان فائدة كبيرة يمكن أن تعم أبناء العشيرة نتيجة سفر الكثيرين من ابنائها الى مناطق وثقافات مختلفة من العالم، وحديثهم عن تجاربهم في هذه الثقافات داخل المضافة

أن أحد النشاطات الجوهرية التي تتم داخل المضافة، وكما يرى البعض هو التقاء الكثيرين من أبناء «العشيرة» بشكل رئيسي، ومن أبناء «العشائر» الاخرى بشكل أقل، فالتردد على المضافة يكون من أجل التقاء بعض الاصدقاء أو الاقارب أو بعض المتعلمين أو بعض المتنفذين في جهاز الدولة، أو في القطاعات الاخرى وثمة ربط يقيمه بعض الناس بين المضافة والنادي من حيث النشاطات؛ فرئيس تحرير الصحيفة ذات الميول الاسلامية استخدم مفهوم النادي حين كان يتكلم عن المضافة، واقتباس كلماته قد يكون مجديا «المضافة كالنادي ألجأ اليها في أوقات الفراغ لاناقش مع اقاربي بعض القضايا السياسية والعلمية والدينية»

وفيما يتعلق بالنشاطات الترفيهية التي داب مرتادي المضافات على ممارستها، فيبدو أنها قد تضاءلت نظرا لعوامل كثيرة، والتي يمكن الاشارة الى بعضها والذي يتمثل في أن معظم المضافات لا تفتح أبوابها بشكل يومي، بل في

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أوقات ومناسبات محددة، كذلك فان وجود أجهزة الترفيه البيتية من تلفزيون وفيديو إضافة الى بعض الأندية والمقاهي، قد أدى الى تقلص الدور الذي تمارسه المضافة على صعيد الحاجات الفردية، أن الحقيقة السابقة هي غير اطلاقية فهناك بعض المضافات التي تفتح أبوابها بشكل يومي مثل، مضافة عشيرة الرشيدات، ومضافة الحاج يوسف السليمان البصول ومضافة عشيرة التل، وفي بعض المضافات ما زالت تمارس بعض الالعاب البسيطة، ففي احداها، كمضافة الحاج يوسف البصول، ما زالت لعبة «الصينية» تمارس من قبل بعض المتقدمين بالسن، بل ومن قبل بعض الشباب أحيانا، وفي بعضها، كمضافة الرشيدات، التي تتكون من طابق واسع إضافة الى طابق أرضي أسفله، يمارس بعض الشباب لعب الورق، وعلى نطاق واسع وبشكل يومي، في الجزء السفلي من المضافة، في حين يبقى الجزء العلوي مضاء، وغير مستخدما الى حين وصول بعض الزوار من الوحدات القرابية الأخرى.

وتعزز بعض المناسبات المحلية أو الاقليمية أو حتى العالمية دور المضافات في جذب الافراد الى الالتقاء والتجمع فيها، فاحداث مثل الحرب الخليجية في العام الماضي كانت تدفع بالكثيرين للالتقاء بالمضافات حول جهاز التلفزيون لمتابعة الاحداث، واجراء نقاش حولها فيما بعد، ويؤكد بعض شباب إحدى عشائر منطقة البارحة أنهم أعتادوا التردد على المضافة وبشكل يومي للالتقاء مع شباب من داخل وخارج «العشيرة» اثناء مباريات كأس العالم في كرة القدم قبل حوالي سنتين، ويقولان أنهما وفي تلك الفترة كانا ومعهم بعض الشباب من خارج «عشيرتهم» يلتقون حول جهاز التلفزيون بشكل يومي، وأن معظم الشباب كانوا من منطقة «البارحة» التي توجد بها مضافة عشيرتهم التي ينتمون اليها.

ب - أنشطة المناسبات المختلفة

عند تناول النشاطات التي تمارس داخل المضافات في الفترة الحالية، يمكن الانطلاق والقول، بأنه بعد أن كانت معظم النشاطات تحكمها علاقة «الأنا» بـ «الآخرين»، حيث كانت «الأنا» تشير الى شخصية الفرد المتميز إقتصاديا وإجتماعيا، والزعيم سياسيا، في حين يشير تعبير «الاخرين» الى الزائرين الذين هم في الغالب قدموا من مناطق بعيدة، وبصورة اقل يشير الى أعضاء الوحدة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

القرابية التي ينتمي اليها الزعيم، وابناء المنطقة التي يقطنها، وتوجد بها مضافته، فإن النشاطات أصبحت تحكمها علاقة «النحن» و«الآخرين» ويحمل تعبير «النحن» مضامين تشير الى ما يرتبط بالوحدة القرابية، التي أصبحت هي المالك الجماعي للمضافة، في حين يشير تعبير «الآخرين» الى ما يتعلق بالوحدات القرابية الاخرى بالدرجة الاولى، والى الزائرين الذين قد يكونون افرادا في بعض الحالات.

ويمكن الجدال هنا، بان المضافة بعد أن كانت أداة يستخدمها الزعيم الفرد المتميز اقتصاديا واجتماعيا في علاقته بالاخرين، أصبحت المضافة أداة تعبر عن علاقة الوحدة القرابية بغيرها من الوحدات القرابية، وبالتالي أصبحت المضافة تعبر عن علاقة «النحن» بـ«الاخرين»

أن «مواصفات الآخر» الذي اعتادت المضافة أن تستضيفه في السابق اختلفت الان، فبعد أن كان الاخر يتمثل في ذلك المسافر الذي ابتعد عن منطقة سكنه لظرف ما، واصبح بحاجة لمكان يرعاه ويأويه لبضعة أيام، فقد اصبح « الاخر» هو ذلك الشخص المتميز اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، فالكثير من المضافات تشهد ولائم كبيرة تقام لاستقبال شخصية متنفذه وذات اهمية، هي في الغالب بيروقراطية، وفي بعض الاحيان تحاول دخول الجهاز البيروقراطي، وتحصيل مكانة متميزة داخله، وربما شخصية متنفذه عشائريا، ان حجم هذه الشخصيات ونفوذها يتنوع، وقد يبدأ بشخصية من مستوى مدير شرطة أو مدير مخابرات محافظة ما، ليمر بشخصيات من مستوى وزير، وقد ينتهي بشخصية من مستوى أمير، ويفتخر أحد مالكي المضافات في منطقة البارحة (٧٥ عاما) ويقول «الكل زار مضافتي من الامير حسن وأقل»

تعد المضافة الآن من الامكنة المفضلة لاقامة كثير من المناسبات الاجتماعية ذات الطابع الجمعي فيها، فكثير من مناسبات الافراح المتعلقة بأحد أبناء الوحدة القرابية من الذكور يتم أجرائها في المضافات، حيث يجري بحث تفاصيل الخطوبة أو حفل الزفاف فيها، اضافة الى أن حفل عقد القران أو الزواج قد يتم داخلها، وفي كثير من الاحيان تكون المضافة نقطة التجمع لابناء الوحدة القرابية للانطلاق الى عائلة العروس لطلب يدها، وفي أحيان اخرى تكون المضافة نفسها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الملتقى الذي يجتمع فيه أهل العروس مع أهل المتقدم لخطبتها لمناقشة طلبه.

وفي هذا المضمار، فثمة ربط تقيمه ذات المبحوث بين عمل المضافة وعمل الفنادق في الفترة الحالية؛ فأحد الوزراء الحاليين يقيم ربطا بين المضافة والفندق في الظروف الراهنة من حيث الامكانية المتوفرة في كليهما في مواجهة بعض متطلبات الوحدة القرابية والناس عموماً،اذ أن تكاثر عدد افراد الوحدة القرابية أدى الى الحاجة الملحة لمكان واسع يستوعبهم ويستوعب نشاطاتهم في حال استقبالهم لافراد من وحدة قرابية أخرى، وحيث أن من الصعب على عضو الوحدة القرابية وحده توفير المكان الملائم، فقد كان من الضروري وجود المضافة المرتبطة بالوحدة القرابية ككل، وبما توفره من مكان واسع. ويرى شخص آخر من منطقة البارحة أن وجود المضافة، أصبح يحل مشكلة النساء والعائلات التي تتذمر من حصول المناسبات الكبيرة في منازلها، مما يتسبب في أيذاء نظافة وأثاث البيت، ويضطر ربة البيت العمل كثيرا من أجل اعادة البيت الى حالته الطبيعية.

إن اجراء معظم المناسبات داخل المضافات، أدى الى محافظة الناس على أثاثهم داخل بيوتهم، وخفف من العبء الذي كانت تتحمله النساء في الفترة التي إنحسر فيها نشاط كثير من المضافات، والتي شهدت تشتتا لإعضاء الوحدات القرابية، حيث عمدت معظم الأسر إلى بناء غرف داخل منازلهم لاستقبال الزوار، وإقامة بعض المناسبات، وقد ساد هذا الوضع كثيرا في فترة الستينيات والسبعينيات، حيث تم هدم الكثير من المضافات، نتيجة عمليات فتح وتعبيد الطرق في المدينة، وحيث أصبح هناك ما يعرف بغرفة الضيوف، في معظم المنازل.

وتؤكد الحقيقة السابقة الذكر الطابع الجمعي الذي يمكن للمضافة أن تمنحه لاتفاق زواج يتم بداخلها، وبالنظر إلى أن المضافة أصبحت تملكها المجموعة القرابية، فإن توجه الجاهة التي ترسلها وحدة قرابية ما إلى مضافة وحدة قرابية أخرى، يشير الى أن المضافة، أصبحت تستخدم لإعطاء طابع جمعي لإي إتفاق يتم داخلها، ويدعم هذا الافتراض مشاركة كثير من أبناء الوحدة القرابية التي تملك المضافة في إستقبال الجاهة، ويمكن الافتراض أن المضافة التي ترتبط بالوحدة القرابية، من خلال توجه الجاهات إليها تؤكد المقولة التي لا تعتبر حالات الزواج

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

هذه، بمثابة رغبة عند فردين الارتباط ببعضها، وإنما هي رغبة لدى مجموعتين قرابيتين بالارتباط ببعضهما.

ثمة نشاط يمارس داخل المضافات المختلفة في مدينة اربد وعلى نطاق واسع، وهو يتعلق بمناسبات الوفيات، حيث تفتح المضافات أبوابها لفترات مختلفة، فمنها من يفتح أبوابه لمدة ثلاثة ايام، ومنها من يفتح أبوابه لفترة تصل الى عشرة أيام، وتعتمد المدة التي تفتح المضافة أبوابها خلالها على المكانة الاجتماعية التي كان يشغلها المتوفي وأثناء هذه الأيام، وبالتحديد، الأيام الأولى للوفاة، يكون هناك تردد كبير على المضافة، سواء من قبل أعضاء الوحدة القرابية التي ينتمي اليها المتوفي، أو من قبل أعضاء الوحدات القرابية الأخرى، التي تأتي بهدف تقديم العزاء لاهل المتوفي إن الأمر الملفت للنظر في مناسبات كهذه هو أن بعض المضافات تقوم بتقديم الطعام الذي يشمل اللحم والرز داخل المضافة حيث يتولى أهل الفقيد تقديمه على نفقتهم الخاصة في حال قدرتهم وعلى نفقة الوحدة القرابية في حال عدم قدرتهم، إن مضافة بني هاني في منطقة البارحة تشهد تقديم الطعام لمدة ثلاث أيام داخل المضافة، حيث يقوم أهل المتوفي بتوفير الطعام داخل المضافة.

ويمكن تقديم مثال من مضافة بني هاني جرى خلاله تقديم التعازي، فقد توفي أحد أبناء العشيرة، وعمره ١٥ عاما، عندما كان برفقة والده، الذي كان ينظم رحلة الى السعودية من أجل العمرة، وفي السعودية وقع حادث للشاب وتوفي هناك، وبعد الدفن، جرى فتح المضافة، حيث تواجدت أعداد كبيرة من عشيرة المتوفي، وقد جرى فتح المضافة بشكل يومي ولفترة تصل الى حوالي خمسة أيام، وفي هذه الايام كانت المضافة تفتح أبوابها من ساعات الصباح، وتستمر حتى الساعة العاشرة ليلا.

وفي احدى مناسبات تلقي التعازي، كانت هناك مجموعة من الشباب، في حوالي الساعة التاسعة ليلا تقف قريبا من باب المضافة، ولكنهم لم يتلقوا التعازي، ويبدو أن وقوفهم خارج المضافة، كان بهدف افساح المجال للاخرين لتقديم التعازي، فالمضافة كانت محتشدة، وعند باب المضافة نفسها، وفي الداخل وقف حوالي عشرة رجال من أعمار مختلفة تتراوح بين السابعة عشرة والستين

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

عاما، كانوا يصطفون بشكل منتظم، ويصافحون بالأيدي، ويتلقون التعازي من الزائرين، وبعد تقديم التعازي لهذه المجموعة من الرجال، يكون على الزائر الجلوس داخل المضافة، بعد أن يقوم بتقبيل والد المتوفي، الذي يجلس داخل المضافة، وبعدها يختار الزائر المعزي مكانا ما، ويجلس، ثم يقوم أحد الاشخاص من الوحدة القرابية التي ينتمي اليها المتوفي بتقديم القهوة «السادة» له.

إن المجموعة التي تقف عند الباب وتصطف لتلقي التعازي نيابة عن العشيرة، لا تتمتع بمزايا أو مواصفات محددة، فقد أجاب بعض أقرباء المتوفي، أن الوقوف عند الباب، هو أمر اختياري وطوعي، ولا شروط أو اختيار لمن يقف هناك، وان وقوف كافة أبناء العشيرة هو أمر متعذر، بالنظر لكثرتهم، وبالتالي فإن من الطبيعي، أن تكون هناك مجموعة تتلقى التعازي نيابة عن «العشيرة»، أما الوضع المهني لهذه المجموعة، فقد كانت - وفق ما قال البعض - بأن معظمهم من الموظفين في جهاز الحكومة.

وضمن نفس المناسبة، فان المضافة قد تكون بمثابة المركز الذي يستقبل برقيات التعازي بوفاة أحد الاشخاص من الوحدة القرابية سواء من داخل الأردن أو من خارجه، وكثيرا ما تعمد شخصيات سياسية وبيروقراطية ونيابية إلى إرسال برقيات تعزية باسمها إلى المضافة، والاعتذار عن عدم القدرة على القيام بتقديم التعازي بشكل شخصي وأثناء مناسبة تلقي التعازي بوفاة أحد شباب «عشيرة» بني هاني، قال السيد عواد بني هاني، الذي يعمل مديرا لاحدى المدارس الحكومية، أن معظم نواب مدينة إربد قاموا بإرسال برقيات تعزية إلى المضافة.

وفيما يتصل أيضا بتقديم التعازي، فإن المضافات تشكل المكان المعتاد لالتقاء أعضاء الوحدات القرابية في لحظة معينة، تمهيدا للانطلاق إلى الوحدة القرابية التي فقدت أحد أبنائها من أجل تقديم التعازي، ان مضافة التل وسط اربد، تشكل دائما النقطة التي يتجمع فيها أبناء التل، القادمين من اربد، أو من عمان، حيث ينطلقون الى مكان تقديم التعازي، بعد أن يكتمل العدد الذي يعتبر ضروريا من أبناء العشيرة، وتتباين أعداد المعزين من الوحدات القرابية، ولكن العدد الكبير الذي يتجاوز الثلاثين شخصا هو المفضل، إذ يشير الى ضخامة

© Arabic Digital Library Yarmouk University

الوحدة القرابية، والامر الشائع في مدينة اربد هو الانطلاق لتقديم التعازي، ضمن مجموعات لا فرادى، فاعضاء المجموعات القرابية لا يتوجهون لتقديم التعازي بشكل منفرد، وانما يتجه هؤلاء لتقديم التعازي ضمن مجموعات، تضم معظم افراد الوحدة القرابية، وفي كثير من الاحيان يتم استخدام الباصات في الانطلاق الى مكان تقديم التعازي

وامتدادا لما سبق، فان تنظيم واقامة الصلحات العشائرية يكاد يكون من اكثر النشاطات شيوعا، واهمية داخل المضافات، فثمة تقليد شائع في اربد يقوم على افتراض، أن المضافة، باعتبارها تخص الوحدة القرابية كاملة، هي المكان الاكثر ملائمة لتنظيم واقامة الصلحات العشائرية، سيما وأن الخلافات التي تضطلع الصلحات بحلها تتخذ في الغالب بعدا جماعيا يرتبط بكافة أعضاء الوحدة القرابية، وتختلف الجهات المنخرطة في هذه الخلافات، فأحيانا يكون الخلاف بين وحدتين قرابيتين مختلفتين، وفي أحيان أخرى يكون بين مجموعتين داخل نفس الوحدة القرابية، وفي كلا الحالتين فان مكان أجراء الصلح المفضل هو المضافة،

وعلى مستوى ما هو فردي داخل الوحدة القرابية، فانه من الممكن أن تستخدم المضافة - واعتمادا على مقولات مجتمع الدراسة - في مساعدة الأفراد المنتمين لها، وخصوصا الضعفاء منهم حيث تستخدم تسمية «ضعيف» هنا لتشير الى عدم المقتدرين ماديا، فثمة واجبات على الفرد أن يؤديها نحو المجموعات القرابية الاخرى، والتي قد لا يستطيع البعض أن يقوم بها لوحده، وبالتالي فانه يلجأ الى المضافة التي تقوم بتمكينه من أداء التزاماته، ويقول رئيس تحرير إحدى الصحف ذات الميول الإسلامية «من الضروري وجود المضافة، ذلك أن تعرض الفرد لاي كرب أو مشاكل يلزم الفرد بأن ينتمي الى مضافة ما لتقوم بالمساهمة في حل هكذا كرب أو هكذا مشاكل»

اما أسباب الخلافات والتي تؤدي الى ضرورة اجراء الصلحات في المضافة فيه متنوعة وتكاد تشمل كافة انواع النشاطات التي من شأنها أن تسيء الى أو يمس كيان الوحدة القرابية من خلال المساس بأحد أعضائها سواء بشكل مادي ملموس أو بشكل معنوي ، وتحت هذا التعريف فان حوادث كالقتل أو الاعتداء بالضرب، أو الاساءة كلاميا، أو التطاول جنسيا على احدى اناث الوحدة القرابية، وغيرها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من الاعتداءات ضد أحد أعضاء الوحدة القرابية، يمكن ان يتطلب اجراء صلح بين الوحدات القرابية المختلفة، ودائما يتم اجراء الصلح في مضافة الطرف الذي تم تحديده باعتباره المعتدى عليه، في حال امتلاكه مضافة ما، وذلك بعد اجراء الترتيبات الخاصة بالصلح بعيدا عن المضافة وبشكل فردي، حيث يقتصر عمل المضافة على اعطاء الصلح طابعا جمعيا أو عشائريا من خلال مجموعة الاجراءات التي تشتمل عليها عملية الصلح.

ان الصلح الذي جرى داخل مضافة إحدى العشائر وسط مدينة إربد، يعطي صورة عن الطريقة التي تستخدم بها المضافات لاجراء الصلح بين الوحدات القرابية المختلفة، في حال حصول نزاع ما، لقد كان الصلح يهدف الى حل نزاع بين أحد أبناء العشيرة، الذي يعمل صحفيا وناشرا، وهو ابن لرئيس تحرير أحد الصحف ذات الميول الاسلامية، وبين أحد أبناء إحدى العائلات الفلسطينية،أما النزاع، فقد كان بسبب حدوث عراك بالايدي بين هذين الشخصين، نتيجة خلاف على حقوق ترجمة ونشر كتاب، يتضمن مذكرات ضابط في جهاز المخابرات الاسرائيلي، وقد نتج عن هذا الخلاف قيام إبن العائلة الفلسطينية بضرب الشخص الذي ينتمي للعشيرة التي تقطن وسط المدينة، الذي قام بعدها بالحصول على تقرير طبي قطعي من الطبيب الحكومي، مما يعد إدانة للشخص الذي ينتمي الى العائلة الفلسطينية، وقد تم تحديد إبن العائلة الفلسطينية باعتباره معتديا.

لقد تم بحث توقيت الصلح، وكافة تفاصيله خارج المضافة، وكان أحد أثرياء العشيرة، وابن أحد الزعماء القدماء للعشيرة، والذي سبق ورشح هو الذي يناقش ويفاوض نيابة عن العشيرة، وقد قال هذا الثري أنه ناقش معظم الترتيبات المتعلقة بالنزاع مع الشيخ مفلح اللوزي من عمان، الذي وكلته العائلة الفلسطينية كوسيط عشائري، لتحقيق الصلح، وعندما كان يتحدث عن الشاب الذي تعرض للضرب، كان يستخدم تعبير «أحد أبنائنا»، ويتجاهل استخدام اسم الشخص المعتدى عليه معظم الوقت، وقد اكد وبنبرة إفتخار بأن الموافقة على الصلح وشروطه وتوقيته جميعها تمت مناقشته مع الشيخ اللوزي عبر المكالمات التلفونية التي نشطت بينهما عقب الشجار.

لقد تم تحديد احد أيام الجمعة موعدا لعقد الصلح، وفي الساعة الرابعة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تقريبا تجمع عدد من الاشخاص، ومعظمهم من الشباب على المدخل الخارجي للمضافة، الواقعة وسط مدينة اربد، وفي داخل الساحة الرئيسية من المضافة تجمعت أعداد كبيرة من الاشخاص من مختلف الاعمار، وكان الجميع منهمكا في أحاديث ثنائية أو جماعاتية، ولكن الجميع كان في انتظار الجاهة القادمة من عمان، التي يراسها الشيخ مفلح اللوزي، وتضم بعض الشخصيات العشائرية من منطقة الاغوار، وبعض أعضاء الوحدة القرابية التي ينتمي اليها الشخص الفلسطيني، اضافة للشخص الذي تم تحديده باعتباره المعتدي

وعند قدوم الجاهة توجهت مجموعة من حوالي عشرة أشخاص قرب مدخل المضافة، ويبدو انه كان هناك اتفاق على هؤلاء الاشخاص قبل وصول الجاهة، إذ انه وفور وصول الجهة فقد اصطف هؤلاء بشكل تلقائي، ودون تردد، لقد كان على رأس هؤلاء رئيس تحرير أحد الصحف، الذي هو والد الشخص المعتدى عليه، اضافة إلى مدير أحد الدوائر العامة في الأردن، و أمين عام وزارة التعليم العالي في وقت سابق، ووكيل إحدى الوزارات سابقا وأحد الاشخاص الذي يشغل منصبا هاما في وزارة الثقافة، وأحد الاشخاص الذي يعمل أستاذا جامعيا، وأحد المرشحين النيابيين سابقا، وأحد مالكي العقارات الاثرياء، إضافة لأحد المهندسين الذي شغل منصب نقيب المهندسين في إحدى الفترات

وبعد مصافحة الجاهة، جلست الجاهة داخل الصالة الرئيسة في المضافة، في حين بقي معظم اعضاء عشيرة الطرف المعتدى عليه في الساحة الرئيسية للمضافة، وقد جلس رئيس الجاهة الشيخ مفلح اللوزي في صدر المضافة، في حين جلس الاشخاص المهمين من عشيرة الطرف المعتدى عليه على جانبي الشيخ اللوزي لقد افتتح الحديث من قبل أحد أثرياء العشيرة والذي سبق ورشح نفسه للإنتخابات النيابية، بعد وقوفه في مواجهة الشيخ اللوزي الذي بقي جالسا، وقد استخدم اللغة الفصيحة في حديثه، ودعم كلامه ببعض الآيات القرآنية، التي تحث على الإخاء والتسامح، وعلى ضرورة حل الخلافات بين الناس بالعدل، كذلك، رحب المتحدث بالجاهة، وبقدوم الشيخ مفلح اللوزي بعد ذلك، قام الشيخ مفلح بالرد بكلمة ركز فيها على حسن الاستقبال الذي ووجهت به الجاهة، من قبل عشيرة الطرف المعتدى عليه، كذلك، استخدم عبارات تركز على حقيقة أن جميع الحضور هم من المسلمين، مما يفرض شعورا بالتسامح والإخاء بين الجميع، ويوجب عدم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تصعيد أي توتر، ويلزم بملة الخلافات كذلك، ركز الشيخ اللوزي على ما أسماه الصفات الحميدة، التي يتمتع بها الشعب الاردني، والتي تعد عشيرة الطرف المعتدى عليه جزء منه وعبر عن طمعه في كرم عشيرة «المعازيب»، وأن هذا الطمع هو بلا حدود، واضاف، بأن «أهلنا كبير بأهلنا وإخواننا وبقهوتهم، وانشاء الله، ما بنسمع منهم الا الشيء الطيب بالنسبة للصلح وشروط الصلح»

وتلا حديث الشيخ مفلح اللوزي، قيام أحد أثرياء العشيرة ، بالوقوف وإلقاء كلمة إرتجالية، رحب فيها بالحضور والجاهة، وقد استعرض تطورات المشكلة بين الطرفين المتخاصمين، وقد أعلن في نهاية كلمته موافقة عشيرة على الصلح، دون شروط، وطلب من الجاهة أن تشرب القهوة العربية، وكان السيد مفلح اللوزي هو أول من قدمت القهوة له، في حين كان مرافقوا الشيخ مفلح الطرف التالي في تناول القهوة، وبعد تناول «القهوة العربية»، قام شخص سبق وأن عمل مديرا للاذاعة الاردنية في وقت سابق من عشيرة الشخص المعتدى عليه بإلقاء كلمة باللغة العربية الفصيحة، تضمنت بعض أبيات من الشعر الكلاسيكي الذي يعود لعصر الجاهلية، وحيث أكد على تمتع عشيرته بالصفات العربية الأصيلة، التي من أهمها التسامح في حال حصول نزاع.

لقد توجت مراسم الصلح بقيام الطرف المعتدى عليه والطرف المعتدي بمصافحة وتقبيل بعضهما البعض، أيذانا بانتهاء الخلاف.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ج ـ الأنشطة المستحدثة

لقد قامت بعض المضافات في الآونة الاخيرة بإضافة نشاطات جديدة الى قائمة النشاطات التي كانت تمارس داخلها منذ فترة طويلة، فبعض المنفذين داخل المضافات وجدوا، أن من الممكن القيام بعرض التراث المتصل بالوحدة القرابية التي تتبع لها في داخلها من قبيل الصور والوثائق، والهدف من هذا النشاط، كما يقول البعض، هو تعريف أبناء الوحدة القرابية التي تتبعها المضافة وأبناء الوحدات القرابية الأخرى، الذين يزورون المضافة، بتاريخ العشيرة وبالاشخاص المهمين الذين مارسوا تاثيرا في الحياة العامة حاليا، وفي تاريخ الاردن، وتحفل

مضافة التل في وسط إربد بالكثير من الصور المرتبطة بشخصيات معروفة من العشيرة من أمثال الشيخ عبدالقادر التل والشاعر الراحل مصطفى وهبي التل (عرار) ورئيس وزراء الاردن أبان أحداث الحرب الاهلية في الاردن في بداية السبعينيات السيد وصفي التل، ويقوم بعض أفراد عشيرة التل، وخصوصا السيد يوسف عبدالقادر، بإصطحاب زوار المضافة الى الغرفة الواسعة التي يتم عرض الصور فيها، ويقوم بتقديم شرح عن هذه الصور،

وفي محاولة من إحدى المضافات لتكون الرائدة في خلق نشاطات جديدة، فإن إحدى المضافات شهدت، تنظيم معرض للوحات الفنية لاحد أبناء الوحدة القرابية التي تتبع المضافة لها، فقد أقيم في إحدى مضافات عشيرة البصول معرضا فنيا للوحات تتعلق بالتراث الاردني، للفنان عمر البصول، الذي يملك صالونا للحلاقة في المدينة، وخاض الانتخابات البلدية الاخيرة في المدينة، وقد قام الدكتور خالد الكركي وزير الثقافة والشباب آنذاك، ورئيس الديوان الملكي حاليا برعاية افتتاح المعرض، ورافقه أثناء الافتتاح بعض المسؤولين، من قبيل الفريق عبدالرحمن العدوان الذي كان مديرا لشرطة اربد انذاك، اضافة الى السيد جودت السبول وزير الداخلية حاليا، الذي كان محافظا لإربد انئذ،

لقد كان الهدف من اقامة المعرض، كما يقول أحد أثرياء عشيرة البصول (٣٨ عاما)، «هو إثبات أسبقية مضافتنا في إنتاج نشاطات جديدة، حيث هذا المعرض هو الاول من نوعه على مستوى المضافات، وحيث ينسجم هذا النشاط مع أحد أهداف المضافة، والمتمثل بخدمة أبناء العشيرة عن طريق التعريف بمثقفي وموهوبي العشيرة من خلال نشاطات عدة» ،

وعلى الجانب الآخر، فقد قامت مضافة أخرى بتنفيذ فكرة جديدة تتعلق بفئة الشباب داخل الوحدة القرابية، فإنشاء رابطة للشباب تضم شباب إحدى عشائر مدينة إربد من سن ١٨ وحتى سن ٤٠، كان أحد الافكار التي طرحها أحد الاشخاص الذي عمل في جهاز التربية والتعليم (٥٥ عاما) على أعضاء وحدته القرابية، والتي لقيت استجابة مرضية، وان كانت استغرقت وقتا طويلا حتى خرجت الى حيز الوجود، لقد صممت الرابطة لتضم كافة شباب العشيرة ضمن هذه الفئة العمرية، الا أن العديدين رفضوا الانخراط بها لاسباب مختلفة، وقد كان تحفظات

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تجاه ذكر مقاطعة هذه الفئة، وبعد حوالي ثلاث زيارات الى المضافة تحدث أحد اعضاء العشيرة عن هذه الفئة الرافضة، وقد تبين أن رفض هذه الفئة يعود الى خلافهم مع الشخص الذي طرح فكرة إنشاء الرابطة والمحيطين به، ولانه تجاهلهم حين تم توجيه الدعوات لحضور الإجتماع الذي انبثقت منه الرابطة، وقد بين بعض الشباب من هذه العشيرة ومن بينهم أحد الأطباء، الذي أنهى دراسة الطب من الاتحاد السوفييتي، وتم فصله من عمله لأسباب سياسية، أن ثمة محاولات ما زالت تبذل لإقناع هؤلاء بالانخراط في هذه الرابطة، وعدم مقاطعتها.

لقد كان الهدف من انشاء الرابطة، هو توفير نشاطات رياضية وثقافية مختلفة خاصة بأبناء العشيرة يستطيعون قضاء أوقات فراغهم بواسطتها، وكذلك تنمية مواهبهم وطاقتهم من خلالها، والسبب يعود الى النوادي الرياضية والثقافية الموجودة في إربد لا تقوم بالوظائف المناطة بها وإنما انحرفت عن أهدافها، فهدفها، وكما يقول متزعم فكرة الرابطة « هو الحصول على المال، لذا فقد كثرت العاب البلياردو والتي هي محرمة دينيا، وبالتالي فقد كان من الضروري حماية شباب العشيرة من خطر هذه مؤسسات»

وتقدم مضافة بني هاني مثالا لمحاولات تطوير النشاطات التي تجري داخل المضافات، فقبل حوالي ٨ أشهر تقدم أحد ابناء عشيرة بني هاني من العاملين في جهاز الامن العام برتبة مقدم، ويحمل درجة الماجستير في الاقتصاد من الجامعة الاردنية، تقدم باقتراح لمساعدة أبناء العشيرة من غير القادرين ماديا، وممن هم بحاجة الى بعض أنواع الرعاية الطبية، وينص الاقتراح على قيام ابناء العشيرة من الأطباء، وممن يملكون عيادات في مدينة إربد، بإحضار بعض الاجهزة الطبية الضرورية، ووضع هذه الاجهزة في الجزء السفلي من المضافة لإجراء الفحوصات الطبية لمن يحتاجها من «أبناء العشيرة» ووفقا لقول مقدم الاقتراح «فانه لم تكن هناك استجابة مشجعة من قبل الأطباء لهذا الاقتراح»

وضمن نفس المحاولات الرامية الى تطوير أنشطة المضافات، يقول أحد شباب إحدى عشائر البارحة (موظف ٣٠ عاما)، انه قدم اقتراحا، في الفترة التي سبقت الانتخابات النيابية الاخيرة في الاردن، يقضي بتنظيم بعض اللقاءات بين بعض المرشحين للانتخابات النيابية، إلا أن هذا الاقتراح ووجه بالرفض، وتم

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إحباطه، وهو يقول أن أحد أهم الرافضين لهذا الاقتراح، كان شخص يعمل مقدما في جهاز المخابرات العامة، كذلك، يقول أنه غير راض عن أنشطة المضافات الحالية، لإنها «تقليدية»، وهو يعتقد أن من الضروري خلق نشاطات (جديدة وحديثة) داخل المضافات، وأن من الضروري أن تكون هناك أنشطة ثقافية وسياسية داخل المضافات من قبيل الأمسيات الشعرية، أو المناظرات الانتخابية.

د ـ توسع الأنشطة السياسية في المضافات

ويحاول كثير من رواد المضافات في الآونة الأخيرة تطوير نشاطاتها، بل وحتى خلق نشاطات جديدة في محاولة لمواجهة التغيرات الاقتصادية ـ الاجتماعية التي طرأت داخل البناء الاجتماعي في مدينة إربد، وأحيانا للاستجابة الى سلسلة من الاحداث التي تطرأ على المستوى الوطني أو على المستوى الاقليمي. وفي الغالب فأن هذه النشاطات تكون موجهة نحو أعضاء الوحدة القرابية، وفي أحيان أخرى تكون موجهة نحو هدف خارجي يتجاوز اطار الوحدة القرابية، وربما يتجاوز إطار مدينة إربد.

إن بعضا من هذه المحاولات يمكن فهمه من خلال القول بأن ثمة اتجاها متناميا أخذ في التبلور والذي بمقتضى شروطه أصبحت السيطرة لما هو سياسي، في حين تراجع ما هو اجتماعي من مجموعة النشاطات، التي اعتادت المضافة أن تحتويها، ويتضمن ما هو سياسي الامور المتعلقة بالبناءات السياسية في الاردن من سلطة تشريعية وأخرى تنفيذية وما ينبثق عنها من مؤسسات، وبناءات أخرى على مستوى القاعدة من احزاب ونقابات واتحادات، كذلك فان ماهو سياسي قد يشير الى الفعل أو الممارسه الذي يصدر عن هذه البناءات، ويمكن القول ودون تردد أن البناءات السياسية والحدث السياسي المتكون في منطقة الشرق الاوسط يلعب دورا كبير الاهمية فيما يتصل بالنشاطات التي تشهدها المضافات، وفيما يتصل بمحاولات تطوير أنشطة المضافات وعملها.

ويمكن القول أن عددا من هذه النشاطات ذات الطابع السياسي يتعلق بالخلافات التي اخذت تنتشر في الاونة الاخيرة بين بعض الشخصيات المتنفذة داخل

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الوحدة القرابية أو داخل المضافة والتي تنعكس بدورها على بنية الوحدة القرابية بشكل كامل أو جزئي، وفي الغالب فان هذه الخلافات ترتبط بشخصيات هي ذات سمات قيادية تعتمد على السن أو الوراثة أو الملكية ذات المعنى أو بين شخصيات تتصل بالجهاز البيروقراطي في الاردن، أما أسباب الخلافات فهي متنوعة وقد تتمثل في خلاف حول زواج أحد أبناء الوحدة القرابية من فخذ معين لفتاة من نفس الوحدة القرابية ولكن من فرع آخر، أو تتجسد بخلاف حول شخصية المرشح المحتمل للوحدة القرابية للإنتخابات النيابية في الأردن، أو البلدية في إربد، أن التوسع في الحديث عن هذه الخلافات وأسبابها سيكون في فصل آخر يتحدث عن رواد المضافات وخصائصهم وطبيعة العلاقات بينهم.

أن تغلب ما هو سياسي في أنشطة المضافات، يمكن ملاحظته وتلمسه حتى عندما يتحدث أعضاء الوحدات القرابية أنفسهم عن عمل المضافة، فمعظم العناصر المتنفذة داخل المضافات تدرك الامكانيات السياسية الكامنة في نشاطات المضافات، كذلك فان ثمة ادراك عند البعض أن الخلافات الناشبة داخل الوحدة القرابية، أو داخل المضافة هي في غالبها ذات طابع سياسي، فرئيس تحرير إحدى الصحف يرى أن «المضافات أصبحت تستعمل كمكان لحل الخلافات داخل العشيرة، والتي أصبحت تنتج عن تشابك وتعارض المصالح (السياسية) بين أفراد العشيرة، حيث تحدث بعض المشاكل في أثناء فترات الانتخابات» وقد أشار إلى خلاف نشب حول رغبة أحد أثرياء العشيرة بترشيحه في الانتخابات، وقيام شخص آخر من العشيرة بترشيح نفسه، وهو ما أدى الى حدوث خلاف، تم احتوائه داخل المضافة.

وتتقدم مواسم الانتخابات سواء كانت نيابية على المستوى الوطني أو بلدية على مستوى مدينة اربد تجسيدا لهيمنة ما هو سياسي في أنشطة المضافات، ففي كثير من الاحيان، فان نقطة انطلاق المرشح الانتخابي هي مضافة وحدته القرابية، حيث يعمد المرشح الى تأمين دعم أعضاء وحدته القرابية من خلال العمل داخل المضافة، والتقائه بهم داخلها، وفي الغالب، فانه يطرح مسألة ترشيحه للانتخابات على اقربائه داخل المضافة، ومن هناك يعلن عن دخوله حلبة التنافس للفوز بالمقعد المقصود، كذلك، فان النقطة اللاحقة، التي أصبح كثير من المرشحين يتجهون اليها بعد كسب تأييد وحدتهم القرابية، هي مضافات الوحدات القرابية الاخرى، حيث يحاول المرشحون تنظيم تحالفات مع الوحدات القرابية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المختلفة من خلال الالتقاء بها في مضافاتها، ويقول المهندس محمد ضيف الله الرشيدات أن المحامي نجيب إرشيدات قام بعرض رغبته في الترشيح على اقاربه داخل المضافة في البداية، وقد حاول الحصول على موافقة الجميع، وقال أنه كان يناقش مسألة ترشيحه مع كل فرد داخل المضافة.

لقد كشفت الانتخابات النيابية الأخيرة التي أجريت في الأردن في العام ١٩٨٩م حجم الدور الذي لعبته المضافات في تلك الانتخابات حيث جرت تحالفات كبيرة بين المرشحين من خلال مضافاتهم، ويمكن القول أن معظم المضافات في الفترة التي سبقت الانتخابات بأشهر قد فتحت أبوابها بشكل يومي لاستقبال أعضاء الوحدات القرابية، التي تتبع لهم المضافات، وأحيانا لاستقبال أعضاء الوحدات القرابية المجاورة لكسب التأييد والدعم، إضافة إلى أن المرشحين أنفسهم قاموا وبشكل يومي بالتقاء الناخبين في المضافات وحيث عمدوا الى الحديث عن برامجهم الانتخابية وتاريخهم الشخصي في محاولة لكسب جمهور المضافات.

لقد وفرت المضافات خلال فترات الانتخابات منابر للعمل لبعض الشخصيات الساعية للنفوذ والسلطة السياسيين، فيما حاولت الوحدات القرابية من خلالها اختيار مرشح مناسب يمثلها، لقد حاول المرشحون الذين وقع عليهم الاختيار كسب أعضاء الوحدة القرابية التي ينتمون اليها، وفي نفس الوقت الوصول الى جمهور الناخبين من أعضاء الوحدات القرابية الاخرى، اضافة الى محاولتهم اجراء تحالفات مع الوحدات القرابية الاخرى ومعظم ذلك تم من خلال المضافات.

الا أن الحذر يستدعي التنويه بأنه وجنبا الى جنب، فان ثمة منابر أخرى لجأ اليها الراغبون في ترشيح أنفسهم لخوض الانتخابات، حيث كان الحديث يجري عن اجتماعات لاعضاء بعض النقابات في اربد لاختيار مرشحين معينين يحظون بمؤازرة النقابات، في حين كان حديث آخر يدور عن قيام بعض الاحزاب - بالرغم من الحظر الرسمي لها- باختيار مرشحين لها في الانتخابات، كذلك فان كثيرا من التحالفات كانت تتم من خلال التنسيق بين مؤسسات مدنية كالنقابات أو تنظيمات سياسية كالاحزاب.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعلى صعيد الأنشطة المرتبطة بالحدث السياسي على مستوى منطقة الشرق الاوسط، فقد أبرزت أحداث الخليج في العام ١٩٩٠ والعام الذي تلاه، الإمكانيات التي قد تتيحها المضافات لبعض الشخصيات في الاستفادة من هكذا أحداث. لقد شهدت بعض المضافات اجتماعات يومية للعديد من الرواد، ومن مستويات اجتماعية وتعليمية مختلفة، اعتادت أن تناقش ما يجري من تطورات على صعيد الأزمة، مع متابعة آخر تطوراتها من خلال متابعة النشرات الإخبارية في التلفزيون الذي يقبع في ركن ما من المضافة.

وإضافة لما سبق، فإن بعض المضافات شكلت أطرا ذي مغزى، فيما يتعلق بتنظيم العمل الجماعي لمساعدة العراق، في نزاعه مع الولايات المتحدة وحلفائها، فالكثير من المضافات (كمضافة الحتاملة والطبيشات والكوفحي وغيرها) شهدت حملات لتنظيم التبرعات للعراق، حيث تم جمع كميات كبيرة من الاغذية ووضعها في شاحنات، ومن ثم ارسالها الى العراق، وفيما يتعلق بمضافة الحتاملة فان جمع التبرعات تم بالتعاون مع أحدى النقابات في اربد، ويؤكد أحد أبناء منطقة البارحة أن مضافة بني هاني في البارحة، كانت المضافة الأولى التي شهدت حملات لجمع التبرعات للعراق، وبعدها قامت مضافة الطبيشات التي تتبع فرع «سحيمان» بتنظيم حملة مشابهة، وكذلك فعلت المضافات الأخرى، مثل مضافة الكوفحي، والبصول.

٣ ـ الخلاصة:

تتيح دراسة التغيرات التي طرأت على صعيد عوامل نشوء المضافات ملاحظة التأثير الكبير الذي يلعبه العامل السياسي، لقد حدثت تطورات إقتصادية مختلفة كان أهمها تراجع النشاط الزراعي في المدينة أمام تقدم وتنامي أنشطة مختلفة من قبيل التجارة والخدمات، والصناعة على نطاق ضيق، إلا أن التنامي الكبير في الأنشطة الإقتصادية يتجسد في تضخم الجهاز البيروقراطي الحكومي في الأردن عموما، وفي المدينة على وجه التحديد.

لقد عمل نمو الجهاز البيروقراطي الذي نتج عن تطورات إقليمية وعالمية

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

على إنخراط أعداد كبيرة من قوة العمل في هذا الجهاز، وتتشكل غالبية أعضاء هذه الجهاز من الفئات التي تلقت تعليما تتفاوت مستوياته لقد كان من شأن هذا التطور أن أصبح العاملون في الجهاز البيروقراط الفئة الأكبر داخل البناء الإجتماعي، وبالتالي مزيد من التأثير لهذه الفئة في مختلف المؤسسات الاجتماعية، ويلاحظ أن هذا التأثير إمتد ليشمل المضافات التي زادت أعدادها بعد سنوات السبعينيات.

ويترافق مع تضخم الجهاز البيروقراطي، سيادة خطاب رسمي يشجع البناء العشائري، ويعمل على بروز المضافات وإزدهار عملها، وكثيرا ما يفهم الخطاب الرسمي، وخصوصا الملكي، على أنه يحوي إشارات ضمنية وصريحة تشجع البناء العشائري، وهو ما يدفع الكثيرين للاستجابة بطريقة تزيد من أعداد المضافات، وتشجع أنشطتها.

وفيما يتصل بملكية المضافات، فقد أصبحت ملكيتها جماعية، وتعود لكامل أعضاء الوحدة القرابية، ويطلب من جميع أعضاء الوحدة القرابية المساهمة في نفقات التأسيس وتمويل الأنشطة المختلفة التي تجري من خلال المضافات.

ويمكن القول أن ثمة اتجاه للتغير فيما يتعلق بأنشطة المضافات في العقود الاخيرة، وأن اتجاه هذا التغير، هو نحو أعضاء الوحدة القرابية نفسها التي تتبع المضافة لها، بعد أن كانت أنشطة المضافات، موجهة لتلبية متطلبات تنبع من خارج الوحدة القرابية في الغالب، كذلك فان ثمة تغير في نوع الانشطة التي تمارس من خلال المضافات، إن معظم الأنشطة هي ذات طابع سياسي.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الرابع

الخصائص الديموغرافية والإجتماعية
لرواد المضافات وتطور الزعامة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مقدمة

لقد اتضح من النقاش في الفصل السابق، أن المضافات حاليا، أصبحت تشكل إطارا لممارسة أنشطة مختلفة تجمع بين أشخاص ذوي خصائص إجتماعية مختلفة، ومن الدلائل على حدوث تغير في أنشطة المضافات، هو ذلك التغير الذي طرأ على التسمية المتعلقة بالمضافة، لقد أصبحت التسمية الشائعة الآن، هي «الديوان» ولم يعد الكثيرون يصرون على تسمية المضافة، إن كبار السن يميلون لاستخدام التسمية القديمة، اي مضافة، في حين أن متوسطي العمر والشباب، يميلون لاستخدام تسمية الديوان،

ويمكن الجدل بأن التسمية تعكس فروقات يضعها مجتمع الدراسة حول الوظيفة التي تقوم بها المضافات، إن مفهوم المضافة، يوحي بمضامين فردية بالدرجة الأولى، حيث ارتبطت المضافة في الفترات السابقة، بمالك فرد، متميز إقتصاديا وإجتماعيا داخل وحدته القرابية، أما مفهوم الديوان، فهو يعطي بعدا جمعيا أو جماعيا، وبدلا من ارتباط المضافة بمالك فرد، أصبح ارتباطها بمالك جماعي، هو الوحدة القرابية، وبعد أن كانت المضافة تمول من قبل ذلك الفرد المتميز اقتصاديا، أصبح التمويل مرتبطا بأعضاء الوحدة القرابية، ويطلب من الجميع المساهمة في نفقات التأسيس، وفي نفقات التشغيل، ونفقات النشاطات المختلفة، حيث تتفاوت هذه المساهمة من شخص لآخر داخل الوحدة القرابية،

وتقدم مضافتا عشيرتي بني هاني والبصول، نموذجا لإسلوب بناء الكثير من المضافات، ويقول أحد ابناء عشيرة البصول، أن كلفة المضافة وصلت الى أكثر من ٢٠ الف دينار، ويزيد مسطح بناء المضافة عن مساحة ٣٠٠م مربع، وقد تم تغطية مبلغ العشرين ألف دينار، من خلال مشاركة معظم أبناء العشيرة، أن قطعة الارض اللازمة للبناء، تم التبرع بها من قبل أحد أبناء العشيرة، أما الاشراف على تصميم وبناء المضافة، فقد كان من قبل شخص آخر يعمل مهندسا، وقد ساهم «أبناء العشيرة» ممن يملكون خبرة باعمال البناء، ساهموا في بناء المضافة من خلال خبراتهم، ودون الحصول على أجور، مقابل ذلك، إضافة إلى مساهمتهم المالية في نفقات التأسيس، إن مساهمة «أبناء العشيرة» عملت على تخفيف نفقات إقامة المضافة، وبدون هذه المساهمة لزادت تكاليف البناء عن مبلغ العشرين ألف دينار الذي تم إنفاقه فعلا.

وتتيح مضافة بني هاني مثالا آخرا، ويروي أحد أبناء العشيرة الكيفية، التي تم وفقها بناء المضافة، فعند اتخاذ القرار ببناء المضافة، قام أحد أبناء العشيرة بالتبرع بقطعة الارض، وقام شخص آخر بالتبرع بجرافة لتسهيل الارض، التي ستقام عليها المضافة، وقد بلغت كلفة بناء المضافة أكثر من اربعين ألف دينار، وهي تتكون من طابقين، إن المضافة تتسع لأكثر من ١٠٠ شخص في نفس الوقت، وهي تستطيع تقديم الطعام في المناسبات، التي يعد من الضروري تقديم الطعام أثنائها، إن كلفة بناء المضافة، لم يتم تغطيتها من حساب شخص واحد، وإنما كان قرار إنشاء المضافة من قبل عدد كبير من أفراد العشيرة، وقد قام هؤلاء بتمويل نفقات إقامة المضافة، وتتميز مضافة عشيرة بني هاني بشكلها الدائري، وينفي أحد أبناء العشيرة أن يكون الشكل الدائري للمضافة، مرتبطا بخلافات داخل العشيرة حول من يجلس في «صدر» المضافة، وهو يقول أن الشكل الدائري جاء نتيجة التصميم الذي قام به، أحد المهندسين من «أبناء العشيرة»

إن التغيرات التي طرأت على صعيد النشاطات التي تتم ممارستها داخل المضافة، وعبرها، ترافقت مع مجموعة من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية داخل البناء الاجتماعي، كان أبرزها التغير على صعيد شروط الزعامة ومواصفاتها، وترافق مع التغيرات السابقة تغيرات على صعيد الخصائص الديموغرافية والإجتماعية التي يتصف بها الاشخاص والجماعات التي تتردد على المضافات،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وتمارس أنشطتها من خلالها،

ويمكن تحديد المقصود بالخصائص الديموغرافية، من خلال القول أن الدراسة ستتطرق إلى الجانب المتعلق بجنس الجماعات والافراد التي ترتاد المضافات، وأنها ستتطرق أيضا إلى الفئات العمرية التي تدخل ضمنها هذه الفئات، أما المقصود بالخصائص الإجتماعية، فهو يتضمن تحليل المزايا المتعلقة بالمهن والمستويات التعليمية، ومكان الدراسة، التي ترتبط برواد المضافات في الفترة الحالية، ويحمل التحديد الإجتماعي أيضا مضامين أيديولوجية تتعلق برواد المضافات من حيث انتماءاتهم ونظرتهم لعلاقاتهم بوحداتهم القرابية والمضافة والدولة وغيرها،

كذلك، يرتبط بالتحديدات السابقة، التمييز الذي يقوم على تحديد مدى ارتباط الشخص بالمضافة من حيث التواجد بها والمشاركة بنشاطاتها، وبذلك، فإن من الضروري الأخذ بعين الإعتبار التقسيم الذي يقوم على التمييز بين شخص يتردد باستمرار على المضافات، وآخر يتردد بشكل متقطع، وآخر يقاطع المضافة، ويرفض المساهمة بنشاطاتها، ويمكن التأكيد على وجود علاقة بين الخصائص الإجتماعية والديموغرافية للشخص ومدى تردده على المضافة أو رفضه لنشاطاتها،

١ ـ التحديد الديموغرافي لرواد المضافات:

تتيح الملاحظة البسيطة لما يجري داخل المضافات من نشاطات، ولطبيعة الاشخاص المشاركين بهذه النشاطات، القول بأن المضافات، في الوقت الحالي، هي أماكن خاصة بالذكور بشكل اساسي، وأن معظم النشاطات يقوم بها أفراد ذكور، في حين أن هناك مناسبات محدودة قد تجري بمشاركة نساء فيها، إن طبيعة النشاط المقام داخل المضافة يلعب دورا في تحديد الجنس الذي بإمكانه المشاركة، وعموما، فإن معظم المضافات لا تشارك المرأة فيها بأي دور في النشاطات المختلفة، غير أن هناك بعض المضافات التي يكون بالإمكان ملاحظة مشاركة نسائية فيها، إلا أن هذه المشاركة تتعلق فقط بمناسبة محددة؛ وهي إقامة حفلات الأعراس المتعلقة بأحد أبناء الوحدة القرابية من الذكور، وتقتصر مشاركة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

النساء على دور احتفالي، حيث تقوم النساء من الوحدة القرابية التي ينتمي إليها العريس، بأداء بعض الأغاني والرقصات داخل المضافة.

إن النشاطات المختلفة التي تم الحديث عنها، من قبيل نشاطات حل النزاعات، وتلقي التعازي، وتنظيم التحالفات العشائرية من أجل خوض انتخابات ما، أو حتى مناقشة طلب لخطوبة احدى بنات الوحدة القرابية، لا تنخرط فيها أي من نساء الوحدة القرابية، ويقتصر الدور الذي يمكن للمرأة أن تمارسه داخل المضافات على تنظيف المضافات وتجهيزها لاستقبال الزوار، كذلك، فان بعض الامور المتصلة بتحضير «القهوة العربية» التي تقدم باستمرار داخل المضافات جميعها، أو تحضير الطعام في حالات العزاء، أو في حالات الصلحات العشائرية، يمكن للمرأة فيها دخول المضافة والتردد عليها، وإجمالا، فإن دور المرأة هو مستتر، اذ لا يمكن للمرأة أن تبرز أمام رواد المضافات، ويقتصر عملها داخل المضافات على دخول المطبخ المتصل بالمضافة، أو دخول المضافة في الوقت الذي يسبق وصول الزوار ويكون لأغراض التنظيف، وتجهيز المضافة لإستقبال هؤلاء الزوار.

ولا ترتبط المضافات حاليا بتقسيم للعمل تنخرط به النساء داخل الوحدات القرابية التي تملك المضافات وينبغي الانتباه الى أن هناك بعض المضافات التي لا تعود ملكيتها للوحدة القرابية بكاملها، وإنما تعود ملكيتها لفرد متقدم في السن، ويرى في المضافة استمرارية لمضافة بناها والده أو جده، ففي الوقت الذي تقوم فيه زوجة وبنات مالك المضافة بالأعمال الضرورية لخدمة المضافة وزوارها، فإن المضافات التي تعود ملكيتها للوحدات القرابية، يتم القيام بعمليات الخدمة الضرورية للمضافة من خلال بعض الإناث في الوحدة القرابية، حيث تتنوع هويتهن، وفي الغالب، فإن النساء غير العاملات، وغير المتعلمات من زوجات وبنات بعض أعضاء الوحدة القرابية، يقمن بهذه الأعمال.

أما الجانب الديموغرافي الآخر المتعلق برواد المضافات، فيتجسد في عامل السن، ويلعب هذا العامل دورا مهما في تحديد مشاركة الفرد في النشاطات التي تتم ممارستها داخل المضافات.

إن المضافات، التي يمكن التعامل معها باعتبارها مؤسسات يحتكرها الرجال،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

تتيح حاليا للأفراد، ممن بدأوا في الوصول إلى السن الذين يتخطون فيه مرحلة الصبا، المشاركة في نشاطاتها، ولا يمكن إستثناء شرائح عمرية كثيرة وكبيرة من الإنخراط في أنشطة المضافات وإجمالا، يمكن القول بأن كافة الفئات العمرية من سن الخامسة عشرة تقريبا يلاحظ ترددها على المضافات، بل والمشاركة أحيانا في بعض النشاطات، وفي الغالب، فإن مشاركة أصغر الفئات سنا تكاد تقتصر على توزيع القهوة على الضيوف.

وإجمالا، فانه يمكن القول أن هنالك انخفاضا في نسبة الأشخاص الذين يترددون على المضافات ممن تتجاوز أعمارهم الستين عاما، وأصبحت معظم المشاركة تتركز في القطاعات الأكثر شبابا، ويحاول البعض من رواد المضافات إعطاء تفسيرات لإسباب هذا الانخفاض، فالسيد توفيق حتاملة يرى بأن مشاركة كبار السن انخفضت، وكذلك إنخفض ترددهم على المضافات، نظرا لأن المضافات الآن أصبحت مفروشة بأثاث «حديث» ولم تعد مفروشة بالفراش العربي الذي يتيح لكبار السن الجلوس على الارض.

وبالرغم من القبول الاجتماعي لتواجد معظم الفئات العمرية التي تزيد عن الخامسة عشر عاما، فإنه يمكن الحديث عن سمات خاصة تميز غالبية المضافات، من حيث الفئات العمرية لروادها وللمشاركين في أنشطتها.

إن بعض المضافات تشهد ترددا أكبر للفئات العمرية التي تتخطى سن الخمسين، وفي الغالب، فإن هذه المضافات تفتح أبوابها بشكل يومي، وهي تشكل مكانا مقبولا ومفضلا لكبار السن للإلتقاء، وتبادل الأحاديث، وتناول «القهوة العربية»، ولا يرتبط رواد هؤلاء المضافات بوجود مناسبة معينة داخل المضافة، وانما يقومون بالتردد عليها لقضاء أوقات فراغهم، إن هذه الفئات هي في الغالب ممن بلغوا سن التقاعد، ويمكن اعتبار مضافة التلول افضل تجسيد لهذا النوع من المضافات، فموقع هذه المضافة، في وسط مدينة إربد، واستمراريتها لعقود طويلة، يشكلان حافزا للتردد عليها من قبل الكثيرين، بل أن زيارتها هي بمثابة «عادة» لدى البعض، في حين أن التردد عليها يرتبط بنوع من الحنين (Nostalogia) لدى البعض الآخر، الذي اعتاد التردد على المضافة في فترات مبكرة من حياته.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويتردد على هذه المضافة بشكل يومي، بدء من الساعة الرابعة ظهرا تقريبا، أعداد كبيرة من الأشخاص، من عشيرة التلول، ومن الوحدات القرابية المختلفة في إربد، والمناطق المجاورة للمدينة، وفي الغالب، فإن هؤلاء هم من غير العاملين أو من المتقاعدين، وإن كان يتواجد في بعض الأحيان بعض الأشخاص من البيوت المجاورة للمضافة، ومن العاملين بمهن مختلفة، ويمكن ملاحظة وجود بعض المرتادين في الساحة الرئيسية والمكشوفة من المضافة، في فصل الصيف والأيام الدافئة، في حين يتواجد الزوار في فصل الشتاء والأيام الباردة داخل إحدى الغرف، وتدعم الصور النمطية لدى بعض أعضاء الوحدات القرابية الأخرى في إربد عن الفئات العمرية لرواد هذه المضافة، الملاحظة المباشرة للدارس، فالبعض، يرى أن مضافة التلول لا يمكنه التردد عليها، بالنظر لتواجد كبار السن فيها بشكل دائم.

إلا أن مضافة عشيرة التلول تشهد ترددا كبيرا لفئة الشباب في المناسبات المختلفة التي تجري داخل المضافة، لقد أتاحت الملاحظات المباشرة من خلال زيارة المضافة في وقت لا تشهد في أي مناسبة، وزيارتها في الاوقات الذي تشهد فيه مناسبة معينة تسجيل إختلاف في الفئات العمرية لرواد المضافة، لقد لوحظ أن معظم المتواجدين داخل المضافة في الأيام العادية هم من كبار السن، في حين يتواجد عدد قليل من الشباب، أما في المناسبات، مثل مناسبة إجراء الصلح العشائري فقد كانت غالبية الموجودين من فئة الشباب.

وفي الوقت الذي ترتبط فيه بعض المضافات، بفئة كبار السن، الذين يتواجدون باستمرار بداخلها، فإن بعض المضافات، ترتبط بتردد اكثر كثافة لفئات الشباب عليها، والمشاركة النشطة في أنشطتها، والمناسبات المقامة داخلها، إن مضافات عشائر الحتاملة والطبيشات والرشيدات، تشهد ترددا كثيفا لفئات الشباب، ممن هم في سن العمل، وهذا التردد يومي، بالنسبة لمضافة الرشيدات، وفي المناسبات، بالنسبة لمضافتي الطبيشات والحتاملة، ففيما يتعلق بمضافة الرشيدات، فهي تفتح أبوابها بشكل يومي، ويتردد بعض الشباب من أبناء العشيرة إلى المضافة، حيث يمارسون بعض الألعاب، وخصوصا لعب الورق، في حين، أن تردد الشباب على مضافة الحتاملة، يمكن أن يعزى إلى وجود «رابطة للشباب» تم إنشائها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

من خلال المضافة، بل هي تتفرع عن المضافة، وقد عمل على إنشاء الرابطة أحد أعضاء العشيرة، الذي سبق وأن عمل مشرفا تربويا، ويملك الآن محلا تجاريا شرق المدينة، وساهم في تنفيذ الفكرة أيضا، إضافة الى أحد الأساتذة الجامعيين من عشيرة الحتاملة، وتضم هذه الرابطة الشباب ممن هم فوق سن الثامنة عشرة وحتى سن الاربعين تقريبا، بغض النظر عما إذا كانوا متزوجين أم لا.

ويمكن الجدال، بأن مشاركة الفئات الشابة ترتبط بشكل كبير، بالنظرة الإجتماعية التي تعطي وزنا لضخامة عدد أعضاء الوحدة القرابية، ففي المضافات التي تتبع وحدات قرابية كبيرة، وتشهد ترددا كبيرا لأبناء الوحدة القرابية، فإن مشاركة الشباب، تقل في الغالب، ويمكن أن يعزى ذلك، الى أن هناك نظرة إجتماعية تعطي مكانة متميزة نسبيا لكبار السن، وبالتالي، فإن كبر الوحدة القرابية، يعني تواجد أعداد كبيرة من كبار السن فيها، وبالتالي يمكن لهؤلاء إشغال الحيز داخل المضافة وإعطاء الإحساس بأن الوحدة القرابية، هي كبيرة عدديا، أما في حال عدم تردد أعداد كبيرة على المضافة، وعدم وجود أعداد كبيرة من المتقدمين في السن، فإنه يصبح عندها من الممكن للشباب التواجد داخل المضافة، وبذلك، فإنه يمكن القول أن هناك أولوية تعطى لمشاركة كبار السن داخل المضافات.

٢ ـ التحديد الإجتماعي

لم تتباين الخصائص الإجتماعية لرواد المضافات في الماضي كثيرا، بالنظر إلى أن معظم النشاط الاقتصادي كان يتركز في قطاعات الزراعة أو الفلاحة والرعي، وكان معظم رواد المضافات هم من العاملين بالزراعة بالدرجة الأولى، ومن مالكي الأراضي بشكل أقل، وكانت الهرمية الاجتماعية تتحدد من خلال العلاقة بالاراض الزراعية من حيث الملكية أو الاستئجار أو العمل بها، ومع تطور الانشطة الاقتصادية وتباينها وتزايد أعداد المتعلمين، منذ عقد الستينيات، والتي تسارعت وتيرة تطورها بعد عقد السبعينيات، فان الخصائص السوسيولوجية لرواد المضافات، أصبحت تتباين بشكل كبير،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعند تناول الخصائص الإجتماعية لرواد المضافات في الفترة الحالية، يمكن البدء من خلال القول أن أحد التحولات الأساسية التي طرأت على صعيد الخصائص الإجتماعية لرواد المضافات، هو التحول من رواد يتكون معظمهم من «الغرباء» أو القادمين من مناطق بعيدة نسبيا، الى رواد يتكونون في معظمهم من نفس الوحدة القرابية، التي تتبعها المضافة، أو من نفس المدينة، وبصورة أقل من المناطق المحيطة بها.

وقد أصبحت الخصائص الإجتماعية لهؤلاء الرواد في الفترة الحالية، تتباين كثيرا، ولا يمكن الحديث عن هؤلاء الرواد من خلال اعتبارهم فئة متجانسة إجتماعيا، بمعنى أنها متجانسة تعليميا ومهنيا وأيديولوجيا، ويظهر التمايز كبيرا بين هؤلاء الرواد من خلال الزيارة العادية للمضافات التي تفتح أبوابها يوميا، ومن خلال الزيارة للمضافات التي تجري فيها أحدى المناسبات.

ويظهر التمايز أو التباين واضحا، فيما يتعلق بالمستويات التعليمية لرواد المضافات في الفترة الحالية، أن هذا التمايز يمتد ليشمل فئات لم تتلقى أدنى قدر من التعليم، أي أمية، وفئات أخرى حصلت على أعلى الدرجات التعليمية؛ أي درجة الدكتوراة، وتعطي مضافات الرشيدات والحتاملة والتل والخريسات أمثلة على هذا التباين، فمن بين رواد هذه المضافات، أشخاص مسنون لم يحصلوا على أي قدر من التعليم، وهناك أشخاص حصلوا على درجات الدكتوراة، أما أكبر الفئات المتعلمة التي ترتاد المضافات، فهي فئة المتعلمين الجامعيين، الذين يحملون درجة البكالوريوس.

وتدعم نتائج الاستبيان الذي تم توزيعه على رواد بعض المضافات، الافتراضات حول التباين الواسع للمستوى التعليمي الذي يتسم به رواد المضافات، فمن بين ١٠٠ شخص شملهم الاستبيان، كان هناك ٥١ شخصا، أي أكثر من نصف العينة ممن تلقوا تعليما عاليا، وهو يتضمن التعليم المتوسط في كليات المجتمع والتعليم العالي الجامعي، كذلك، فقد كان هناك ٤٢ شخصا ممن لم يحصلوا على أي قدر من التعليم، في حين حصل بعضهم على التعليم الأساسي والثانوي، وتتضمن العينة بعض الأشخاص ممن يحملون درجات الماجستير والدكتوراة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

جدول يبين تباين المستويات التعليمية لإفراد العينة

المستوى التعليمي	التكرار	النسبة المئوية
أقل من ثانوي	٤٢	٤٢
تعليم عالي	٥١	٥١
دراسات عليا	٧	٧
المجموع	١٠٠	١٠٠

وتشير الاستنتاجات المتحققة من خلال الاستبيان إلى التنوع الكبير في مهن رواد المضافات، فهناك من سبق له وأن عمل في الجهاز الإداري الحكومي، وقد أحيل على التقاعد، وهناك من يعمل في الجهاز الإداري حاليا، في حين أن هناك نسبة ليست بالقليلة تعمل في ميادين العمل الخاص، سواء من خلال المهارات الفنية التي تملكها، أو من خلال المصالح الخاصة التي أنشأتها، فثمة محامين، وأطباء ومهندسين وفنيين يعملون في القطاع الخاص، ويترددون على المضافات.

توزيع المهن التي يمارسها أفراد العينة:

العمل	التكرار	النسبة المئوية
متقاعد	١٠	١٠
عسكري	٥	٥
موظف حكومة	٣٢	٣٢
موظف خاص	٤	٤
عامل غير فني	٣	٣
عامل فني	٥	٥
تاجر	٧	٧
عمل حر	٧	٧
مهندس	٣	٣
طبيب	٣	٣
طالب	١٤	١٤
غير موجود	٧	٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد تكونت النسبة الكبيرة من رواد المضافات المشمولين في الإستبيان، من العاملين في الجهاز البيروقراطي، بقطاعيه المدني والعسكري وهي تدعم الاستنتاج القائل بأن النسبة الكبرى من رواد المضافات تعمل في الجهاز البيروقراطي، إن ما نسبته ٤٧ بالمئة من افراد العينة هم ممن يعملون في الجهاز البيروقراطي الحكومي، أو ممن سبق لهم وأن عملوا فيه، ويشمل هذا العدد أولئك العاملين في الجهاز المدني من الجهاز وأولئك العاملين في الجهاز العسكري منه، ويلاحظ من نتائج العينة إختفاء العاملين في النشاطات الزراعية، في حين كانت هناك نسبة معقولة من العاملين في النشاط التجاري.

أما البلدان التي أنهى منها المتعلمون من رواد المضافات تعليمهم، فهي تتباين أيضا من حيث النظم الإقتصادية والإجتماعية، وإن كانت غالبيتهم قد تلقت تعليمها في الاردن، فهناك من أفراد العينة من تلقوا تعليمهم في دول عربية، كلبنان، وسوريا، والعراق، ومصر، والسعودية، وهناك من تلقوا تعليمهم في بعض دول العالم الثالث، كالهند وتركيا، وهناك من أنهوا تعليمهم في دول غربية من قبيل بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، واسبانيا، إضافة إلى من أنهوا تعليمهم من دول المنظومة الاشتراكية، من قبيل الاتحاد السوفياتي، ويوغسلافيا، ورومانيا.

جدول يبين الدول التي درس فيها أفراد العينة وأعدادهم.

الدولة	التكرار	النسبة المئوية
الاردن	٦٤	٦٥ر٧
سوريا	٣	٢ر٩
مصر	٣	٢ر٩
العراق	٣	٢ر٩
لبنان	١١	١٠ر٥
المغرب	١	١ر٠
الهند	١	١ر٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الباكستان	١	٠ر١
امريكا	١	٠ر١
بريطانيا	٢	٩ر١
فرنسا	٢	٩ر١
المانيا	٢	٩ر١
اسبانيا	١	٠ر١
روسيا	٣	٢ر٩
يوغسلافيا	١	٠ر١
رومانيا	١	٠ر١
المجموع	١٠٠	١٠٠

إن القول بوجود تباين في المستويات التعليمية لرواد المضافات، ينسحب أيضا على المستويات المهنية التي يشغلها هؤلاء الرواد، اذ لا يمكن الحديث عن هؤلاء باعتبارهم يتكونون من فئة مهنية واحدة، وتتنوع الوظائف والمهن التي يشغلها رواد المضافات كثيرا، ويتيح هذا التنوع المتعلق بالمهن، امكانية الافتراض بوجود تباين في مستويات الدخل لهؤلاء الرواد،

ويمكن القول أن طبيعة النشاط الذي يجري داخل المضافة، يلعب دورا كبيرا في تحديد الفئات التي تتواجد في وقت معين داخل المضافات، ففي الوقت الذي يميل فيه الاشخاص المتقاعدين الى التواجد المستمر في مختلف الاوقات داخل المضافات، فإن الأشخاص العاملين في الجهاز البيروقراطي، وفي بعض القطاعات الاخرى، كالعمل الطبي والهندسي يميلون إلى التردد على المضافات في الأوقات التي يتم فيها ممارسة نشاط يتعلق بمناسبة ما تتصل بالوحدة القرابية، كذلك، فانه يلاحظ أن كثيرا من العاملين في الجهاز البيروقراطي، وخصوصا من ذوي المناصب الرفيعة، يقطنون في مدينة عمان، وهو الوضع الذي يحد من امكانية ترددهم على المضافات بشكل مستمر، ويحدد تواجدهم في المناسبات بشكل أساسي، إن أكبر حشد يمكن أن تشهده المضافات، يكون عندما تجري مناسبة معينة داخل المضافة، وعلى الأغلب عندما تكون المضافة تستعد لاستقبال أعضاء من وحدة قرابية أخرى من أجل صلح أو خطوبة فتاة أو تقديم التعازي،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- العلاقة بين العمل ومدى التردد على المضافة التي ينتمي إليها أعضاء العينة.

العمل	لم يجب	يوميا	إسبوعيا	في المناسبات
متقاعد	٠	٥	٢	٣
عسكري	١	٢	٠	٢
موظف حكومة	١	١٠	١٢	٩
موظف خاص	٠	١	١	٢
عامل غير فني	٠	٠	٠	٣
عامل فني	١	١	١	٢
تاجر	٠	٠	١	٦
عمل حر	٠	٣	١	٣
مهندس	٠	٠	٢	١
طبيب	٠	٠	١	٢
طالب	٠	٤	٥	٥
غير موجود	٠	٢	٣	٢
المجموع	٣	٢٨	٢٩	٤٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢ - تطور مفهوم الزعامة وشروطها وعلاقته بالمضافات.

عند الحديث عن رواد المضافات، وبالنظر إلى تمايز هؤلاء الرواد سوسولوجيا، فإن من المهم تحديد حجم الدور الذي يرتبط بهذه الفئات، أو بعضها داخل المضافات، وينعكس هذا التباين كثيرا في طبيعة الدور الذي يمكن أن يلعبه هؤلاء الرواد، ويستتبع ذلك القول بوجود أفراد نشطين وذات دور قيادي بين هؤلاء الرواد، وأفراد يكتفون بمجرد التردد على المضافة والمشاركة ببعض نشاطاتها أو بمعظمها.

ويمكن القول بأن معظم المضافات ترتبط بأسماء معينة لأفراد نشطين ومتنفذين داخلها، بل أنه وفي حال امتلاك الوحدة القرابية لأكثر من مضافة، فإنه يجري الحديث عن المضافات من خلال ربط المضافات ببعض الأشخاص داخل المجموعة القرابية، وفي بعض الأحيان، فإن الوحدة القرابية نفسها ترتبط باسم شخص معين ينتسب لهذه الوحدة، وفي الغالب فإن هذا الفرد هو من الأشخاص الذين ينظر إليهم باعتبارهم مهمين لأنهم يشغلون مناصب مهمة داخل الجهاز البيروقراطي ويقوم الربط بين المضافة واسم شخص معين، على مدى مساهمة الشخص في بناء المضافة، وفي الإنفاق عليها، وفي رعاية أنشطتها، وحتى في الوقوف في مقدمة المستقبلين في بعض المناسبات.

وتقود الفكرة السابقة حول المتنفذين داخل المضافات إلى الحديث عن ظاهرة الزعامة داخل الوحدات القرابية، ومن ثم داخل المضافات التي تملكها هذه الوحدات، ويتطلب الحديث عن الزعامة مناقشة جانبين متعلقين بها؛ فهناك الجانب المتعلق بشروط الزعامة ومتطلباتها؛ وهناك الجانب المتصل بمظاهر ودلالات الزعامة، وبدء، فإن من المهم التأكيد على حقيقة أنه لا يمكن تناول ظاهرة الزعامة من خلال التعامل مع ما يجري داخل المضافة، أو داخل الوحدة القرابية، وإنما يمكن تناول ما يجري داخل المضافة باعتباره يشكل وسائل لابراز الزعامة وتأكيدها، كذلك، فإنه يمكن التعامل مع المضافات نفسها، كمؤسسات تشكل وسائل في أيدي الأفراد الطامحين في تحقيق الزعامة داخل الوحدة القرابية وعلى مستوى المدينة، وأحيانا على المستوى الوطني بأكمله.

لقد كانت الزعامة في الماضي تعتمد على حجم ما يمتلكه الفرد من أراضي زراعية، وما يملكه من أنواع مختلفة من الحيوانات، وكانت المضافة آنذاك، تعد مظهرا للزعامة وتميز الشخص أكثر من كونها وسيلة لتحقيق الزعامة، ومصدرا لها، إن الشخص المتميز إقتصاديا وإجتماعيا داخل الوحدة القرابية أو ضمن المنطقة إعتاد أن يملك المضافة، التي كانت جزء لا ينفصل من بيته الذي يعيش فيه إلى جانب زوجته وأولاده وإخوانه وأحيانا والده ووالدته، وبذلك، فإن إمتلاك شروط الزعامة كان يتم إكتسابها بعيدا عن المضافة، وكانت المضافة تأتي بمثابة تأكيد لزعامة تم تحقيقها فعلا داخل الوحدة القرابية وداخل الحي، وربما داخل المنطقة بكاملها.

© Arabic Digital Library Yarmouk University

يمكن القول أن كثيرا من التغيرات طرأت على شروط الزعامة وعلى علاقة المضافات بظاهرة الزعامة، لقد قاد توسع الجهاز البيروقراطي، وتراجع النشاط الزراعي، وتطور النشاط التجاري الى تغيرات على صعيد عوامل إمتلاك الزعامة، وعلى صعيد عوامل نشوء المضافات، إن الجهاز البيروقراطي الحكومي المتضخم في الاردن، أصبح يوفر كثيرا من متطلبات الزعامة على المستوى الإجتماعي، وفي نفس الوقت على مستوى الوحدة القرابية، وتنبع هذه القدرة لدى الجهاز البيروقراطي على توفير كثير من شروط الزعامة من خلال قدرة هذا الجهاز على تقديم بعض المنافع المادية للشخص للعامل فيه، وكذلك، في كون هذا الجهاز يشكل مطمحا للكثيرين من الباحثين عن فرص للعمل، والذين يرون في العمل الحكومي فرصة جيدة لتأمين حياة مستقرة حاضرا ومستقبلا،

إن التنفذ داخل الجهاز البيروقراطي يعني قدرة لدى الفرد على تحقيق بعض الدخل المرتفع ومكاسب مادية أخرى، كذلك، فإن التنفذ في هذا الجهاز يتيح تحقيق بعض شروط الزعامة من خلال توجه الكثيرين من طالبي العمل، أو الراغبين في الحصول على بعض منافع البيروقراطية الى الشخص المتنفذ داخل الجهاز، كذلك، فإن البيروقراطية من خلال إتاحتها بعض المنافع المادية المعقولة وبعض عناصر السلطة تتيح لبعض المتنفذين داخلها القدرة على إمتلاك الوسائل المادية الضرورية لتحقيق الزعامة داخل المضافة وداخل الوحدة القرابية، وتتجسد هذه الوسائل المادية الضرورية لتحقيق الزعامة، في مدى قدرة الزعيم على الانفاق على بناء المضافات وتمويل أنشطتها، ومن ثم الظهور بمظهر الكريم والسخي، كذلك، فإن أحد هذه الوسائل يتجسد في قيام الزعيم بتأمين بعض المنافع لبعض الأشخاص ممن يطلبون وظائف أو بعض المنافع البيروقراطية الأخرى،

وتبرز أهمية المضافة في هذه أوضاع من خلال إزدواجية دورها، فمن جهة، فإن المضافة تعد مكانا مناسبا للالتقاء من يحتاجون المساعدة من البيروقراطية، بأولئك المتنفذين بيروقراطيا والقادرين على منح هذه المساعدة لمن يطلبها، ومن جهة أخرى فإن المضافة تعد مكانا مناسبا ووسيلة ناجعة من أجل حشد المجموعات والوحدات القرابية التي يريد الزعيم بعض المنافع منها، والتي يعد أهمها على الاطلاق تكريس تنفذه داخل الجهاز البيروقراطي أو تحقيق مكاسب

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

بيروقراطية جديدة في معظم الأحوال.

وبالنسبة لبعض الأشخاص فإن المضافات تعد وسائل ضرورية من أجل دخول الجهاز البيروقراطي والحصول على منافعه، وخصوصا بالنسبة للأفراد الذين يحققون زعامة داخل المضافات من خلال إمتلاك الأموال الضرورية بالاعتماد على العمل التجاري، أو العمل خارج الجهاز البيروقراطي الحكومي ويلاحظ وجود هذه الفئة بشكل مؤثر في العديد من المضافات، وهي تساهم في العديد من الأنشطة، وتحاول هذه الفئة تحقيق الزعامة من خلال الانفاق المادي على المضافة وعلى بعض أعضاء الوحدة القرابية ممن يحتاجون المساعدة المادية.

وبذلك، فإنه يمكن القول أن هناك دورا مزدوجا للمضافات على صعيد الزعامة، فهي تجسد وسيلة ناجعة من أجل الوصول للبيروقراطية، أو لتعزيز موقع فرد معين داخلها، وفي نفس الوقت فإن البيروقراطية، والعمل بها توفر وسيلة ناجعة من أجل الوصول الى وضع متنفذ داخل المضافة، وداخل الوحدة القرابية نفسها التي تعود إليها المضافة.

لقد تمت معالجة الجانب الاول المتصل بظاهرة الزعامة، الذي يتجسد في شروط الزعامة ومتطلباتها المادية، الا أن من المهم مناقشة مظاهر الزعامة، والكيفية التي يتم من خلالها التوصل الى معرفة من هو الزعيم داخل المضافة وداخل الوحدة القرابية، ومن ثم تعريف المقصود بالزعامة.

إن أبرز المظاهر التي يمكن من خلالها الاستدلال على مكانة الزعيم، هي من خلال جهوده المادية والمعنوية في طرح فكرة بناء وتمويل المضافة، وفي رعاية أنشطتها، وينبغي لهذه الجهود أن تكون متميزة عن جهود بقية أعضاء الوحدة القرابية ممن ينتمون إلى المضافة ويترددون عليها، ويمكن تلخيص هذه الجهود من خلال تناول المساهمة المادية التي ينبغي أن تكون أكبر من غيرها من المساهمات، وتتلخص المساهمة المعنوية في قيام الشخص بالتردد المستمر على المضافة، وفي رعاية وتنظيم جميع أنشطتها.

ويمكن الاستدلال على شخصية الزعيم وتمييزها من خلال تفاصيل بعض

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المناسبات التي تجري داخل المضافات، ومن المكان الذي يجلس فيه في المضافات أثناء هذه المناسبات، إن الزعيم لا بد وأن يكون على سبيل المثال في مقدمة المستقبلين داخل المضافة في حال قدوم جماعة ما إلى المضافة، وفي نفس الوقت فإن الزعيم هو أول من يدخل المضافة من الجماعة القادمة، كذلك، فإن للزعيم حيزا معينا داخل المضافة ينبغي الجلوس فيه، وهو يرتبط بالمكان الذي سيجلس فيه الزعيم من الوحدة القرابية الأخرى التي تكون في المضافة، إن الزعماء في الوحدتين القرابيتين ينبغي أن يجلسوا في ما يسمى ب «صدر المضافة» وهو المكان الذي يقع مقابل باب المضافة مباشرة.

كذلك، فإن الزعيم هو الشخص الذي تحاول الوحدة القرابية إبرازه أمام الوحدات القرابية في حال قدومها الى المضافة، فهناك قواعد معينة ينبغي إتباعها في جميع المناسبات، وتشتمل هذه القواعد على أدوار معينة لبعض الأشخاص داخل المضافة، إن مجرد قدوم الجاهة إلى المضافة، يعني قيام أحد الشباب الذين يقفون أمام المضافة بالدخول إليها، والطلب إلى الزعيم الخروج إلى باب المضافة لاستقبال الجاهة، كذلك، فإن الزعيم هو الشخص الأول الذي تقدم له «القهوة العربية» في حال قدوم الجاهة الى المضافة، وهو الذي تناط به مهمة الحديث والترحيب بالجاهة وتحديد الموقف من الصلح.

إلا أن المظهر الأكبر للزعامة داخل الوحدة القرابية يتجسد في تحديد ومناقشة شروط الصلح وتوقيته في حال حصول نزاع مع وحدة قرابية اخرى، إن معظم التفاصيل المتعلقة بالصلح يتم مناقشتها من قبل شخص او مجموعة من الأشخاص المتنفذين داخل المضافة، وفي غياب بقية أعضاء الوحدة القرابية، وبعد مناقشة هذه الشروط والتوصل إلى إتفاق مع الأشخاص المعنيين من الوحدة القرابية الأخرى يلجأ الزعيم إلى عقد إجتماع داخل المضافة، حيث يبلغ أقاربه بشروط الصلح ويناقش معهم التوقيت، أما قدوم الجاهة والمراسم التي تجري داخل المضافة حين قدومها، فيمكن التعامل معها باعتبارها لا تشكل أكثر من طقوس أو مراسم، فهي لإعطاء الاتفاق الذي عقده الزعيم طابعا جماعيا، بدلا من طابعه الشخصي.

ومن المهم مناقشة تعريف مجتمع الدراسة لشروط الزعامة ومتطلباتها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والواجبات المترتبة على الزعيم تجاه وحدته القرابية وتجاه المضافة، إن معظم الأفراد الذين تمت مناقشتهم داخل المضافات يجمعون على إعتبار العمل في الجهاز البيروقراطي والحصول على منصب مهم داخله، يضفيان مكانة مميزة على الشخص داخل المضافة، لقد اعتبر الكثيرون أن الشخص المهم هو ذلك العامل في الجيش ويشغل رتبة ضابط كبير، واعتبر البعض كذلك، أن أساتذة الجامعات هم ذو مكانات متميزة، وهم مهمين،

وعند طرح السؤال التالي على أعضاء العينة الذين قاموا بتعبئة الاستبيان: هل لك أقارب يشغلون مناصب مهمة؟ وما هي؟ كانت معظم الإجابات تتجسد في الإيجاب، أما تعريف المنصب المهم فقد كان يتنوع كثيرا، لقد تم إعتبار المناصب من قبيل: ضابط كبير في الجيش أو الأمن العام، وزير، نائب، مدير إداري، نقيب مهندسين، مدير جمرك، رئيس بلدية، أستاذ جامعة، عضو بلدية، عميد كلية، رئيس وزراء،

أما الشروط التي يجب توفرها في الشخص الذين يعتبرونه مهما، فقد أعتبر الكثيرون أن صفات من مثل: المساواة، التسامح، الأحقية، إحترام المنصب المشغول، المساواة بين المواطنين، الاستقامة، مساعدة المحتاج، الموضوعية، مساعدة أقاربه، الإخلاص للأمة والوطن، المؤهل العلمي، تفضيل المصلحة العامة على الخاصة، لا تعليق، خدمة الناس والأقارب، عدم العمل بالواسطة، مساعدة الأقارب أولا والناس ثانيا، النفوذ، مخافة الله، رعاية الأقارب، الإنتماء للوطن أولا وللعشيرة ثانيا، الرجولة، ذات شخصية قوية، الولاء للمنصب

وفيما يتصل بالمساعدة التي سبق لأفراد العينة أن تلقوها من اقاربهم الذين يشغلون مناصب مهمة، وكذلك، المساعدة التي سبق لهؤلاء أن قدموها للمضافة، فقد تباينت الردود، لقد كانت الإجابات على النحو التالي: التبرع المادي، حل كل ما يحدث من عقبات، تقديم الآراء المفيدة للمضافة إضافة للدعم المادي، التبرع لصندوق المضافة، المساعدة المعنوية، لا يقدم مساعدة، المشاركة، التبرعات الشهرية، لا تعليق، المشورة للعشيرة، إن الأمر المثير للانتباه هو قيام معظم أفراد العينة بالإجابة بالنفي على سؤال حول ما إذا كانوا قد تلقوا مساعدة ما من قريبهم ذي المنصب المهم،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويبدو من المفيد تقديم بعض النماذج لبعض الشخصيات المتنفذة والمتميزة داخل بعض المضافات، والذي قد يسمح بالوصول لبعض الاستنتاجات الهامة المتعلقة بالخصائص المهنية للشخصيات المتنفذة من رواد المضافات.

لقد عانت إحدى العشائر في منطقة البارحة في منتصف السبعينات من انقسام نتج عن خلاف حول رفض زواج أحد أبناء أفرع العشيرة، من إحدى بنات فرع آخر، وقد تضخم الخلاف وتكتل أفراد «العشيرة» كل حول الفرع الذي ينتمي اليها، وقد نتج عن هذا الخلاف فيما بعد إنشاء ثلاث مضافات للأفرع المختلفة داخل «العشيرة»، وترتبط مضافتا فرعين من هذه الأفرع الثلاثة بأسماء شخصيات عاملة في الجهاز البيروقراطي، فأحد المضافات، ترتبط باسم شخص يعمل مقدما في أحد الأجهزة الأمنية، وهو يقيم في عمان، وهو الشخصية الأكثر تنفذا داخل المضافة، ويقوم برعاية أنشطتها، ويكون في مقدمة مستقبلي من يرتادونها في بعض المناسبات، كذلك، فان أخيه، الذي شغل في السابق منصب مدعي عام، ويعمل حاليا في حقل المحاماة، ويقيم في عمان، يشغل أيضا مكانة هامة داخل هذه المضافة، ويبرز داخل هذه المضافة أيضا، اسم أحد الأشخاص العاملين في أحد الجامعات، وآخر يملك الكثير من الاراضي والعقارات.

لقد أتاحت إحدى المناسبات التي جرت داخل مضافة أحد أفرع هذه العشيرة إمكانية التعرف على الدور المتنفذ والمتميز الذي يتمتع به ذلك الشخص العامل في أحد الأجهزة الأمنية، وتتمثل هذه المناسبة في الصلح الذي جرى بين فرعين من العشيرة، لقد تجمع أفراد أحد الفرعين داخل المضافة التي تعود لهم، وكان الشخص المتنفذ يجلس في إحدى زوايا المضافة، ويحيط به عدد من الأشخاص متبادلا الحديث معهم، وبعد وصول المجموعة التي ترعى تنظيم الصلح بين الأفرع المختلفة من العشيرة، والتي تتكون من وزير الأشغال في حكومة السيد مضر بدران، ومدير شرطة العاصمة إضافة الى مدير شرطة أربد، قام أحد الشباب من العشيرة والذي كان ينتظر على مدخل المضافة، بالقدوم إلى الشخص، والهمس في أذنه، وأثر ذلك نهض من مكانه وتوجه إلى مدخل المضافة وصافح المجموعة التي يرأسها الوزير، الذي يرتبط أيضا بعلاقة نسب مع أحد الوزراء من نفس العشيرة ولكن من فرع آخر.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وعند دخول المضافة قام وزير الاشغال بمصافحة جميع الموجودين داخل المضافة، وبعد أن جلس لمدة عشرة دقائق، طلب من الجميع مرافقته والتوجه الى مضافة فرع العشيرة الآخر الذي كان في الانتظار، وعند الوصول قام أعضاء الفرعين بالمصافحة، وكان يتقدم أعضاء الفرع الزائر كل من الشخص المنتفذ العامل في أحد الأجهزة الأمنية، ووزير الاشغال ومدير شرطة العاصمة . لقد جلس هؤلاء في صدر المضافة، وكانت الآذان منصتة إليهم، وبعد تناول الطعام تم إحضار «النرجيلة» إلى وزير الأشغال.

أما المضافة الاخرى لهذه العشيرة التي تعود للفرع الثالث، فترتبط بأسم أحد الوزراء في الحكومة الاردنية، وهو يرعى معظم نشاطات المضافة حاليا، بل أن فكرة إنشاء المضافة الخاصة بالفرع الذي ينتمي اليه، كانت بوحي وتشجيع منه، وهو يقول أن إنشائها جاء ردا على قيام أحد أفرع العشيرة ببناء مضافة خاصة بهم، وبعد رفضهم كافة الجهود لتوحيد العشيرة، وترتبط المضافة الثالثة، بشخصية متميزة إقتصاديا، حيث تمتلك هذه الشخصية العديد من العقارات.

وترتبط مضافة أحد العشائر الكبيرة في وسط مدينة إربد ببعض الشخصيات المتميزة بيروقراطيا، وفي بعض الاحيان ببعض الشخصيات التي تطمح بدخول الجهاز البيروقراطي فأحدهم سبق له وخاض الانتخابات النيابية التكميلية لمحافظة إربد، والانتخابات العامة التي جرت في العام ١٩٨٩، كذلك، سبق وأن خاض الانتخابات البلدية قبل الاخيرة التي جرت في مدينة إربد، ويبرز أيضا داخل المضافة أحد الأشخاص الذي يشغل منصب مدير لإحدى الدوائر العامة، إضافة لشخص يشغل منصب الأمين العام لإحدى الوزارات، وآخر يملك أسهما كبيرة في أكثر من صحيفة أردنية، ويملك بالكامل إحدى الصحف ذات الميول الاسلامية.

وفي الماضي ارتبطت مضافة عشيرة التل بالحاج عبدالقادر التل الذي كان مقتدرا ماديا، وكان ينفق على المضافة ويتزعم العشيرة، ويعتبر البعض، أن عمل مضافة التلول واستمراريتها يعزى الى أن عبدالقادر التل كان في البرلمان الاردني، وبذلك فقد كان من المهم بالنسبة له وجود مضافة، يستطيع من خلالها الحصول على التأييد والدعم.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويتردد على المضافة وبشكل مستمر عدد من شاغلي بعض المناصب الهامة داخل الجهاز البيروقراطي، فمنهم من يعمل قاضيا في وزارة العدل، ومنهم من يعمل مساعدا للحاكم الاداري في أحد متصرفيات محافظة إربد، ومنهم من يعملون أساتذة جامعيين.

وترتبط فكرة إعادة إنشاء مضافة «العشيرة» الخريسات في مدينة إربد، بأحد أبناء العشيرة وهو الدكتور أحمد، الذي شغل منصب نائب في مجلس الأمة في الستينيات، لقد تم هدم المضافة التي كان يملكها الحاج علي في فترة ما قبل الستينيات، إثر قيام بلدية إربد بفتح بعض الشوارع، وبعد هدم المضافة، تم إنشاء مضافة جديدة في السبعينيات، وهناك الان مضافة جديدة قيد الانشاء، ويتزعم المضافة الجديدة الدكتور علي خريس الذي رشح نفسه للانتخابات النيابية الاخيرة في مدينة إربد.

ويحتل السيد نجيب إرشيدات موقعا متميزا داخل مضافة عشيرة الرشيدات في اربد، وهو يعمل محاميا، بعد أن شغل منصب وزير في احدى الحكومات الاردنية، وقد كانت فكرة إنشاء مضافة جديدة للعشيرة من طرح السيد نجيب، الذي قام بالتبرع بقطعة الارض اللازمة لاقامة المضافة، إضافة لمبلغ ٦٠٠٠ دينار، من اجمالي مبلغ ٢٥ الف دينار احتاجه بناء المضافة، وقد حاول السيد نجيب ترشيح نفسه في الانتخابات النيابية الأخيرة، من خلال حشد تأييد أفراد «عشيرته» عبر المضافة، ويقول احد أفراد العشيرة أنه وفي الانتخابات النيابية الأخيرة، برز تنافس بين السيد نجيب وأحد أبناء شقيق إرشيدات على أحقية كل منهما في الحصول على تأييد العشيرة في الانتخابات، ويقول أنه تم حسم الصراع من خلال دعم المحامي نجيب ارشيدات في الانتخابات الحالية، والمرشح الثاني من أبناء العشيرة في الانتخابات النيابية القادمة.

ويبرز داخل مضافة الحتاملة في شرق مدينة إربد إسم أحد الاساتذة الجامعيين، وهو يرعى معظم أنشطة المضافة، ويرأس اللجنة الاستشارية المكونة من عشرة أشخاص تكون مسؤولة عن عمل المضافة، ويتم انتخابها من قبل أبناء العشيرة، بحيث يكون نصفهم ممن تزيد أعمارهم عن اربعين عاما، والنصف الآخر

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أقل من هذا السن، أي من فئة الشباب، وتهدف هذه اللجنة الى تنظيم أنشطة المضافة، ووضع التعليمات المتعلقة بهذه الانشطة، وبالصندوق المالي الذي يتبع المضافة، وهناك ايضا أحد الاشخاص الذي سبق وأن عمل مشرفا تربويا ورئيسا لقسم التعليم الخاص في وزارة التربية والتعليم، والذي يرعى كثيرا من أنشطة المضافة بالتعاون مع شخصين آخرين يشغل أحدهما منصب عضو في مجلس بلدي إربد، والاخر يشغل عضوية غرفة تجارة إربد.

لقد لوحظ وجود إرتباطات يقيمها الكثيرون من أفراد مجتمع الدراسة بين إشغال منصب مهم داخل الجهاز البيروقراطي وإشغال وضع متنفذ ومؤثر داخل المضافات، وفي معظم الاحيان كان هؤلاء يقولون بأن هذه الشخصية أو تلك مهمة داخل المضافة وداخل العشيرة، لانها تملك مكانة متميزة داخل جهاز الدولة، ويقول أحد أعضاء العشائر في منطقة البارحة، ويعمل موظفا، أن قريبه مهم داخل المضافة، بالنظر الى منصبه في جهاز المخابرات العامة، ويعطي أحد أعضاء عشيرة الرشيدات نتيجة مقاربة حين يقول عن المحامي نجيب إرشيدات الذي يرعى شؤون المضافة، ويملك وضعا متميزا داخلها، أن «نجيب مقبول إجتماعيا، وعلميا، ومحبوب، كونه في الدولة»

إن الحديث عن تضخم دور البيروقراط وتنفذهم داخل المضافات، لا يمكن تعميمه بشكل مطلق، فهناك بعض الشخصيات التي تحقق نفوذا داخل المضافات، وترعى كثيرا من أنشطتها بالرغم من عدم انتسابها الى الجهاز البيروقراطي ويحقق معظم هؤلاء مكاناتهم داخل المضافات من خلال امتلاك مساحات كبيرة من الاراضي داخل مدينة إربد، وهو ما يتيح لهم بيع جزء من أراضيهم والانفاق على عمل وأنشطة المضافات، كذلك، فان بعض المتنفذين قد يكونون ممن يملكون مصالح تجارية، ويملكون منشآت وأعمال إقتصادية مختلفة، وتتسم العلاقة بين هاتين الفئتين بنوع من الصراع في معظم الأحيان، ويحاول كل طرف منهما تحقيق مكاسب أكبر من خلال المضافة، ويحاول الطرفان البروز داخل المضافة من خلال تقديم المساعدة المالية للمضافة، والمشاركة المستمرة في أنشطتها،

وهناك بعض المضافات التي لا ترتبط بوحدات قرابية قدر ارتباطها بمالك فرد، قام بإنشائها وينفق بالكامل على أنشطتها، ويمكن الاستشهاد بمضافات الحاج

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

محمد عطية البصول الذي يملك مضافة في منطقة البارحة، ويرى أنها إمتداد لمضافة أبيه وجده في الماضي، التي قامت البلدية بالاستيلاء عليها، لاقامة متحف فيها، ويمكن الاستشهاد كذلك، بمضافة الحاج يوسف السليمان البصول في نفس المنطقة التي يقول عنها أنها امتداد لمضافة أبيه في الماضي إن هاتين المضافتين ترتبطان بشخصين متقدمين في السن، وترتبط تسمية المضافة بهما، ويقوم هذان الشخصان بالانفاق على أنشطة المضافتين من مصادر خاصة بهما،

٤ ـ التحديد الايديولوجي:

يشير تعبير الايديولوجيا، كما يتم استخدامه في هذا الفصل الذي يعالج الخصائص التي يتمتع بها رواد المضافات، إلى تضمينات تشمل طبيعة العلاقة التي تقوم بين رواد المضافات والمضافات التي ينتمون إليها، وتشمل هذه التضمينات أيضا الهرمية التي يقيم من خلالها الفرد مجموعة من الارتباطات العاطفية والرمزية مع بعض الوحدات والمؤسسات الاجتماعية، وتشمل هذه الوحدات والمؤسسات التي يتم تناولها، كل من العشيرة، والأسرة، والمضافة، والمدينة، والوطن، والأمة العربية، والأمة الإسلامية، والعالم الثالث.

ويجري تناول العناصر السابقة من خلال محاولة إيجاد مجموعة من العلاقات بين الخصائص الإجتماعية للفرد، وتحديدا طبيعة المهن والمستويات التعليمية التي يتسم بها بعض رواد المضافات، وبذلك، فانه سيتم مناقشة العلاقة بين المهنة التي يشغلها الفرد من رواد المضافات، ومستواه التعليمي، ومستواه العمري كمتغيرات مستقلة، وطبيعة علاقته بالمضافة التي ينتمي إليها، والكيفية التي يتم بموجبها تركيب هرمية الولاءات له كمتغيرات تابعة.

لقد تم تناول العلاقة بين الفرد وبين المضافة من خلال تبيان مدى تردد الفرد على المضافة التي تملكها وحدته القرابية، ومن خلال تبيان مساهمة الفرد المادية في نفقات المضافات وأنشطتها المختلفة، كذلك، تم تناول هذه العلاقة، من خلال محاولة إيجاد العلاقة بين بعض الخصائص السوسيولوجية للفرد وطبيعة العلاقة مع المضافة التي يتبعها، ومن المهم الاشارة الى أن حجم العينة التي شملها

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الاستبيان وصل الى ١٠٠ شخص من مختلف الفئات العمرية والمهنية والتعليمية.

يمكن تفصيل إجابات افراد العينة من العاملين مهن مختلفة حول سؤال فيما إذا كانوا ينتمون الى مضافة معينة كما يلي: لقد رفض شخص واحد فقط الإجابة على السؤال وكان من العاملين في الجهاز العسكري، في حين إعتبر أربعة أشخاص أنهم لا ينتمون الى مضافة ما بالرغم من إمتلاك وحداتهم القرابية لمضافات ويرفض هؤلاء في الغالب المساهمة في أنشطة المضافات، ويقاطعونها لعوامل مختلفة؛ فمنهم من يرى في المضافات مؤسسات تقليدية، وينبغي أن تزول، ومنهم من يقاطع نظرا لخلاف بينه وبين بعض الأشخاص المتنفذين داخل المضافة.

- جدول يعالج العلاقة بين العمل والإجابة على سؤال حول الإنتماء الى مضافة:

العمل	لم يجب	نعم	لا
متقاعد	٠	٩	١
عسكري	١	٤	٠
موظف حكومة	٠	٣١	١
موظف خاص	٠	٤	٠
عامل غير فني	٠	٣	٠
عامل فني	٠	٤	١
تاجر	٠	٧	٠
عمل حر	٠	٧	٠
مهندس	٠	٣	٠
طبيب	٠	٣	٠
طالب	٠	١٣	١
غير موجود	٠	٧	٠

ويمكن صياغة العلاقة بين المستويات العمرية لافراد العينة وطبيعة العلاقة مع المضافات من خلال القول أن معظم المساهمة المادية في تغطية نفقات

© Arabic Digital Library Yarmouk University

المضافات تأتي من أعضاء الفئة العمرية التي تتراوح بين ٢٦-٣٥ عاما، أما اقل مساهمة مالية، فتأتي من الفئة العمرية التي تزيد عن ٥٦ عاما، كذلك، فان أكبر تردد على المضافات يكون بين الفئة العمرية التي تتراوح بين ٢٦-٣٥ عاما، في حين أن اقل تردد هو بين الفئة العمرية التي تزيد عن ٥٦ عاما، لقد رفض شخص واحد الإجابة على سؤال حول ما إذا كان يدفع إشتراكا ماليا للمضافة التي ينتمي إليها، في حين أجاب ١٤ شخصا بانهم لا يدفعون إشتراكات مالية، ولا يساهمون في نفقات تشغيل المضافة، أما الغالبية ممن شملهم الإستبيان، فقد أجابوا بأنهم يساهمون في تغطية نفقات المضافات ماليا، وقد بلغ عدد هؤلاء ٨٤ شخصا من مجموع أفراد العينة المئة.

وتتنوع الدول التي أنهى منها المتعلمون من رواد المضافات تعليمهم الجامعي، ومعظم هؤلاء يقوم بالتردد على المضافات في أوقات مختلفة، إن معظم المتعلمين أنهوا دراساتهم من جامعات أردنية، وتلاهم المتعلمون الذين درسوا في جامعات عربية، ثم أولئك الذين تخرجوا من جامعات غربية، ثم من جامعات دول أوروبا الشرقية، وأخيرا أولئك الذي أكملوا تعليمهم من بعض دول العالم الثالث، كتركيا والهند، ويتردد معظم هؤلاء على المضافات بشكل مستمر ويشاركون بأنشطتها.

إن وجود المضافات وتكاثر أعدادها لم يكن ليحدث دون وجود بناء أيديولوجي داعم لعمل المضافات وللابنية الاجتماعية المشجعة لها، ويترافق الحديث عن المضافة في الغالب، بحديث عن العائلة والعشيرة والوطن والعروبة والاسلام، بل أنه يمكن القول أن كثيرا من رواد المضافات لم يكن بامكانه وضع حدود فاصلة بين المضافة وبين الوحدة القرابية التي يتبعونها، لقد لجأ كثير منهم الى الاجابة الى السؤال حول الفرق بين المضافة والعشيرة من خلال التساؤل عما إذا كان من الممكن التفريق بينهما.

كذلك، فان الاحاديث مع بعض رواد المضافات، وخصوصا المتنفذين منهم كانت تبرز بعض الادعاءات الايديولوجية لدى هؤلاء، والتي تتجاوز أطر العائلة والعشيرة والوطن، وتصل في بعض الاحيان الى أطر الأمة العربية، والأمة الإسلامية، لقد اعتبر أحد الأشخاص من منطقة البارحة، الذي سبق وعمل كمدير

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لشؤون الموظفين في مديرية صحة إربد، أنه يهتم كثيرا بالمضافة وبالفرع الذي تتبعه المضافة، بالرغم من خشيته من أن ينعته أقاربه من الفرع الآخر للعشيرة بأنه متعصب لفرعه داخل العشيرة رغم ادعائه بأنه «قومي» أما أحد الاشخاص من أحد عشائر مدينة إربد ويعمل مهندسا، فقد قال أنه يتشرف بقيادة «عشيرته»، بالرغم من أنه يعتبر نفسه تقدميا، وقال أن معظم أفراد عشيرتي هم تقدميون.

وتبرز نتائج التحليل الاحصائي للاستبيان الذي تم توزيعه على بعض رواد المضافات، وبعض الافراد الذين لا ينتمون الى مضافات، نتائج تدعم فكرة تعدد الولاءات لدى رواد المضافات، وخصوصا المتنفذين منهم، كذلك، تبرز نتائج هذا التحليل وجود علاقات ما بين الخصائص السوسيولوجية لرواد المضافات، والخصائص الايديولوجية من حيث ترتيب الولاءات أو الإنتماءات لديهم.

ويمكن تلخيص نتائج العلاقة بين نوع العمل الذي يشغله الفرد من أفراد العينة والتركيب الهرمي لانتماءاته، من خلال الإجابة على السؤال الذي يطلب من الفرد ترتيب إنتماءاته حسب الاهمية، لقد كان عدد من رفضوا الإجابة على السؤال أربعة، وقد تركزت معظم الإجابات على إعتبار العائلة الخيار الأول الجدير بالانتماء إليه، إن نسبة من وضعوا العائلة في المرتبة الأولى وصلت إلى ٣٧ شخصا من مختلف المهن، في حين لم تحظ المدينة الا بإجابة شخصين، كذلك، فإن المضافة والعشيرة، وهما بنائين لا يميز أفراد مجتمع الدراسة كثيرا بينهما، حظيا بإجابات ١٠ أشخاص يرون أنهم ينتمون إلى المضافة والعشيرة أولا.

- جدول يوضح العلاقة بين العمل وترتيب الفرد لانتماءاته

عمل	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
متقاعد	١	٤	٠	١	٠	٢	٢	٠

© Arabic Digital Library Yarmouk University

عسكري	٠	٢	٠	٠	٠	١	٢	٠
موظف حكومة	٠	١٥	١	١	٠	٤	٦	٥
موظف خاص	٠	١	٠	١	٠	٠	١	١
عامل غير فني	٠	٠	٠	١	٢	٠	٠	٠
عامل فني	٠	٠	٠	٢	٠	٢	٠	١
تاجر	٠	٤	٠	١	٠	١	٠	١
عمل حر	٢	٢	٠	٠	٠	٠	٣	٠
مهندس	٠	٠	١	٠	٠	١	٠	١
طبيب	٠	٢	١	٠	٠	٠	٠	٠
طالب	١	٦	٠	٠	٠	٣	٠	٤
غير موجود	٠	١	٠	٠	٠	٠	٢	٤
المجموع	٤	٣٧	٣	٧	٢	١٤	١٦	١٧

- جدول يتناول العلاقة بين المستوى التعليمي وترتيب الفرد لانتماءاته:

التعليم	لم يجب	العائلة	المقاطعة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
أقل من ثانوي	٤	١٣	٠	٠	٠	٥	١٠	٥
تعليم عالي	٠	٢١	٢	٢	٢	٩	٥	١٠
دراسات عليا	٠	٣	١	٠	٠	٠	١	٢
المجموع	٤	٣٧	٣	٧	٢	١٤	١٦	١٧

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

- جدول يبين العلاقة بين العمر وترتيب الفرد لانتماءاته:

العمر	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية	الأمة الاسلامية
١٦-٢٥	١	٧	٠	١	٢	٥	٢	٦
٢٦-٣٥	٠	١٠	٢	٢	٠	٤	٥	٦
٣٦-٤٥	٠	٩	٠	١	٠	٣	٤	٣
٤٦-٥٥	٢	٨	٠	١	٠	١	٣	٢
٥٦-وأكثر	١	٣	١	٢	٠	١	٢	٠
المجموع	٤	٣٧	٣	٧	٢	١٤	١٦	١٧

أما العلاقة بين العمل وترتيب التبرعات في حال طلب من الفرد القيام بذلك، فقد أعطت معظم الإجابات الأولوية الى العائلة، في حين تحظى المدينة بأقل تركيز، أما الوطن فقد حظي بالمرتبة الثالثة من حيث عدد الأشخاص الذين أبدوا التبرع له، في حين رفض أربعة أشخاص الإجابة على السؤال:

العمل	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
متقاعد	٠	٣	٠	٢	٢	١	١	١
عسكري	٠	٣	٠	٠	٠	١	٠	١
موظف حكومة	٠	١٥	٠	١	٠	٩	٥	٢
موظف خاص	٠	٢	٠	١	٠	٠	١	٠
عامل غير فني	٢	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠
عامل فني	٠	١	١	١	٠	١	٠	١
تاجر	٠	٥	٠	٢	٠	٠	٠	٠
عمل حر	٢	١	٢	٠	٠	١	١	٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

مهندس	٠	١	٠	٠	٠	١	٠	١
طبيب	٠	٢	٠	١	٠	٠	٠	٠
طالب	٠	٦	٠	١	٠	٥	٠	٢
غير موجود	٠	٤	٠	١	٠	١	١	٠
المجموع	٤	٤٣	٤	١٠	٢	٢٠	٩	٨

ومن أجل فحص الترتيب الذي يمكن للفرد أن يصيغ ولاءاته وفقه في سياقات مختلفة، فقد كانت إجابات أعضاء العينة على سؤال حول الطريقة التي يرتبون بها ولاءاتهم أثناء مناسبة معينة، وقد كان نص السؤال هو كالتالي: في حال حصول مناسبة زواج تخص أحد أفراد أسرتك، فما الذي يؤثر في موقفك بشكل كبير أثناء تلك المناسبة من بين التالية: العائلة، المضافة، العشيرة، الوطن، المدينة، الأمة الإسلامية؟

لقد ركزت معظم الإجابات على دور العائلة أو الأسرة وتأثيرها على صياغة موقف الشخص أثناء مناسبة الزواج المفترضة، ورأى ٤٤ شخصا في العائلة الخيار الأول الذي يضعونه في الاعتبار، وقد حظيت العشيرة على الموقع الثاني من حيث عدد الأشخاص الذين رأوا العامل الهام في تحديد موقفهم، وحصلت على ٢٤ نقطة، في حين حظيت المضافة بأقل تركيز.

العمل	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة الإسلامية
متقاعد	١	٣	٠	٤	٠	٠	٢
عسكري	٢	٢	٠	١	٠	٠	٠
موظف حكومة	١	١٤	١	٨	١	٤	٣
موظف خاص	٠	٣	٠	٠	١	٠	٠
عامل غير فني	٠	٢	٠	١	٠	٠	٠
عامل فني	٠	٣	٠	٢	٠	٠	٠
تاجر	٢	٢	٠	١	٠	٠	٠
عمل حر	٤	١	٠	١	٠	١	٠
مهندس	٠	١	٠	٢	٠	٠	٠

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

طبيب	٠	٣	٠	٠	٠	٠	٠
طالب	٢	٧	٠	٣	٠	٠	٢
غير موجود	١	٣	٠	١	١	١	٠
المجموع	١٣	٤٤	١	٢٤	٣	٦	٩

- جدول يبين العلاقة بين العمر والاجابة على السؤال السابق:

العمر	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة الاسلامية
١٦-٢٥	٥	١٣	٠	٤	٠	١	١
٢٦-٣٥	٣	١٣	٠	٨	٢	١	٢
٣٦-٤٥	١	١٠	٠	٤	١	٢	٢
٤٦-٥٥	٣	٧	٠	٤	٠	١	٢
٥٦-فوق	١	١	١	٤	٠	١	٢
المجموع	١٣	٤٤	١	٢٤	٣	٦	٩

- جدول يوضح العلاقة بين التعليم والسؤال السابق:

التعليم	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية
أقل من ثانوي	٧	١٦	٠	١٣	٠	٢	٤
تعليم عالي	٥	٢٦	١	٩	٣	٤	٣
دراسات عليا	١	٢	٠	٢	٠	٠	٢
المجموع	١٣	٤٤	١	٢٤	٣	٦	٩

إن الأمر الملفت للنظر هو قيام كثير من أفراد العينة باعتبار العالم الثالث هو الموضوع الأكثر قربا لهم أثناء أزمة الخليج في العام ١٩٩٠. لقد تم طرح السؤال التالي: أثناء أزمة الخليج قبل أشهر، ما هو الموضوع الذي شعرت بأنه الأكثر أهمية لك، والأكثر قربا منك آنذاك: العائلة، الأمة العربية، الأمة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الإسلامية، المدينة، المضافة، الوطن، العالم الثالث، العشيرة؟ لقد أعطى ٤٩ شخصا العالم الثالث صفة الموضوع الأكثر أهمية، في حين أن العائلة تراجعت كثيرا من حيث الأهمية، وبقيت المدينة والمضافة تحظيان بعدد قليل من المهتمين بهما.

العمل	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	العالم الثالث	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
متقاعد	١	٠	٠	٠	٠	١	٧	١	٠
عسكري	٠	٠	٠	٠	٠	١	٤	٠	٠
موظف حكومة	٠	٣	١	٠	٠	٨	١٧	٣	٠
موظف خاص	٠	٠	٠	٠	١	٠	١	٢	٠
موظف غير فني	١	٠	٠	٠	٠	٠	٢	٠	٠
موظف فني	٠	٠	٠	٠	٠	١	٣	١	٠
تاجر	١	١	٠	٠	٠	٠	٣	٢	٠
عمل حر	٢	٠	٠	٠	٠	٠	٤	١	٠
مهندس	٠	٠	٠	١	٠	٢	٠	٠	٠
طبيب	٠	٠	٠	٠	٠	١	١	١	٠
طالب	٢	١	٠	١	٠	٣	٣	٣	١
غير موجود	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٤	٢	١
المجموع	٧	٥	١	٢	١	١٧	٤٩	١٦	٢

- جدول يبين العلاقة بين التعليم والسؤال السابق حول ترتيب الفرد ولاءاته أثناء أزمة الخليج:

التعليم	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	العالم الثالث	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
أقل من ثانوي	٥	٢	٠	١	٦	٢٢	٦	٠	
تعليم عالي	٢	٣	١	١	١	٩	٢٤	٨	٢
دراسات عليا	٠	٠	٠	٠	٠	٢	٣	٢	٠
المجموع	٧	٥	١	٢	٧	٤٨	١٦	٢	

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد حظي الانتماء الى الوطن بالموقع الأول عند عدد كبير من الأشخاص الذين طلب منهم تحديد إهتماماتهم بعدد من الاهتمامات أثناء الانتخابات النيابية الأخيرة في الاردن، وعند طرح السؤال التالي: عند مشاركتك ف الإنتخابات النيابية في العام ١٩٨٩، أين انحصر اهتمامك الرئيس، وأين كنت تشعر بمصلحتك من بين التالية: المضافة، العشيرة، الوطن، الأمة العربية،الأمة الإسلامية، المدينة، العائلة؟

العمل	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
متقاعد	٢	٢	٠	٠	٠	٥	١	٠
عسكري	٠	٠	١	١	٠	٣	٠	٠
موظف حكومة	٠	٠	١	٧	٠	١٧	٦	١
موظف خاص	٠	٠	٠	٢	٠	٠	١	١
عامل غير فني	١	٢	٠	٠	٠	٠	٠	٠
عامل فني	٠	٠	٢	١	٠	١	١	٠
تاجر	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٦	٠
عمل حر	٣	٠	١	٠	٠	٢	١	٠
مهندس	٠	٠	٠	٠	١	٢	٠	٠
طبيب	٠	٠	٠	٠	١	٢	٠	٠
طالب	٦	٠	٠	٢	٠	٣	١	٢
غير موجود	٠	٠	٠	١	٠	٥	١	٠
المجموع	١٢	٤	٥	١٤	٢	٤٦	١٢	٥

- جدول يبين العلاقة بين العمر والسؤال السابق:

العمر	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن	الأمة العربية	الأمة الإسلامية
٢٥-١٦	٦	٢	١	٣	٠	١٠	١	١

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

٢٥-٢٦	١	٠	١	٦	١	١٤		٤	٢
٣٦-٤٥	١	٠	٣	٣	١	١٠		١	١
٤٦-٥٥	٢	٠	٠	٢	٠	٩		٣	١
٥٦-وأكثر	٢	٢	٠	٠	٠	٣		٣	٠
المجموع	١٢	٤	٥	١٤	٢	٤٦		١٢	٥

- جدول يوضح العلاقة بين المستوى التعليمي والسؤال السابق.

التعليم	لم يجب	العائلة	المضافة	العشيرة	المدينة	الوطن		الأمة العربية	الأمة الإسلامية
أقل من ثانوي	٥	٣	٤	٦	٠	١٨		٦	١
تعليم عالي	٧	٢	٠	٨	٢	٢٤		٦	٢
دراسات عليا	٠	٠	١	٠	٠	٤		٠	٢
المجموع	١٢	٤	٥	١٤	٢	٤٦		١٢	٥

٥ - الخـــلاصـــة

يمكن الافتراض، أن التغير الذي طرأ على التسمية المتعلقة بالمضافات، ترافق مع تغير في طبيعة المكان والحيز المتعلقان بالمضافات ويرتبط ذلك بشكل كبير بالتغيرات التي طرأت على شروط الزعامة، ومن ثم طبيعة الشروط المتوفرة في مالك المضافة، لقد شغلت المضافات في السابق، حيزا مكانيًا ملحقا بالسكن، الذي يتبع فردا متميزا اقتصاديا واجتماعيا، أما حاليا، فقد تلاشت معظم المضافات الملحقة بمنزل المالك الفرد، ولا يمكن العثور على هذا النمط، الا لدى الوحدات القرابية التي تملك أكثر من مضافة، والتي يملك بعض أفرادها مضافات خاصة بهم، اضافة الى مضافة رئيسية تتبع جميع أفراد الوحدة القرابية، وتساهم الغالبية بنفقاتها.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ان المضافات التي ترتبط بكامل، أو بمعظم أعضاء الوحدة القرابية، لم تعد ترتبط بمنزل أي شخص داخل الوحدة القرابية، وان كانت المضافة تقام في غالب الاحيان، داخل منطقة تسكن فيها غالبية أعضاء الوحدة القرابية، كذلك، فان هناك حساسية تبرز لدى بعض أفراد الوحدة القرابية من اقتراب او ارتباط المضافة، بمنزل أو بيت شخص معين، وخصوصا في حالات وجود صراع داخل الوحدة القرابية، إن إقامة المضافة في مكان منفصل، واعطاء بنائها هامشا من الاستقلالية، يشير الى رغبة في اعطاء مضمون توحيدي ومتماسك للوحدة القرابية، واعطاء هذا المضمون نوعا من التموضعية و التسامي Objectivization and Transcendantalism ، الذي يوحي برغبة الأفراد من الوحدات القرابية إعطاء «العشيرة» وجودا يكون خارج ذات الأفراد.

كذلك، يوحي البناء المستقل للمضافات، والاصرار على هذا البناء، برغبة بعض المتنفذين داخل المضافات بعدم اعطاء مؤشرات مادية توحي بوجود صراع داخل المضافات، ومن ثم تجريد الخصوم من المتنفذين من بعض عناصر القوة التي يسعون لها، والتي تتيح لهم امكانيات الاستفادة من وضع تكون فيه الوحدات القرابية متماسكة، ان الالتفاف حول المضافة، يثير لدى مجتمع الدراسة، شعورا بوجود تماسك داخل الوحدة القرابية، وبالتالي فان ارتباط المضافة بفرد معين داخل الوحدة القرابية، أو بفرع معين داخل هذه الوحدة، يمكن أن يعطي الاحساس بقوة وتنفذ هذا الفرد أو هذا الفرع، بالنظر الى وجود مجموعة قرابية متماسكة حوله.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الفصل الخامس

الإستنتاجات

العشيرة كبناء وايديولوجيا وعلاقته بالبيروقراط

إن الحديث من قبل مجتمع الدراسة عن وجود «عشائر» و«عشائرية» في مدينة إربد، هو أمر يردده الجميع كحقيقة مطلقة ولا يوجد تمييز بين السياقات الاقتصادية الاجتماعية التي ظهرت وسطها هذه الوحدات الاجتماعية في الماضي، والسياق الاقتصادي الاجتماعي التي تعيشه مدينة إربد حاليا، ويتم تداول التعبير، من قبل الجميع والذين تتباين مستوياتهم الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية، بنفس الطريقة، «فالعشيرة» وكما يتم تناولها هي بناء جامد وساكن، ويملك القدرة على الاستمرار في مختلف الظروف.

ويبدو من المهم مناقشة مفهوم «العشيرة» انثروبولوجيا من خلال ربط «العشيرة» كتنظيم إقتصادي - واجتماعي بمجموعة محددة من الشروط الاقتصادية والاجتماعية المرافقة في لحظة تاريخية محددة، ويمكن القول أن الحديث عن تنظيم اجتماعي قائم على «العشيرة»، لم يعد مقبولا دون صياغة تعريف جديد لمفهوم «العشيرة»، يلائم مجموعة التغيرات التي طرأت داخل البناء الاجتماعي.

لقد ارتبط مفهوم العشيرة في الماضي بجملة من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية التي كان أهمها الاعتماد الكبير على الأنشطة الزراعية والفلاحية والرعوية في تأمين الاحتياجات المختلفة للفرد، وترافق ذلك مع شبه غيابات لكل من الأنشطة التجارية والصناعية، وإن كان هناك نشاط حرفي بسيط، يقوم على صناعة الفخار والأواني، وحياكة الملابس والسجاد، وقد لعب العاملان الجغرافي والمائي دورا في سيادة الانشطة الزراعية والرعوية، حيث تحيط بالمدينة مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة وللرعي ولعب الوضع المائي من حيث محدودية كميات المياه، دورا في سيادة الزراعة الموسمية الممتدة، بالنظر الى أن مياه الأمطار، تشكل المصدر الأساسي لري الأراضي وترافق مع محدودية كميات المياه، أشكال بسيطة من التكنولوجيا الزراعية، كالمحراث الذي تجره

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الابقار والحمير، والذي يعني محدودية في طاقة العمل غير البشرية التي تتيحها التكنولوجيا الزراعية.

لقد كان للظروف السابقة انعكاسات كبيرة على شكل التنظيمات الاجتماعية السائدة والعلاقات القائمة بينها، ويمكن الافتراض أن «العشيرة» كتنظيم إقتصادي - إجتماعي ترافق مع تلك الظروف، فالحاجة إلى تكاتف الأفراد كانت ماسة من أجل حشد قوة العمل اللازمة لإنجاز العمليات الضرورية في الزراعة، إذ لم يكن باستطاعة الفرد العمل منفصلا عن الآخرين، كذلك، يلاحظ أن ملكيات أعضاء الوحدات القرابية من الأراضي الزراعة تتجاور بجانب بعضها البعض.

إن طبيعة الانشطة الاقتصادية السائدة، ونمط الاستيطان السائد، يسمحان بالحديث عن وجود بناء مادي «للعشيرة»، ويمكن تطوير هذا الافتراض والقول بأن هذا البناء المادي كان ملموسا وملاحظا، وهو يقدم مساعدات مباشرة للفرد، تتمثل في تامين الغذاء والحماية، وقد كان باستطاعة عضو الوحدة القرابية أن يلحظ وجود هذا البناء معظم الوقت، ففي الحقل فان معظم العاملين معه هم من أعضاء الوحدة القرابية التي يتبعها، وفي بيته فهو يقطن في الغالب الى جانب أعضاء وحدته القرابية.

إلا أن هذا البناء المادي للوحدة القرابية، تعرض لضغوطات ومؤثرات كثيرة، فقد حدثت تحولات هامة على صعيد الأنشطة الاقتصادية، ولم يعد النشاط الزراعي الموسمي والممتد الذي يتبع أسلوب حشد قوة العمل، هو النشاط السائد، بعد بروز أنشطة جديدة كالتجارة، والخدمات، والوظيفة الحكومية، وقد كان لهذه الأنشطة إنعكاساتها على صعيد قوة العمل، فلم يعد من الضروري بالنسبة لمن يمارس هذه الانشطة الالتصاق بالوحدة القرابية التي يتبعها، كذلك، فان بعض هذه الأنشطة تطلب من أعضاء الوحدات القرابية ترك عائلاتهم والتوجه الى أماكن قد تكون خارج مدينة إربد، وعمل تطور وسائل المواصلات، وشق الطرق على تشجيع حركة الأفراد في مناطق مختلفة من المدينة، وحتى خارج المدينة، وأتاح ارتفاع معدل الدخل ومستويات المعيشة خيارات أكثر للفرد فيما يتعلق باختيار منطقة سكنه.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

لقد كان من نتائج هذه التطورات، أن تشتت أعضاء الوحدات القرابية، كذلك، فقد كان لتزايد تواجد مؤسسات الدولة التي أصبح بامكانها توفير الحماية للفرد، وحل الكثير من مشاكله بعيدا عن الوحدة القرابية، أن أصيب بناء هذه الوحدات القرابية كثيرا، ولم يعد البناء المادي «للعشيرة» يتمتع بنفس قوة الحضور التي كان يتمتع بها في ظل سيادة الاقتصاد الزراعي، ولم تعد «العشيرة» ببنائها المادي، تملك نفس قوة الجذب لاعضائها، كتلك التي كانت تملكها.

ويمكن الجدال أن ما يسمى بالعشيرة حاليا لا يتطابق والعشيرة كما سادت في فترة تاريخية محددة بمجموعة من الشروط الإقتصادية ـ الإجتماعية، ويمكن الذهاب الى أبعد من ذلك، والقول بأن العشيرة أصبحت تجسد بناءات ذهنية ذاتية تقبع داخل الفرد، وأنها لا تملك وجودا موضوعيا خارج هذا الفرد، وقد أصبح وجود العشيرة يتولد من خلال مجموعة من المعاني والاحساسات التي يملكها أعضاء الوحدة القرابية ممن يعتقدون بوجود جد واحد مشترك لهم.

ويجسد الاهتمام المتزايد بوضع تأريخ للعشيرة عند بعض أعضاء الوحدات القرابية إتجاها نحو خلق شعور بالانتماء للعشيرة عند أعضائها، ويلاحظ في الفترة الحالية قيام عدد من المثقفين داخل بعض الوحدات القرابية، بالاهتمام بتراث العشيرة، وتاريخها، وأصولها، وأفرعها، ويمكن فهم هذه الاهتمام باعتباره يجسد محاولات لخلق إحساس بالتفرد عند أعضاء الوحدة القرابية، ومن ثم إعطائهم إحساسا بالوحدة من خلال الشعور بالتاريخ المشترك والمتميز، إن السيد محمد بني هاني يقوم بتجميع معلومات مختلفة عن الوحدة القرابية التي ينتبعها، وبالذات الفرع الذي ينتمي اليه، كذلك، يقوم السيد غسان التل بالاهتمام بتاريخ وحدته القرابية، في حين يقوم السيد يوسف عبدالقادر التل بالترويج لبعض الاحداث المهمة في تاريخ العشيرة، ويقوم السيد أبو طارق الخريسات بجمع المعلومات المتعلقة بعشيرة الخريسات من مصادر مختلفة بينها الكتب الأكاديمية.

ويقوم العديد من المتنفذين داخل الوحدات القرابية بنشر بعض المعلومات المتعلقة بمساهمة الوحدة القرابية من خلال بعض أعضائها في بعض الاحداث التاريخية المحلية والوطنية والقومية، أن بعض المضافات تقوم بعرض بعض الصور الخاصة ببعض الشخصيات ذات الاهمية، فمضافة التلول تعرض بعض

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الصور لشخصيات مثل السيد عبدالقادر التل والى جانبه بعض الشخصيات الأردنية ممن لعبت دورا في مجرى الاحداث في المنطقة، وكذلك صورا للسيد وصفي التل أحد رؤساء الوزارات في الاردن، وصورا للشاعر مصطفى وهبي التل، وتقوم عشيرة الرشيدات بعرض بعض الصور لشخصيات من قبيل السيد شفيق إرشيدات وهو سياسي أردني ذات توجهات قومية في الخمسينيات والستينيات، والسيد عبدالله إرشيدات الذي عمل في القصر الملكي وشغل منصب الوصي على العرش بعد تنحية الملك طلال.

ويثير الحديث عن العشيرة في الغالب مشاعر محددة عند أعضاء الوحدات القرابية من المتقدمين في السن، ويضع هؤلاء في الغالب فارقا كبيرا بين العشيرة حاليا والعشيرة في الماضي من خلال ربط العشيرة ببعض المعاني التي لم تعد موجودة الان، وتثير هذه المعاني في الغالب مشاعر الحنق والأسى والحزن، إن العشيرة لدى كبار السن ترتبط بقيم التسامح، والتعاون، والتكافل، والمواساة، ونجدة الضعيف، وأيواء الهارب والنازح، و«الغيرة على أعراض الغير» ويقول أحد كبار السن من «عشيرة» الحتاملة «البركة انفقدت الان، بعد ما كانت إربد عائلة واحدة، فالجميع كانوا يحزنوا لاي مصيبة عند أي عائلة»

ويربط البعض من أعضاء الوحدات القرابية بين مكانة وحدتهم وامتلاكهم لمساحات كبيرة من الاراضي داخل مدينة إربد، وأحيانا في القرى المحيطة بالمدينة، كذلك، يركز البعض على الثراء الذي يتصف به بعض أفراد الوحدة القرابية، وهناك تركيز مستمر على المساحات التي كانت تملكها الوحدة القرابية في الماضي، والمركز التجاري الذي يتمتع به بعض أعضاء الوحدة القرابية حاليا.

وقد ترتبط العشيرة عند البعض من مجتمع الدراسة بمصارعة الدولة وخصوصا أيام الحكم العثماني والانتداب البريطاني، وأحيانا في فترة مبكرة من تأسيس المملكة الأردنية الهاشمية، إن شخصين من عشيرتين مختلفتين يؤكدان هذا الافتراض، فالاول يتحدث عن دور عشيرته في مصارعة العثمانيين ورفضهم لسلطتهم، وبالتالي عدم تمتعهم بمناصب ومنافع كبيرة من قبل العثمانيين كغيرهم من العشائر، أما الثاني فيشير الى نضال بعض أبناء العشيرة ضد البريطانيين ومشاركة أبيه في مؤتمر أم قيس عام ١٩٢٠، ومشاركة بعض أبناء

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويرى البعض في مساهمة أحد أو مجموعة من أبناء العشيرة في بناء المملكة مدعاة للتأكيد على دور العشيرة، ويشير أحد الاشخاص الى الدور الذي لعبه جده في تقديم التأييد والدعم للملك عبدالله في بداية إنشاء المملكة، وهو يشير الى رسالة كان الملك عبدالله قد ارسلها الى والده يطلب فيها منه مساعدة حامل الرسالة من خلال منحه مبلغا محددا من المال.

وجنبا الى جنب مع الانشطة الذهنية السابقة، فانه يمكن فهم التسارع في وتائر بناء المضافات، باعتباره يجسد محاولات من قبل بعض المتنفذين والطموحين داخل الوحدات القرابية لخلق بناء مادي للعشيرة، إن المضافة ببنائها وتواجدها الدائم وتردد أعضاء الوحدات القرابية عليها، يفترض به أن يعطي الفرد الاحساس بوجود وحدته القرابية، التي يستطيع التقاء بها ومشاركتها نفس المكان في بعض الأوقات، ويمكن الافتراض بأن المتنفذين داخل المضافات يرون في المضافات وسيلة قادرة على تكريس مفهوم العشيرة ومفهوم الوحدة لدى أعضاء الوحدة القرابية الذين تفرقوا جغرافيا، ويمارسون أنشطة اقتصادية مختلفة.

أن معظم الوحدات القرابية في مدينة إربد تتحدث عن امتدادات لها مع وحدات قرابية أخرى خارج المدينة، في شمال الاردن وفي جنوبه، أن عشيرة بني هاني تتحدث عن امتداد لها مع أحدى عشائر الكرك، وتتحدث أعضاء عشيرة الخريسات عن أقارب لهم في السلط، ويعتبر أفراد عشيرة البصول أنهم ينتمون الى عشائر بني حسن في المفرق، وكذلك الامر بالنسبة الى عشيرة الحتاملة التي ترتبط بعشيرة الحتاملة في بلدة الحصن، ويعتبر أفراد العشيرة أنهم ينحدرون من أحد أفرع عشائر بني حسن، ويقيم أفراد عشيرة الطبيشات روابط قرابية بينهم وبين عشيرة البطوش في مدينة الكرك، جنوب الأردن.

ويمكن فهم الحديث عن وجود امتدادات للوحدات القرابية في المدينة مع وحدات أخرى خارج المدينة من خلال النظرة السائدة حول دلالات العدد، إن الامتداد مع وحدات قرابية أخرى يعني مزيدا من الافراد، وبالتالي حجما أكبر،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

ويوفر ذلك شعورا بالقوة لدى أعضاء الوحدات القرابية أمام الوحدات القرابية الاخرى، وهو يهدف أيضا الى خلق ايحاءات لدى الوحدات القرابية الاخرى عن قدرات لدى هذه الوحدات في خلق تحالفات في حال قيام نزاع مع مجموعات قرابية أخرى.

ومما ينسجم مع الدلالات الاجتماعية حول مفهوم العدد، قيام معظم أفراد الوحدات القرابية بإعطاء معلومات تقلل من أعداد الوحدات القرابية الاخرى، في الوقت الذي يلجأون فيه الى التضخيم من أعداد الوحدات القرابية التي يتبعونها، وقد لوحظ وجود فجوة بين الرقم الذي يعطيه عضو الوحدة القرابية عن عدد اعضاء وحدته، والرقم الذي يعطيه شخص من خارج هذه الوحدة عن نفس الوحدة، فالشخص الاول يعطي في الغالب رقما أكبر من الرقم الذي يعطيه الشخص الثاني.

كذلك، تبرز لدى بعض أعضاء الوحدات القرابية المختلفة صور نمطية عن الوحدات الاخرى، وتتضمن هذه الصور إتهامات لبعض الوحدات، أو تشكيكا في مصداقيتها، أو طعنا في أصولها القرابية. فقد اتهم أحد الاشخاص المتنفذين داخل أحد فرعي أحد عشائر البارحة اتهم أحدى العشائر المجاورة بالتعاون مع الحكومة العثمانية، وهو ما حقق لهم نفوذا وثراء، في الوقت الذي رفض فيه أفراد عشيرته التعامل مع العثمانيين، وهو الامر الذي حرمهم من كثير من السلطة والثراء. كذلك، فقد كانت هناك اتهامات للفرع الذي يتبعه أحد الاشخاص المتنفذين من العشائر المجاورة، بأنه لا ينحدر من نفس العشيرة، وانما ينحدر من أصل فلسطيني.

إن كثيرا من أعضاء الوحدات القرابية أصبحوا يقيمون ربطا بين أحد الاعضاء البارزين داخل الوحدة وبين الوحدة التي يتبعونها، وفي هذه السياق يظهر تعبير «جماعة» وتتنوع خصائص هذه الشخصية وأهميتها، وفي الغالب فإنها شخصية ذات مكانة رفيعة في الجهاز البيروقراطي، وتتمتع بحيث وسمعة واسعة. إن الحديث مع أحد أعضاء إحدى عشائر مدينة إربد تضمن تقسيما للوحدة القرابية، من خلال القول «احنا جماعة الدكتور فلان»، في حين كان يشير الى الفرع الآخر من خلال القول «جماعة الدكتور أحمد»، ولم يعد الارتباط وتحديد الهوية يعتمد على سلف متوفي، وانما هو شخصية ما زالت تمارس أنشطتها،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

وذات نفوذ،

ويدعم هذا الربط بين الوحدة القرابية وأحد الأعضاء المتنفذين داخل جهاز الدولة، أو ممن يطمحون لدخوله، من الجدال بأنه لا يمكن الحديث عن بناء مادي للعشيرة في إربد حاليا، إن الانتساب لجماعات الانحدار وبضمنها العشيرة، يقوم على مبدأ تتبع أحد الأجداد المتوفين، الذي تنتمي اليها مجموعة من الافراد من خلال علاقات الدم، ويكون هذا الجد في الغالب معروفا من قبل أعضاء الوحدة القرابية، وبشكل اقل الوحدات القرابية الأخرى، وبدلا من اللجوء الى تحديد الجد الذي ينتمي اليه أعضاء الوحدة القرابية، أصبح هناك تعريف يعتمد على أحد الأشخاص الذين يتمتعون بوضع متميز داخل الجهاز البيروقراطي، وهو ما لا يتفق مع التعريفات المختلفة للوحدات القرابية.

وتبرز التعبيرات التي يستخدمها بعض رواد المضافات الطريقة التي يعرف الفرد بها المضافة، كما تبرز في بعض الأحيان المعنى الذي يرتبط بالمضافة لديه، وتختلف هذه التعبيرات باختلاف المستويات العمرية والمهنية والتعليمية لهؤلاء الرواد، وتبرز الأحاديث المباشرة مع هؤلاء سواء في المضافات، أو في بيوتهم، أو في مكان عملهم تباينا في وجهات النظر تجاه المضافات وأنشطتها،

إن المضافات الحالية بالنسبة لكبار السن، ليست حقيقية، وهم يعتبرونها دوواين أكثر منها مضافات، وهم يرون أن المضافات في الماضي هي الحقيقية، لانها كانت تقدم مستلزمات الضيافة لكل زوار المضافات، وبالذات «الغرباء» أما المضافات الحالية، فهي لا تقدم هذه الخدمات، ولم تعد تستقبل الغرباء، وترتبط المضافة لدى هؤلاء بوجود نساء تتفرغ أحداهن للعمل في المضافة، بشكل دوري، وبتواجد دائم لبعض الأقارب الذين يساهمون باستقبال «الغرباء»

وبالنسبة لكثير من الشباب، فان المضافات، هي أماكن يستطيع الفرد من خلالها أن يتعرف على أقاربه، وأن يتفاعل معهم، وهم يترددون عليها - كما يقول بعضهم - منذ أن أدركوا أهمية التعرف على الناس والالتقاء بهم، ومنذ أن أدركوا أهمية «العشيرة» وضرورة الالتقاء بأعضائها،

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

أما بعض المتنفذين داخل المضافات، فإنهم يرون فيها مؤسسات للضبط والتنشئة الإجتماعية، وهي لديهم قد تعكس مراتبية تضم الشباب إضافة لكبار السن، أو العقلاء إضافة للجهلاء، ويعتبر أحد الوزراء المتنفذين داخل مضافة عشيرته «أن المضافات تشجع عمل الخير، وهي مدرسة للشباب، ولكل أفراد العشيرة، وهي تساعد العقلاء في السيطرة على الجهلاء، حيث أنه في كل عشيرة هناك أشخاص عقلاء وهناك أشخاص جهلاء، وبواسطة المضافة يمكن توجيه فئة الجهلاء من قبل فئة العقلاء»

ويرى البعض في المضافة بمثابة مكان لتشكيل ثقافة عند الفرد من أعضاء الوحدة القرابية، وهم يرون أن وجود بعض المثقفين الذين درس معظمهم في ثقافات أخرى، يعطي الفرصة لتبادل الآراء حول هذه الثقافات ويرى البعض أن بناء المضافة لا يعني شيئا، وأن المضافة هي «مكان تتلاقح فيه الأفكار، وحيث يجري نقاش مفيد داخلها، وقد جرى نقاش كهذا في الانتخابات النيابية الأخيرة»، كذلك، يعتبر البعض أن المضافات تعمل على إزالة الجوانب السلبية من العشائرية، وتقوم بتنمية الجوانب الايجابية، أما أحد أفراد إحدى العشائر التي تقطن وسط إربد، ويشغل منصب مساعد حاكم إداري، فيرى أن المضافة «تساهم في تكوين معرفة وثقافة لدى أفراد العشيرة»

وترمز المضافة لدى البعض لمعاني الوحدة والانسجام داخل الوحدة القرابية، وهي تعني غياب الصراع والتفتت إن من السهل تحول الانقسامات داخل الوحدة حول أمر ما، الى بروز مضافات، وتشهد كثير من الوحدات هذه الظاهرة، وفي معظم الاحوال، فإن العامل السياسي يكون هو المحفز لبروز هذه الانشقاقات، وبالتالي تعدد المضافات، ويمكن القول أن إنشاء مضافة جديدة لنفس الوحدة القرابية، هو أمر تبذل الكثير من المحاولات من أجل تجنبه، وفي الحالات التي تصل فيها حدة الانشقاق الى المدى الذي يؤدي لبروز مضافة جديدة، فإن المحاولات تبذل من أجل توحيد الوحدة القرابية والذي ينبغي أن ينعكس في مضافة واحدة، وبالنظر لارتباط المضافة بالوحدة القرابية، فانه كثيرا ما كان يصعب على بعض الاشخاص وضع فروق بين المضافة والعشيرة، بل أن بعضهم كان يرد على السؤال حول هذه الفروق، من خلال التساؤل: وهل هناك فروق، ما الفرق بين المضافة والعشيرة؟

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

إن المثال التجريبي الذي تقدمه دراسة ظاهرة المضافات في مدينة إربد، يمكن أن يوحي بكثير من الاستنتاجات فيما يتعلق بعدد من القضايا المرتبطة بظاهرة المضافات، وتشمل هذه القضايا تلك المتعلقة بتطور شكل الزعامة وشروطها داخل المضافات، وداخل الوحدات القرابية، وكذلك تطور العشيرة كتنظيم إجتماعي وإقتصادي، إضافة الى علاقة البيروقراط بالمضافات وبالوحدات القرابية المالكة لهذه المضافات.

لقد بينت الدراسة تطور الزعامة داخل الوحدات القرابية من زعامة تعتمد كثيرا على ملكية الأرض الزراعية والحيوانات المختلفة، الى زعامة أصبحت تعتمد كثيرا على العمل في الجهاز البيروقراطي الحكومي، وإشغال مكانة هامة داخل هذا الجهاز، وتشير دراسة Gerholm (1977) الى إنه وفي الحالة اليمنية فإن الزعامة أصبحت ترتكز بشكل كبير على مدى إرتباط شيوخ القبائل بالجهاز البيروقراطي في العاصمة، وتوحي دراسة جوبسر (١٩٧٢) في مدينة الكرك بنتائج مماثلة فيما يتعلق بمكانة الفرد داخل الوحدة القرابية التي تعتمد كثيرا على قوة الارتباط مع جهاز الدولة، وتتيح نتائج الدراسة الميدانية لظاهرة المضافات القول بأن الزعامة قد تبدأ من الجهاز البيروقراطي ولكنها لا تنتهي داخل الوحدات القرابية وحسب، وإنما تتجاوز ذلك لتصل الى المؤسسات المرتبطة بهذه الوحدات القرابية من قبيل المضافات.

إلا أن النفوذ القوي داخل المضافات وداخل الوحدات القرابية الذي أصبح يرتبط كثيرا بالعمل في الجهاز البيروقراطي، يثير بعض التساؤلات المتعلقة بالدور المناط بفئة البيروقراط، كما تتحدث عنه بعض الدراسات.

لقد ذهبت بعض الدراسات الى إعتبار فئة البيروقراط في مجتمعات الشرق الاوسط بمثابة محتوى لطبقة وسطى قادرة على نقل هذه المجتمعات من المرحلة التقليدية الى مرحلة الحداثة (Ayubi 1980) و (بيرغر ١٩٥٨)، وتفترض هذه الدراسات التحديثية قيام هذه الفئة بالعمل على إزالة العوائق التي تخلقها بعض الوحدات الإجتماعية السائدة من قبيل الطائفة والعشيرة والقبيلة، كذلك، تفترض هذه الدراسات إنحسارا في الأشكال الخصوصية من الايديولوجيا، كالولاء للعائلة

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

والعشيرة لصالح إنتشار أوسع لإشكال أكثر عمومية أو عالمية من الإيديولوجيا.

إن النتائج التي تتيحها دراسة المضافات من حيث علاقتها بالوحدات القرابية وتنفذ البيروقراط داخلها، يثير كثيرا من الشكوك حول المقولات التحديثية السابقة. لقد شهدت المضافات التي تترافق مع تنظيم إجتماعي يقوم على علاقات القرابة، أقصى توسع لها في ظل أقصى توسع للجهاز البيروقراطي وبدلا من أن يعمل توسع الجهاز البيروقراطي الذي يضم أوسع شريحة من المتعلمين والفنيين، على تقليص أعداد المضافات، فإن عمل المضافات وأعدادها انتعش في ظل هذا التوسع.

كذلك، فإن تزعم البيروقراط لحركة بناء المضافات وارتباط المضافات بأسماء بعض البيروقراطيين ذوي المكانات الرفيعة داخل جهاز الدولة، لا يترك مجالا للقبول بالدور الذي يمكن أن يلعبه البيروقراط في عملية التحديث. لقد عمل هؤلاء على بناء مزيد من المضافات، ومن ثم ترسيخ مفهوم العشيرة والوحدة القرابية أيديولوجيا، بعد أن تعرض البناء المادي للعشيرة لكثير من العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن أن تعمل على تفتيته. وبدلا من أن يقوم البيروقراط بدعم الاشكال العمومية من الايديولوجيا، فانهم يعملون على دعم الاشكال الخصوصية منها والتي ترتكز على الولاء والانتماء للعشيرة والعلاقات القرابية.

وتثير الدراسات التي عالجت العلاقة ما بين الدولة والقبيلة في مجتمعات الشرق الاوسط، أسئلة مختلفة حول نجاعتها في فهم طبيعة هذه العلاقة. لقد تعاملت هذه الدراسات مع علاقة جدلية بين القبيلة والدولة، وهي بذلك تعالج القبيلة كبناء له حدوده الواضحة، والدولة كبناء محدد له حدوده الواضحة ايضا. وتجسد دراسات (Davis) (1987) و (Gerholm) و خوري (١٩٨٣) و (Layne) (1986) اتجاها كهذا في التعامل مع الدولة والقبيلة كبنائين لهما حدودهما الواضحة.

إن دراسة المضافات وتنفذ البيروقراط داخلها، وإرتكاز الزعامة داخل العشيرة والمضافة على المكانة داخل الجهاز البيروقراطي يشير الى أن بنائي

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

العشيرة والبيروقراطية يتداخلان، وأن من الصعوبة بمكان الحديث عن بنائين منفصلين، فالبيروقراط يشغلون مكانات داخل الجهاز البيروقراطي، وفي نفس الوقت يشغلون أمكان مميزة داخل بناء العشيرة، وبذلك فان هناك انتسابا مزدوجا وثنائيا لهم داخل العشيرة وداخل الدولة في نفس الوقت.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المراجع العربية:

أبو دية، سعد
١٩٨٨ تاريخ الفكر السياسي الاردني: نموذج في الفكر السياسي الاردني من خلال كتب التكليف التي وجهها الملك حسين إبن طلال الى رؤساء الوزارات، الاردن: دار البشير.

أسيري، عبدالرضا
١٩٨٦ الانتخابات النيابية السادسة (١٩٨٥) في الكويت: تحليل سياسي، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد الرابع عشر: العدد الاول، الكويت: جامعة الكويت، ص ٩٥ - ١٣٨.

بيرغر، مورو
١٩٥٨ البيروقراطية والمجتمع في مصر الحديثة: دراسات عن موظفي الحكومة، ترجمة: محمد توفيق رمزي، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

تيرنر، بريان
١٩٧٨ ماركس ونهاية الاستشراق، ترجمة: يزيد صايغ، ١٩٨١، بيروت: مؤسسة الابحاث العربية.

جوبسر، بيتر
١٩٧٢ السياسة والتغير في الكرك - الاردن: دراسة لبلدة عربية صغيرة ومنطقتها، ترجمة د. خالد الكركي، ١٩٨٨، مراجعة د. محمد عدنان البخيت، عمان: الجامعة الاردنية.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الخطبا، فوزي
١٩٨٩ محمد المحيسن: حياته وآثاره، سلسلة أعلام من الاردن (١)، عمان: شقير وعكشه للطباعة والنشر والتوزيع.

خوري، فؤاد
١٩٨٣ القبيلة والدولة في البحرين: تطور نظام السلطة وممارستها، بيروت: معهد الانماء العربي.

دائرة الاحصاءات العامة
١٩٨٩ النشرة الاحصائية السنوية، العدد ٤٠، عمان.

الراعي، لوريس
١٩٨٧ التغير الاجتماعي الاقتصادي في مجتمع بدوي، طرابلس: جروس برس.

الربايعة، أحمد
١٩٨٢ الهجرة من الريف الى مدينة اربد، عمان: الجامعة الاردنية.

شتريير، جوزيف
١٩٨٢ الاصول الوسيطة للدولة الحديثة، ترجمة: محمد عيتاني، بيروت: دار التنوير.

شرابي، هشام
١٩٨٧ البنية البطركية - بحث في المجتمع العربي المعاصر، بيروت: دار الطليعة.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

الطوالبه، محمد أحمد
١٩٨٢ مدينة اربد: دراسة في جغرافية العمران، رسالة ماجستير غير منشورة، الاسكندرية: جامعة الاسكندرية.

فيبر، ماكس
بدون تاريخ الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: علي مقلد، بيروت: مركزالانماء القومي.

لانكستر، هاردنج
١٩٦٧ آثار الاردن، ترجمة: سليمان الموسى، الطبعة الثانية، ١٩٧١،عمان: منشورات وزارة السياحة والاثار.

محجوب، محمد عبده
١٩٧٤ مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية: منهج وتطبيق، الطبعة الثانية، الكويت: وكالة المطبوعات.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

المراجع الأجنبية

yubi, Nazih

1980 Bureaucracy and Politics in Contemporary Egypt. London: Ittlaca Press.

Davis, John

1987 Libyan Politics: Tribe and Revolution. London: I. B. Tauris Series.

Gerholm, Tomas

1977 Market, Mosque, and Mafraj. Social Inequality in Yemeni Town. Stockholm: University of Stockholm Press.

Goldwin, Robert, ed.

1922 Bureaucrats, Policy analysts, Statesmen: Who Leads? Washington: American enterprise Institute for Public Research.

Layne, Linda

1986 The Production and Reproduction of Tribal Identity in Jordan. Unpublished Ph.D Dissertation. Princeton University.

Misra, B. B

1980 The Bureaucracy in India: an Historical Analysis of Development Up to 1947. Delhi: Oxford, U. P.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University

Weber, Max

1964 The Theory of Social and Economic Organization. edited by Talcott Parsons. U.S.A: Macmillan Publishing Co. Inc.

1968 International Encyclopedia for Social Sciences. New York: The Macmillan Company and The Free Press.

1986 Macmillan Dictionary for Anthropology. Hong Kong: The Macmillan Press Ltd.

© Arabic Digital Library-Yarmouk University